تمهيد:

الحمد لله الذي أنزل القرآن، فأنار به البصيرة والأبصار، ومجد العقول وجعلها أعظم آية من آياته، وأذكى الأحاسيس بمعاني المحبة والرجاء؛ لنسأله العافية في الدين والدنيا والآخرة.

والصلاة والسلام على نبيه المختار الرحمة المهداة، والنعمة المبتغاة، والبشرى الملقاة على مهوى أفئدة العابدين، والأتقياء، والأخفياء، والأبرياء والأولياء، وجميع الصالحين من المؤمنين، وصل اللهم عليه وسلم تسليما إلى يوم أن ترث الأرض ومن عليها.

أما بعد؛

فليس من اليسير رسم صورة واضحة، وكاملة عن تطورات الأوضاع السياسية والاقتصادية، والاجتماعية، والعلمية إبان عصرشارح القصيدة الشقراطسية موضوع الدراسة: محمد العربي بن يوسف الفاسي (988هـ–1052هـ)؛ لعدم حصولنا على كل نشاط مضبوط لكل مرحلة من المراحل التاريخية، لأننا لم نتمكن من تحديد بداياتها، ونهايتها بدقة، وإنما كان عملنا استنتاجيا من خلال ما وجدناه من نصوص تاريخية، أرخت لتلك الأوضاع، وهي فترة غطاها من الناحية السياسية أعلام أمثال: عبد العزيز الفشتالي (956هـ–1031هـ) في كتابه: مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، ومحمد الصغير الإفراني (1080هـ–1156هـ) في كتابه: نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي.

لقد عاش الشارح فترة اضطراب سياسي، اجتماعي وعلمي، انتقال من أوج الحضارة المغربية التي مثلها الدور المريني إلى انحدار حضاري ممثلا في الفترة بين وفاة المنصور الذهبي وتولي المولى إسماعيل بن الشريف (1012/1605– 1082– 1671). وقد تعاقبت في هذه الفترة الدول: المرينية–الوطاسية–السعدية–ثم العلوية.

كانت نشأة محمد العربي الفاسي خلال هذه الفترة، شهد خلالها المغرب تقلبات الأوضاع من فتن، وسيبة، وعدم انتظام الحكم، وعدم وجود مملكة تضم التراب المغربي كافة... واتسمت كذلك باحتلال الدول الأوربية (إسبانيا، البرتغال، بريطانيا) لمعظم الشواطئ المغربية، مما جعل هذه الأحداث كلها تكتب تاريخا مشتركا في الفترة الممتدة ما بين منتصف القرن العاشر الهجري ومنتصف القرن الحادي عشر الهجري، في السياسة، والحرب، والعلم. ومن الآثار غير المباشرة لهذه الفترة: جرأة الشارح في كتابة هذا الشرح المراد تحقيقه، إذ يقول في مقدمة مؤَلَّفِه: "...ولولا إعظام أمره، وإلزام أجره، ما فعلت لتوفر الصوارف، فوق ما يصفه الواصف، ولا أقل من اضطراب الزمان، واغتراب المكان، وتعسر الأسباب، وتعذر الإخوان..."[1].

سنطرق إلى هذا الشرح، وبتفصيل يشهد ريادة الشارح محمد العربي الفاسي في هذا المجال، خلال الفترة التي عاشها، وما كان لهذه الاضطرابات السلبية في زمنه، من تأثير إيجابي على موسوعيته العلمية، والأدبية، والفقهية....

[1]– مقدمة المتن المحقق، ص: 1.

مقدمـة:

إن البحث في الأدب المغربي يعتبر من أهم القضايا المطروحة الآن على الباحثين. فارتأيت من الأولويات أن أقوم بهذه المحاولة على أن أشارك في تدارك التقصير الذي انتابه من قبل بعض الباحثين في فنون الأدب، وما التصق به من قبل بعض المشارقة، واتهاماتهم له بأنه تابع لهم ونسخة من تأليفهم، ولا أحد يلتحق بركبه في كثير من الفنون.

من هذه الادعاءات وغيرها؛ التي أظهرت عزوف الباحثين عنه والزهد فيه، جعلتني أنظر إليه على أنه ميدان بكر، وثري، لم يكتشف كله بعد، ولم يدرس كله الدراسةَ الوافيةَ؛ حتى لا يبقى موسما دائما بتلك الأحكام الجائرة، بل يجب أن ننظر إليه من حيث:

✓ إنه أول ميدان تاريخي دال على كل الفترات والمراحل؛ التي مر بها الأدب في الغَرْبِ اللإسلامي.

✓ كما أنه ميدان خصب يُنطلق منه لتأسيس ثقافة متميزة لها خصائصها الفكرية والفنية.

✓ كما أنه ميدان متنوع الأشكال والمضامين من حيث العدد وكمية التآليف والتنوع في مختلف المجالات، والإبداعات الخاصة به، إذ أن التآليف المغربية حافظت على الإرث الحضاري العربي الإسلامي في المغرب، هذا بوجه عام، وبوجه خاص حافظت على التميز الإبداعي الأدبي المغربي، كما تعلق المغاربة بالمديح النبوي الشريف؛ حيث نجد كثيرا من أعلام الأدب اهتموا به وتعقبوا مراحله، وأعطوه اهتماما بالغا مثل ما نالت عندهم قصيدة كعب بن زهير [بانت سعاد] من اهتمام ملحوظ وهاموا بها تقريظا، وشرحا، ومعارضة.

نلمس كذلك هذا الاهتمام جليا في كثرة الشروح؛ لمقصورتي حازم القرطاجني وابن دريد، وأوقفتهم كثيرا كل قصائد المديح النبوي مثل: تائية دعبل الخزاعي (ت 220هـ) الشهيرة، وكافية الشريف الرضي (ت 406هـ)، وغيرهما من قصائد المديح البليغة.

إلى أن ظهرت قصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية، حيث لم تترك لقصائد المديح النبوية إجمالا أية فرصة أخرى من مثل هذا الاهتمام، بعدما قام بنظمها عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ)؛ حتى قال فيها الرحالة العبدري (ت 700هـ) في رحلته إلى الوجهة الحجازية: "قد أبدع هذا الناظم –رحمه الله– فيما نظم. وشرَّفَ هذه القصيدة بقصد الجميل فيها وعظم. فراقت معنى ومنظرا، وشاقت حسا ومخبرا"[1]. فهو كما وصفها أبو عبد الله المصري المعروف بابن الشباط (ت 681هـ)، حين قال: "يئست من معارضتها الأطماع، وانعقد على تفضيلها الإجماع. فطبقت أرجاء الأرض. وأشرقت منها في الطول والعرض..."[2]. وهي كما أشاد بها الهادي مصطفى التوزري: "إنها لقصيدة أبدية على ممر الزمان، والشيء الأعظم الذي امتازت به هو إنما تعد الأولى من نوعها في مدح الرسول صلوات الله عليه، وقد ضمنها معجزاته وأعمالَه، وحكى فيها صراع الباطل والحق، وانتصارَ الصواب، "إن الباطل كان زهوقا"، ضمنها تسابيحه، فشطروها وخمسوها وعشروها ووشحوها، ينشدونها في غالب الأحيان، ويتغنون بها، فتلبيها الآذان، وتنشرح لها الألباب..."[3].

جاراها كثير من الشعراء، فنسجوا على منوالها في كل العصور التي توالت بعدها، وتأثيرها واضح في الأعمال الإبداعية الشعرية، حيث نظموا قصائد في بحرها

---

[1]– ص: 143، الرحلة العبدرية إلى الوجهة الحجازية، لأبي عبد الله محمد العبدري الحاجي المغربي، زين العابدين بنطاهر دراسة وقراءة وتحقيق، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في اللغة العربية وآدابها بكلية ظهر المهراز–فاس. س. ج 1992م–1993م، إشراف: محمد مفتاح.

[2]– م. ن، ص. ن.

[3]– ص: 32، أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوزي، سلسلة دراسات أدبية في أعلام النهضة الإفريقية تصدر عن رابطة التضامن الأدبي، مطبعة الترقي، تونس.

ومعناها، وما تزال إلى يومنا هذا محل الإعجاب والتقدير–"ومن ذلك الشاعر المديحي البوصيري (ت 696هـ) الذي نسج على منوالها بحرًا ومعنى، ولم يخالفها في شيء، عدا تغيير بسيط في اللفظ والقافية. ففضل البوصيري في بردته هو راجع في حقيقة الأمر إلى عبد الله الشقراطيسي، واضع هذا الباب، ومبتكر هذه الطريقة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ولكن تاريخ الأدب نَسِيَهُ وتجَاهَلهُ"[1].

هذا مما يدل على مكانةِ الشقراطسية وأثرِها على ممر الزمان؛ إذ وظفت في كثير من الدروس والبرامج التربوية في النحو والبلاغة، وأخذت منها الأمثلة النموذجية، من الاستشهادات الأدبية والأخلاقية والعلمية، ومن سيرة، وتاريخ، ولكثير من الأحداث الجليلة. وأقبل عليها العام والخاص، كل بحسب مقاصده.

فالعوام أقبلوا عليها في حالة أفراحهم وأحزانهم، ووجدوا فيها تغييرا لأمزجتهم، كلما ادعت الضرورة إلى ذلك، فحفظوها وتغنوا بها في مناسباتهم الاجتماعية، وتبركوا بها في أحاديثهم، كَسَتْ أذواقهم رهافة وجلالاً، وأكسبتهم رقة وجمالاً، وأغنت أحاسيسهم بالنبل والحسن، وأشبعت مداركهم كثيرًا بالدروس المستخلصة من السيرة النبوية الشريفة، والآداب الإسلامية الفاضلة.

أما أثرها على العلماء، فقد استغلوها في فنون التعلم والتعليم، باعتبارها منظومة تربوية هادفة؛ لقنوها للتلاميذ، وأسسوا عليها نماذج يُحتذى بها في النظم، كما سبق الإشارة إلى ذلك، وكتبوا عليها الشروح الكثيرة الغنية؛ لتبسيط العلوم وأضافوا إليها الحواشي المزوّدة بفنون القول والإفادات؛ التي لا غنى عنها لدارس، فقد ملأت مخزون المؤلفات بالغرب الإسلامي، وأعطت بوضوح نكهة خاصة، لمشاركة المغاربة في مجالات النقد والأدب وحقول المعرفة والتأليف؛ خلال القرون التي تلت بعد نضم القصيدة وكتابة شروحها.

---

[1]– مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج. ع. س. 53، من أروع الشعر: أنجم السياسة وقصائد أخرى، القصيدة الشقراطسية، عبد الله كنون، (1399هـ/1979م) – أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوْزري، مر. س، ص: 32.

كما كشف هذا المخزون الغطاء عن مضمون رصين وأصيل، وتأكّد لنا عن طريق البحث والدراسة أن هذه الشروح أثمن ما توصل إليه الفكر المغربي؛ استطاع صياغتها ظاهرة من جديد في معرض التأليف والإبداع المغربي.

إن المتصفح لهذه الآثار يلمس الغنى الثقافي والعلمي والتأليف عند المغاربة، مما أدى إلى الاهتمام به عند طبقة واسعة من الباحثين، لاستخراج مكنونات النصوص المغربية؛ التي هي بحاجة ماسة لهذا النبش البناء من جديد، بغية إعطائها حقَّهَا في الدرس والبحث، والتبشير بمستجداتها، وإنزالها منزلتها اللائقة بها.

إن هذه الشروح جاءت كاملة؛ نظرا لموسوعية أصحابها، فهم من كبار العلماء والفقهاء والمؤلفين، الذين يعرفون مواطن الجمال في تناولهم للفنون والعلوم، فجمعت مصنفاتهم بين طرفي الفائدة والمتعة، لذلك تنقلك كتاباتهم من صرامة العقل إلى بداهة العفوية، في إراحة هذا العقل بضروب من ألحان القول، في أريحية من النكت، وغريب الطرائف، ونوادر الأشعار؛ ومن أبرز هذه الشروح؛ شرح محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) المسمى "شرح القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية"، فهو العالم الفقيه والأديب الناقد، عاش في عهد الدولة السعدية (خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين).

إن هذا الشرح يمتاز بتفرده عن غيره من الشروح، في جمعه لكثير من العلوم؛ التي مارسها الشارح على النص الأدبي، بغية استخراج مكامنه، واستنطاق جوانبه؛ التي لم يسبقه إليها أحد من الذين شرحوا القصيدة الشقراطسية قبله أمثال: الحافظ شهاب الدين أبي شامة عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ).

إن الناظر في شرح أبي شامة –على سبيل المثال لا الحصر– لا يجد مثل هذا الاهتمام العلمي، الذي حظي به النص عند محمد العربي الفاسي، فقد قصر أبو شامة

المقدسي اهتمامه على الأحداث التاريخية، والأحاديث النبوية المرتبطة بها مع قليل من الشروحات اللغوية[1].

أسباب الاختيار:

اخترت تحقيق هذا المخطوط للأسباب الآتية:

– فن البديعيات إبداع مغربي صرف، وإن حاول بعض المشارقة سلبه من قائمة المشاركة الأدبية المغربية؛ باستثناء ما أقره زكي مبارك بأمانة ووضوح في كتابه المدائح النبوية: أن الشيخ شمس الدين أبا عبد الله محمد ابن أحمد بن علي الهواري المعروف بابن جابر الأندلسي (ت 780هـ) التي سماها: "الحلة السيراء في مدح خير الورى" أنه مبتكر هذا الفن بقوله: "وقد شغل نفسه بمعارضة البردة، لكن أي معارضة؟ لقد ابتكر فنا جديدا هو البديعيات، وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لكل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع"[2].

لكن السؤال المطروح؛ كيف غاب عن ثقافة زكي مبارك الحديث عن القصيدة الشقراطسية وصاحبها الذي سبق ابن جابر الأندلسي (ت 780هـ) بنحو ثلاثة قرون؟ وهي في مدح النبي عليه أزكى الصلاة والسلام، وكل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع –كما سيتضح لاحقا في مبحث خاص بذلك–.

المديح النبوي له مكانة عند كل المسلمين، وفي قلوب المغاربة خاصة، فهم من أوائل من احتفل بالمولد النبوي طيلة هذه العصور، وجعلوه من الأولويات السلطانية لما يكُنُّه المغاربة من حبٍّ للرسول وتقديرهم لهم وشوقهم لزيارته، واحترامهم المفرط لأهل البيت؛" وقد قَوِيت هذه الظاهرة في أسرة العَزَفي بسبتة، حيث اعْتَنَت بالمولد وبالتأليف

---

[1]– شرح القصيدة الشقراطسية، الحافظ شهاب الدين أبي شامة عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ)، تح ودراسة: مصطفى المسلوتي، إشراف: محمد سيف، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، دار الحديث الحسنية، 1410هـ/1990م، الرباط.

[2]– ص: 205، المدائح النبوية، زكي مبارك، دار الكتب، د. ط، 1967م، مصر.

فيه، فألّف أبو العباس العزفي (ت 633هـ)، "الدر المنظم في مولد النبي المعظم". وأكمله ابنه أبو القاسم (ت 677هـ)[1].

صاحب الشرح فقيه عالم مغربي، لم تَنْجُ تآليفه المخطوطة من الإهمال والنسيان؛ بالرغم من شهرته الواسعة والأخذ عنه.

– حب الاطلاع على آثار أدباء المغرب، ومشاركتهم في النهضة الثقافية قديمًا، وإخراج هذا العمل المخطوط محققا؛ ليُسْهِمَ ولو بالتفاتة بسيطة، وليطلعنا على ما كانت عليه مستويات الأدب، والنقد في تلك الفترة وتسليط الضوء عليها، وليُتولى الاهتمام بها من طرف الدارسين المختصين.

– معرفة ما توصل إليه المديح النبوي من تطور في جوانبه المختلفة من ذوق خاص.

– كما أنني لا أستطيع أن أخفي شعوري بانجذاب كبير لهذه المعاني الراقية في المديح النبوي؛ التي مثلت لي رافدا روحيًا أمدني بمصدر عظيم، نابع من صفاء العقيدة وتجليات وحدانية الله، وزاداً معرفيًا وثقافيًا وأدبيًا، أصبح لا غنى عنه في تفاعلي وتواصلي المريح مع هذه الأجواء الرائعة الفذة؛ التي لا أجدها إلا وأنا في ظلال هذا المخطوط الممتع والمقنع، وأمثاله.

[1]– ص: 20–21، "في المدحة النبوية أبحاث وأوراق"، عبد الله بنصر العلوي، آنفوبرانت، ط. 1، 2016م، فاس.

أما الأسباب الموضوعية:

فإن شرح محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ). قد أطبقت شهرته الآفاق شرقًا وغربًا، وجدنا صيتَهُ في المكتبة الوطنية بمدريد –إسبانيا–، إذ توجد نسخة منه بخط عمر بن يوسف الفاسي عام 1102هـ[1]، وعلى الأرجح هي نفسها التي بحوزتي، أي المعتمدة في هذا التحقيق، لأن ناسخها واحد؛ هو عمر بن يوسف الفاسي –حفيد المؤلف–، وعندما لم أتمكن من تصويرها أعرضت عنها.

إن شرحه يعتبر مصدرًا نقديًا جادًا وجديدًا؛ ظهر خلال القرن العاشر والحادي عشر الهجريين، يمكن التعامل معه بكل ثقة وأمان، لمعرفة المصطلحات العلمية والوسائل المعرفية، والأخذ بها واستعمالها استعمالا مثمرًا، حسب ما تتيحه الفرص، وتتطلبه الحاجة إلى ذلك، ويعتبر الشرح حكماً صريحاً، وواضحاً على تطور النقد المغربي؛ لكل متتبع لهذا التطور.

تميز شرحه بالموسوعية من حيث الكم والكيف، فقد حوى منظومة قيمة شيدها من معارف شتى؛ تميزت بغزارة المادة، والدقة في وضع الموازين والمعايير النقدية.

لم يعتمد محمد العربي الفاسي في نقده منهجًا تلفيقيًا مختلقا أو مقلدًا غيره على الإطلاق؛ بالرغم من استعماله لما هو موجود ومعروف؛ لكن بمعايير تحمل بصماته، أصلت لمادة في النقد المغربي القديم، فقد فصل بين النص باعتباره مادة حاضرة وحقلا من حقول المعرفة القائمة بذاتها، وبين الأدوات والوسائل النقدية المسلطة على النص لاستنطاقه؛ فهو ينطلق من النص، ثم يفكك وحداته في محاولة لاستنطاقها، ليُعيد تركيبها من أجل الاستمرار والتجدد.

كما تميز شرحه بالجمع بين الموروث الثقافي والحضاري، والجديد الذي وصل إليه النقد في تلك الفترة، من سعة المادة وغناها ودقتها في معالجة النصوص، ومعرفة

[1]– مجلة دعوة الحق، جولة في المخطوطات العربية بإسبانيا، العدد: 95.

مكامن الجمال فيها، وجمعها للثقافات المختلفة الوافدة؛ التي عكست انفتاح الحضارة المغربية على الحضار الإسلامية، واستيعابها لحضارات الشعوب الأخرى بأريحية، وإعادة تركيبها من جديد، وإخراجها ثقافة حضارية إسلامية عربية أصيلة.

الصعوبات:

واجهتني صعوبات متوقعة نظرا لطبيعة الاختيار، ومن بينها:

- عدم التمكن من تصوير نسخة مدريد للمقابلة، فكان لزامًا أن أقابله بالمصادر المحققة (الأحاديث–النقول–الأشعار)، أو ملء البياضات من المصادر –إن أمكن ذلك–.
- كثرة الأحاديث والأثار والنقول التي استشهد بها المؤلف، مما استدعى مجهودا لتخريجها وتوثيقها من مصادرها.
- كثرة الأعلام الواردة في المتن، مما تطلب مجهودا للتعريف بها.

رغم ذلك فقد استعنت بالله عز وجل، واستلهمته العون والسداد، وعقدت العزم على تقديمه وتحقيقه بعد موافقة الأستاذ الفاضل الدكتور خالد سقاط بالإشراف على الأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، تقديما وتحقيقا، فوجدت منه كل التشجيع، وحسن التوجيه؛ لأنه على اطلاع واسع بالمؤلَّف والمؤلِّف، فكان تفضله هذا دافعا قويا في المضي نحو الانجاز، وبدأت رحلة البحث، واستفدت كثيرا من لقاء الأساتذة المختصين، وعلى رأسهم العلامة الأستاذ الدكتور إدريس الفاسي الفهري، أستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة–فاس ونائب رئيس جامعة القرويين بفاس–أطال الله عمره– صاحب اقتراح مخطوط الشرح والذي كان يراسلني مرات في الموضوع من البقاع المقدسة إذا عثر علي ما يفيد الأطروحة والدكتور مولاي أحمد العراقي، أستاذ التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز– فاس، والأستاذ الدكتور عبد الله بنصر العلوي، أستاذ التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز–فاس، والأستاذ

الدكتور أحمدزكي كنون، أستاذ التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز–فاس، والأستاذ الدكتور عبد الوهاب الفيلالي، أستاذ التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز–فاس، والأستاذة الدكتورة سعيدة العلمي، أستاذة التعليم العالي بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز–فاس، والدكتور محمد زبير بناني، أستاذ التعليم العالي والكاتب العام لجامعة القرويين بفاس، وتوثقت الصلة العلمية بيننا عن طريق الاتصالات معهم، واستطعت بفضلهم الاطلاع على كثير من المصادر والمراجع المفيدة للعمل في الأطروحة؛ التي لَوَّنت مشارب التقديم والتحقيق.

قسمت البحث إلى مقدمة وخاتمة، وبينهما قسم التقديم، وقسم التحقيق.

* **المقدمة:** عرضت فيها طبيعة الموضوع، ودوافع البحث واختياره، وقيمته، وأهميته، وصعوباته ومراحله.

* **قسم التقديم:** قسمته إلى ثلاثة فصول، تنضوي تحتها مباحث ومطالب.

قسمت **الفصل الأول** إلى ثلاثة مباحث، جعلت الحديث في المبحث الأول عن عصر شارح القصيدة الشقراطسية (محمد العربي الفاسي). وتطرقت فيه باختصار عن الحالة السياسية والثقافية والعلمية السائدة زمن الشارح. أما المبحث الثاني تناولت فيه ترجمة مفصلة لمحمد العربي الفاسي، فكان من بين ما ركزت عليه أولا، جرد المصادر والمراجع التي ترجمت له. ساعدني ذلك على وضع ترجمة وافية له، بيّنت من خلالها اسمه ونسبه ونشأته وولادته وأهم شيوخه وتلامذته ومكانته العلمية، وشهادات وأقوال العلماء فيه، وما خلّفه من مصنفات علمية وأدبية، بعضها محقق، والبعض الآخر ما يزال مخطوطا. وفي المبحث الثالث جاء الحديث عن الزاوية الفاسية التي ينتمي إليها المؤلِّف، فَبينتُ أصل الأسرة الفاسية ونشأتها ومناقبها وأدوارها وفروعها.

أما الفصل الثاني فقسمته كذلك إلى ثلاثة مباحث، خصصت المبحث الأول التعريف بناظم القصيدة: أبو عبد الله بن يحيى بن علي الشقراطيسي (ت 466هـ)، تطرقت إلى شعره، من غزل وفخر ورثاء ومديح، وذكرت بعضا من آثاره العلمية. أما المبحث الثاني ففصلت القول في القصيدة المشروحة، حيث أوردتها كاملة بتحقيق عبد الله كنون كما وردت في مجلة المناهل، ع: 18، سنة 1980م وأبرزت قيمتها الأدبية والعلمية، ثم تحدثت عن المديح النبوي وتطوره في المشرق والغرب الإسلامي. بعدها وقفت على أثر القصيدة الشقراطسية في قصائد المديح النبوي التي جاءت بعدها، وركزت الحديث عن أثرها في بردة البوصيري وهمزيته. ثم تطرقت إلى من عَشَّرَها ووشحها وخمسها وشطرها وشرحها، لأنتقل إلى المبحث الثالث، الذي خصّصته للبناء الفني للبديعية الشقراطسية.

أما الفصل الثالث فقسمته إلى ثلاثة مباحث، جعلت الحديث في المبحث الأول عن الشروح الشعرية: النشأة والتطور، والمبحث الثاني تناولت فيه التعريف بالكتاب المحقق من حيث قيمته العلمية والأدبية، ومنهجية المؤلِّف في مؤَلَّفه، ودوافع المؤلِّف في اختياره للنص المشروح، مع تعيين مصادر الاستشهاد في الشرح للقصيدة الشقراطسية. لأختم بمبحث أخير حددت فيه مضامين الشرح، حيث قسمته إلى مستويات، منها اللغوي (المعجمي والصرفي)، والنحوي، والبلاغي، والتاريخي، والمعنوي التركيبي.

* **قسم التحقيق:** خصصته لتحقيق شرح القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية، لمحمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) وهو أس البحث وأصله. اعتمدت فيه ما أمكنني المنهج العلمي المتبع عادة في التحقيق.

أفردت صفحات للحديث عن منهجية العمل في التحقيق، ووصفت النسخة الوحيدة للمخطوط التي توجد ضمن مجموع تحت رقم: ع 684 بخزانة علال الفاسي

بالرباط، المغرب. وقدمت قائمة بالرموز المعتمدة في تحقيق المتن. ثم شرعت في التحقيق والإخراج.

أشير أن استراتيجية العمل في التحقيق انبنت أساسا وفق عملية علمية دقيقة، بدءً من كتابة المتن، إلى كل ما من شأنه أن يخدم النص في الهامش، من قبيل تخريج الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وترجمة الأعلام البشرية والجغرافية، مع شرح الكلمات الغريبة، وملء البياضات من المصادر، إن أمكن ذلك، وتصويب ما يمكن تصويبه من تحريفات وتصحيفات.

* **الخاتمة:** ضمَّنْتُها جملة من الإشارات الجوهرية التي استخلصتها مما تقدم في ثنايا العمل برمّته.

أشير إلى أن المصادر التي اعتمدتها كانت كثيرة ومتنوعة رافقت عملي في التحقيق والتقديم، أذكر منها كتب الأدب واللغة والتاريخ وسلسلة التراجم والسير والتفسير والحديث والسنن والدواوين الشعرية والمقالات المختلفة والأبحاث العلمية لكبار الأساتذة والمختصين في الميدان؛ منها المطبوع والمرقون والرقمي.

والذي لا ريب فيه، أن هذا العمل، لابد أن يكون مشوباً بالنقص، موصوفاً بالقصور، غير أني أقول مع ابن الزبير الغرناطي (ت 708هـ): "أعوذ بالله من الإقدام على ما لا نعلم، والتكلم بما لا نفهم، فاستعذ أيها المعتبر من قاصر بحثك وفتنتك، وأعلم أن هذا ليس بعشك، فإن شئت فاخْرُجْ، وإلا فادْرُجْ"[1].

[1]– ص: 113، الزمان والمكان، ابن الزبير الغرناطي (ت 708هـ)، تح: محمد ابن شريفة، مطبعة النجاح، ط. 1، 1992م، الدار البيضاء.

الباب الأول

الفصل الأول

المبحث الأول: عصر الشارح محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052) –شارح القصيدة الشقراطسية–

المبحث الثاني: ترجمة شارح القصيدة الشقراطسية: أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ).

المبحث الثالث: الزاوية الفاسية.

المبحث الأول: عصر الشارح محمد العربي ابن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) -شارح القصيدة الشقراطسية-

المطلب الأول: الحالة السياسية.

المطلب الثاني: الحالة الثقافية والعلمية.

إن عصر أبي حامد محمد العربي الفاسي هو عصر الدولة السعدية التي امتد تاريخ سلطانها حوالي قرن ونصف، من (917هـ/1509م) تاريخ تأسيسها على يد القائم بأمر الله السعدي (ت 923هـ)، إلى غاية (1082هـ/1671م) تاريخ تولي المولى إسماعيل بن الشريف(ت 1139هـ)، وانتقال الحكم من السعديين إلى الشرفاء العلويين.

تداول على حكم الدولة السعدية العديد من الحكام[1] منهم من دامت أيام حكمه سنين كثيرة، ومنهم من لم يستمر غير سنتين أو ثلاث، إلا أن فترة حكمهم تميزت باضطراب سياسي واجتماعي واقتصادي وفكري.

ما يهمنا في هذا المقام هو الفترة الممتدة ما بين 986هـ و1052هـ؛ أي فترة بيعة المولى أحمد المنصور، وهي الفترة التي حقق فيها السعديون انتصارا بينا على ملك البرتغال "دون سبستيان" وجيشه في معركة وادي المخازن، وهي فترة وفاة محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، فترة يمكن تقسيمها إلى مرحلتين:

- مرحلة حكم أحمد المنصور (986هـ–1012هـ).
- مرحلة ما بعد المولى أحمد المنصور (ما بعد 1012هـ).

إن سنة 986هـ، سنة تحوُّلٍ حاسمة في تاريخ الدولة السعدية، فهي من جهة أولى سنة الانتصار على ملك البرتغال –كما ذكرت سلفًا– في معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة أو غزوة تامدة، كما سماها محمد العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن[2]، وبيعة المولى أحمد المنصور الذي كان ذرة عقد هذه الدولة الشريفة، ومن جهة أخرى هي سنة شارك فيها أبو المحاسن الفاسي (ت 1013هـ)، والد شارح القصيدة الشقراطسية (محمد العربي الفاسي)، في معركة وادي المخازن، حيث أبان عن

---

[1]– مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، أبو فارس عبد العزيز الفشتالي (ت 1031هـ)، تحقيق ودراسة: عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، د. ط، د. ت الرباط، ص: 25 وما بعدها. الكتاب غطى فترة حكم أحمد المنصور الذهبي كاملة (986هـ–1012هـ)، نزهة الحادي للإفراني (ت 1156هـ)، م. س، ص: 17 وما بعدها.

[2]– مرآة المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 10 وما بعدها.

شجاعته وجهاده ضد العدو البرتغالي، والكرامات التي ظهرت على يديه أثناء المعركة[1].

لغرض بلوغ الهدف المتمثل في تقديم رؤية حول الفترة المذكورة، يتبادر إلى الأذهان مجموعة من النقاط البحثية التي سيدور حولها الموضوع والمتمثلة في الآتي:

1- الحالة السياسية.

2- الحالة الاقتصادية والاجتماعية.

3- الحالة الفكرية.

المطلب الأول: الحالة السياسية.

➢ **مرحلة حكم أحمد المنصور الذهبي (من 986هـ إلى 1012هـ):**

تفرد تاريخ السعديين خلال فترة حكم المولى المنصور بعدة أحداث تاريخية هامة، غير أن ثلاثة منها تبرز ملامحها ساطعة:

- معركة وادي المخازن وبيعة المولى أحمد المنصور ومشاركة أبي المحاسن الفاسي فيها.

- بعض الفتوحات الواسعة التي قام بها السلطان السعدي مثل فتحه السودان الغربي - سنغاي - ودخول جيشه مدينة تمبكتو.

- احتفال المنصور بالمولد النبوي.

☜ **معركة وادي المخازن وبيعة المولى أحمد المنصور ومشاركة أبي المحاسن الفاسي فيها:**

[1]- مرآة المحاسن، م. س، ص: 140 وما بعدها.

يقول محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) في كتابه مرآة المحاسن عند حديثه عن بعض الكرامات التي ظهرت على يد والده أبي المحاسن (ت 1013هـ) من أخبار مشاركته في معركة واد المخازن: "إن النصارى –دمرهم الله– لما استجاشهم السلطان أبو عبد الله محمد المتوكل بن السلطان أبي محمد عبد الله بن السلطان أبي عبد الله محمد الشيخ الحسني على عمِّه السلطان أبي مروان عبد الملك المعتصم؛ خرجوا إلى بلاد المسلمين في ربيع الثاني سنة ست وثمانين وتسعمائة، وعظيمهم "سبَسْتْيَان" ملك البرتغال، واحتشد أممًا من النصرانية، يقال إن مجموعهم كان: مائة ألف وعشرين ألفًا، وأقل ما قيل في عددهم: ثمانون ألف مقاتل. وضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر، وكانت أصيلا قد تصيرت إليهم قبل ذلك بأشهر، فعاين أهل القصر الهلكة؛ لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها، وفُشُوِّ النفاق لأجل السلطان أبي عبد الله الذي معهم، وبُعْدِ صريخ المسلمين؛ فإن السلطان أبا مروان كان إذ ذاك بمراكش، فاستبطؤوا وصول الخبر إليه وحرْكته بعده، فلم يبق لهم تدبير إلا الفرار والتحض بالجبال وغيرها.

قال الشيخ[1] لرجل من أصحابه: "نَادِ في الناس أن: الزموا بلادكم ودوركم؛ فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو، حتى يجيء السلطان من مراكش، والنصارى غنيمة المسلمين، ومن شاء فليعط خمسين أوقية للنصراني!". يشير إلى مبلغ قيمة النصراني في الغنيمة. فما انتقل النصارى من مكانهم ذلك أزيد من شهر حتى قدم السلطان أبو مروان –وكان مريضًا–، فالتقى الجمعان يوم الإثنين مكمل جمادى الأولى سنة ست وثمانين وتسعمائة؛ فمنح الله المسلمين النصر؛ فقتل "سبستيان" في ذلك اليوم، واستولى المسلمون على ما معه، فما نجا من النصارى إلا قليل، وفر مستصرخهم السلطان أبو عبد الله، واضطر إلى عبور وادي المخازن؛ فوقع في غدير؛ فمات غريقا فيها، واستخرج منها، وحصل المسلمون على غنيمة لم يكن قط مثلها بالمغرب، إذ لم يتقدم للنصارى خروج به على هذه الصورة، إلا أن الغنيمة لم تقسم والمال تنهبها الناس كما

[1]– أبو المحاسن الفاسي (ت 1013هـ).

اتفق لهم، بحسب القوة والبخت الدنيوي، وكان الناس يتوقعون مغبّتها؛ لاختلاط الأموال بالحرام، فظهر ذلك من غلاء وغيره. وكنا نسمع أن البركة رفعت من الأموال من يومئذ.

وقد حَضَر الشيخ[1] هذه الغزوة وأبلى فيها بلاءً حسنا، وتورع عن الغنيمة، فلم يتلبس بشيء منها، وبلغت قيمة النصراني ما ذكره الشيخ، وكان سبب عدم ضبط أمر الغنيمة بجمعها وقسمها: موت السلطان أبي مروان –رحمه الله– قبل هزيمة النصارى، وكان مريضًا في مِحَفة؛ فأخفى أصحابه موته حتى أظهر الله المسلمين؛ فاشتغل أخوه السلطان أبو العباس أحمد المنصور بجمع الكلمة عليه، ولم يشتغل بأمر الغنيمة؛ فتم له ما قصد، وعُد من البخت له أن مات في يوم واحد ثلاثة من الملوك، وورث هو الملك. والله خير الوارثين"[2].

تعرض المغرب لأهوال ومحن شديدة بسبب الحروب الأهلية التي جرت بين محمد المتوكل وعميه عبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور، وانعكست مضاعفاتها بصفة خاصة على أحوال البلاد العامة "التي نفقت فيها أسواق الفتن، وأظلم الجو فيها بالهرج في سائر أقطار المغرب حتى تنمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطغى الجند... وتعطل الخراج منذ سنين حتى نفذ الطارف والتالد... وكاد سلك الدولة ينتثر"[3].

شجعت هذه الأوضاع السيئة القوى الخارجية المتربصة على الإسراع إلى الاستفادة من الظروف الملائمة للغزو والاحتلال وتتمثل في استعدادات البرتغال للتدخل العسكري وفي الجهود المتواصلة للأتراك لفرض سلطانهم على البلاد.

---

[1]– أبو المحاسن الفاسي (ت 1013هـ).

[2]– مرآة المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 146–147.

[3]– مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 39.

بعد التجاء محمد المتوكل إلى شمالي المغرب عُلم بالاستعدادات التي يقوم بها الملك البرتغالي لغزو المغرب، فأرسل إليه نبيلا برتغاليًا كان أسيرًا عنده هو Don Antonio de cunba[1] ليطلب منه حمايته ومساعدته، وانتقل المتوكل إلى سبتة ومنها إلى طنجة –ينتظر وصول "دون سبستيان"– حيث وجه من هناك كتابًا إلى علماء المغرب يبرر فيه فعلته، إلا أن العلماء استنكروا تصرفاته وأجابوه برسالة طويلة[2].

بالتجاء محمد المتوكل إلى طنجة عند البرتغال، خضعت معظم البلاد لأبي مروان عبد الملك، ولم يبقَ خارجًا عنه غير منطقة الغرب التي كانت تضمُّ أصيلا، والعرائش، والقصر الكبير، والتي كانت تحت حكم عبد الكريم ابن تودة صهر المتوكل الذي طلب النجدة من البرتغال مقدّمًا لهم مدينة أصيلا التي سرعان ما وقع احتلالها من طرف القوات البرتغالية، "من نزوع ابن تودة قائد الفحص وبلاد الهبط إلى أرض الشِّرْكِ، ومحاجاته بالنصارى إلى أصيلة على حين غفلة من أهلها وإجهاض المسلمين عنها إلى القصر، فتملكها المشركون"[3].

إن مجيء المتوكل إلى طنجة وطلب مساعدة لشبونة ضدّ عمِّه المعتصم، مقابل التنازل للبرتغال عند سائر السواحل المغربية، والتجاء عبد الكريم بن تودة صهر المتوكل إلى طنجة أيضًا وتنازل للبرتغال عن أصيلا كانا بالنسبة "لدُون سِبَسْتيان" سَبَبَيْن كافيين ليتدخل في المغرب.

"قاد الملك البرتغالي قوّات هائلة بلغ تعدادها نحو عشرين ألف[4] محارب، وأرست جميع قطع الأسطول بمدينة أصيلا التي اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب، وقد كان

---

[1]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 74.

[2]– م. ن، ص. ن.

[3]– مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 114.

[4]– قدّر عددهم محمد العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن –كما ذكرت سلفا– بمائة ألف وعشرين ألفا.

وصول القوات المهاجمة يوم الإثنين 12 يوليوه 1578م، حيث عسكرت بضواحي مدينة أصيلا، علاوة على قوات المتوكل التي كانت تقدر بنحو خمسمائة فارس"[1].

إن البلاد –كما ذكرت سلفًا– كانت تَعيش أوضاعًا داخلية سيئة نتيجة الحروب الأهلية، وتتعرض في الآن نفسه لمؤامرات خارجية، غير أن نزول الجيش البرتغالي بقيادة ملكه بأصيلا، ومناداة عبد الملك المعتصم في جميع أنحاء المغرب بالجهاد، غيَّر بسرعة من ظروف البلاد الداخلية وجعل صفوف المجاهدين تتقدم لمواجهة الخطر الخارجي. يقول محمد الصغير الإفراني (ت 1156هـ) "ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم... حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية، وتجدّد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع لا يقاس... عقد الراية المنصورة بالله وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها أهل الله حملةُ القرآن مائة ختمة، وصحيح البخاري، وضجوا عند ذلك بالتهليل، والتكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير، والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين"[2].

التقى الجمعان قُرب وادي المخازن، وجرت معركة حاسمة في تاريخ المغرب عامّة، وفي تاريخ السعديين خاصّة، يوم الإثنين 30 جمادى الأولى عام 986هـ/الموافق 4 غشت 1578م، عرفت بمعركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة[3].

اعتمادًا على ما دوّنه وزير المنصور عبد العزيز الفشتالي في "مناهل الصفا": فإن عبد الملك المعتصم قد اشتد عليه المرض ليلة المعركة، "إلى أن كان من زحف

---

[1]– المجموعة الكبرى للوثائق المغربية، هنري كاستري، المطبوعة تحت عنوان: "المصادر الأصلية لتاريخ المغرب" –السلالة السعدية– محفوظات ومكتبات إنجلترا، د. ط، 1918م، 293/1.

[2]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 65.

[3]– م. ن، ص: 75. وأضاف محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ). أنها سمت كذلك بـ"تامدة".

طاغية برتغال[1] في جموع الشرك لوادي المخازن، وإرجاف الناس بمرض أخي المعتصم[2] ما بلغ من أجله الحزامُ الطُّبْيَيْنِ، فارتبك الأمر، وأرعدت سماء الهول، وأبرقت بتوالي زحوف العدوتين، وأخراب الملتين إلى اللقاء للغد، واضطربت أحوال المسلمين، وانحلت عزائم المستضعفين منهم"[3].

"كان ممّن حضر من الأعيان في هذه المعركة أبو المحاسن سيّدي يوسف الفاسي وغيره، وسمعت أن الشيخ الغوث سيّدي أبا العبّاس السبتي رحمه الله رئيَ فيها جهارًا على فرس أشهب وهو يحضّ الناس على التقدم... توفي عبد الملك عند الصدمة الأولى منه وكان مريضًا في محفّته... وعلم أيضًا بموته أخوه المنصور فكتمها... إلى أن هبّت على المسلمين ريح النصر... وحكمت السيوف في رقابهم ففرّوا، "ولات حين فرار"، وقتل الطاغية البرتغالي غريقًا في الوادي... وبُحث في القتلى عن محمد بن عبد الله فوجد غريقًا في وادي لكّس... وممن وجد في القتلى أبو عبد الله محمّد بن عسكر صاحب "دوحة الناشر""[4].

بوفاة عبد الملك في اليوم المشهود، بايع الناس أخاه أبا العبّاس أحمد المنصور. قال ابن القاضي (ت 1025هـ): "فانظر لحكمة الله الواحد القهّار، أهلك الله ثلاثة ملوك في يوم واحدا وهم: أبو مروان، وابن أخيه محّمد بن عبد الله، والطاغية سبستيان، وأقام واحد وهو أبو العبّاس المنصور"[5].

---

[1]– دون سبستيان Don sabastian بن الملك جان الثالث تولى عرش لشبونة سنة 1562م – هامش مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 26.

[2]– يؤكد المؤرخ المغربي أحمد بن القاضي المكناسي (ت 1025هـ)، بأن الأتراك هم الذين دبروا مؤامرة تسميم عبد الملك المعتصم: "أن قائد الأتراك الذي كان معه بعث لبعض قواده أن يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد الملك المذكور قبل وقت جوازهم عليهم قصد بذلك بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت الملك لهم فيها". درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك"، مخطوط بدار الوثائق بالرباط تحت رقم: د 1428.

[3]– مناهل الصفا، الفشتالي، م. س، ص: 27.

[4]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 75–76.

[5]– درة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي المكناسي (ت 1052هـ)، تح: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، د. ط، د. ت، القاهرة، ص: 99.

☜ بعض الفتوحات التي قام بها السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي:

"لمّا استقر المنصور بمراكش مَرْجِعَهُ من فاس، وأمن مقاتلة الترك، طمحت نفسه إلى التغلّب على بلاد توات وتيكرارين، وما انضاف إليهما من القرى والمداشر، إذ كان أهلهما قد انفكّت عنهم أيدي الملك منذ زمان، ولم يستولِ عليهم سلطان قاهر، فسنح للمنصور أن يجمع بهم الكلمة ويردّهم إلى أمر الله، فبعث إليهما قائده أحمد بن بركة، وقائده أحمد بن حدّاد العمريّ المعقليّ، في جيش عرمرم، بلغوهما عن سبعين مرحلة من مرّاكش، وكانوا قد تلوّموا إلى أهلها بأعذار، والدعاء للطّاعة، فامتنعوا من الأذعان، واستزلّهم الشيطان فنازلوهم، وقامت الحرب بينهم على ساق، وطالت المعركة بينهم أيّامًا، فمكّن الله منهم، وحقّ عليهم القول، فأصبحوا كأمس الذاهب، وانتهى الفتح للمنصور، ففرح بذلك غاية الفرح، وقال في ذلك الشعراءُ قوافيَ، وكان ذلك كلّه سنة تسع وثمانين وتسعمائة"[1].

لكن ما الداعي إلى القيام بالسيطرة على المنطقتين قبل غيرهما من المناطق الصحراوية؟ ألم يكن بوُسع أحمد المنصور مهاجمة المناطق الصحراوية بجنوبي المغرب والنفاذ منها إلى السودان؟

"القُطران عالم من عوالم الأرض... بما جمع من الأمم وتراكم فيه من القصور، واتصل من العمران، وتخلّله من العيون"[2]، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، "احتلال المنصور لهاتين المنطقتين يمكنه من قطع الطريق على الأتراك بالجزائر إذا ما فكروا في التّوجه نحو غربي إفريقيا، وبلاد السودان بوجه خاص"[3].

هكذا حقق المنصور الخطوة الأولى من سياسته السودانية، واعتبر هذا النصر بمثابة عامل مشجع على التمادي في طريق التوسع والفتح.

---

[1]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 87 – مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 73 وما بعدها.

[2]– مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 73.

[3]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 88.

وكخطوة ثانية، لمّا اتفق رأي المنصور مع أهل الشورى[1] من أعيان دولته على البعث للسودان، بعد رفض ملك السودان، الحاج أسكيا محمد، تسليم معدن الملاحة الكائن بِتَغازى[2]، اختار "من جملة جيشه وأبطال جنده وأنصاره ممّن يعلم بخدمته ويعرف كفايته فهيّأ جيشًا عظيما..."[3] لغزو السودان.

إلى جانب هذه الاستعدادات حرص المنصور على استمالة علماء السودان والتعاون معهم، وخاصة قاضي تنبكتو، وهو "الإمام العلامّة أبو حفص عمر ابن الشيخ محمود بن عمر آيت الصنهاجي"[4]، الذي بعث إليه في شوال 998هـ، "يأمره بحضّ الناس على الدخول في الطاعة ولزوم حزب الجماعة"[5]. يقول صاحب كتاب مناهل الصفا: "لتكون أوّل من لبى داعيها... ولترفعوا بها عقيرتكم في تلكم الأقطار"[6].

بعد سلسلة من الأحداث، لا يَسَعُ المقام لذكرها، جرت المعركة في موضع "يقال: تنكنى بغ، وهو في قرب تندبى"[7]. لم تدم المعركة أكثر من يوم واحد، إذ انتهت بانتصار القوات المغربية يوم الثلاثاء 17 جمادى الأولى 999هـ لمّا وصلت البشرى إلى مراكش أقيمت الأفراح، وكتب المنصور إلى الجهات المختلفة يزف إليها النبأ

---

[1]– لمّا فرغ المنصور من خطابه، مع أعيان دولته، استحسنوا جوابه، واستملحوا إشاراته، واستجادوا رأيه، وقالوا له: طبّقت المفصّل وألهمت الصواب، ولم يبق لأحد ما يقول، وصدق من قال: عقول الملوك ملوك العقول، فانفصل الجمع على البعث للسودان. نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 92.

[2]– تَغَازَى هكذا ضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجمة وألف وزاي مفتوح أيضًا)، وهي قرية لا خير فيها. ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلول الجمال – ولا شجر بها، إنما هي رمل فيه معدن الملح. رحلة ابن بطوطة – تحفة النُّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تقديم وتح: محمد عبد المنعم العريان، مراجعة: مصطفى القصّاص، دار إحياء العلوم، ط. 1987/1م بيروت، 687/2.

[3]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 93.

[4]– م. ن، ص: 94.

[5]– م. ن، ص. ن.

[6]– مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 122.

[7]– تاريخ السودان، عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي (ت 1655م)، تحقيق وترجمة للفرنسية: هوداس بنوة، د. ط، 1981م، باريس، ص: 140.

العظيم، ومن ذلك الرسالة التي أرسلها من مراكش يوم الجمعة 7 شعبان 999هـ، والتي تضمنت أخبارًا مفصّلة عن الاستعداد للحملة إلى أن تحقق الظفر والنصر[1].

أختم بجملة أبيات شعرية أنشدها أبو فارس عبد العزيز الفشتالي بمناسبة هذا النصر المكين والفتح المبين، فقال:

جيش الصباح على الدجا متدفّق ... فبياض ذا لسواد ذلك ممحق
وكأنه رايات عسكرك التي ... طلعت على السودان بيضًا تخفق
لاحت وأفقهم ليال كلّه ... كعمود صبح في الدجا يتدنّق
أرسلتهنّ جوائحًا وجوارحًا ... في كل مخلبها غراب ينعق
له من اليالي قد جلا أحلاكها ... نور النبوة من جبينك يشرق
صعقت بهنّ رعود نارك صعقة ... رجّت لصيحتها العراق وجلق
سحقًا لإسحاق الشقي وحزبه ... فلقد غدا بالسيف وهو مُطوَّق

إلى أن يقول:

دامت طيور السعد وهْي غوادر ... بالمشتهى لك والمسرَّة تنطق
ما دام ذكر علالٌ في صحف الثنا ... أصل الفخار وكلّ ذاك ملحق[2]

☜ احتفال المنصور الذهبي بالمولد النبوي:

يقول الإفراني، ما نصّه: "قال الفشتالي: كان ترتيبه في الاحتفال بالمولد النبوي إذا طلعت طلائع ربيع الأول، صرّف الرّقاع إلى الفقراء، أرباب الذكر على رسم الصوفيّة من المؤذنين المتعارين في الأسحار بالآذان، فيأتون من كلّ جهة، ويحشرون إليه من سائر حواضر المغرب، ثم يأمر الشمّاعين بتطريز الشموع وإتقان صنعتها،

[1]– رسالة المنصور مبشرًا بفتح السودان – مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 143.
[2]– مناهل الصفا للفشتالي، م. س، ص: 124.

فيتبارى بذلك مَهَرَة الشمَّاعين، كما يتبارى النّحل في نسيج أشكالها لطفا وإدماجًا، فيصوغون أنواعًا من الشموع التي تحيِّرُ الناظر، ولا تزيل زهورها النواضر، فإذا كان ليلة المولد النبويِّ تهيّأ لحملها، وزفاف كواعبها الحمّالون المحترفون لحمل خدور العرائس عند الزفاف، فيَتَزَيَّنون، ويكون في أجمل شارة، وأحسن منظر، ويجتمع الناس من أطراف المدينة لرؤيتها، فيمكثون حيث يسكن حرّ الظهيرة، وتجنح الشمس للغروب، فيخرجون بها على رؤوسهم كالعذارى يَرْفُلْنَ في حُلَلِ الحُسن، وهي عُدَدٌ كثيرٌ كالنخيل، فيتسابق الناس لرؤيتها، وتمتدّ لها الأعناق، وتتبرّج ذوات الخدور، وتتبعها الأطبال، والأبواق من أصحاب المعارف، والملاهي حتّى تستوي على منصّات معدّات لها بالإيوان الشريف، فتعطف هنالك، فإذا طلع الفجر خرج فصلّى بالناس، وقعد على أريكته، وعليه حلّةُ البياض، شعار الدولة، وأمامه تلك الشموع المختلفة الألوان من بيض كالدّمى، وحمر حُليَتْ في ملابس أُرْجُوان، وخُضْرٍ سندسيّة، واستحضر من أنواع الحُسَكِ والمباخِر ما يُدهش الناظرَ، ويُبْهر الجالسَ، ثم يدخل الناسُ أفواجًا على طبقاتهم، فإذا استقرّ بهم الجلوسُ، تقدّم الواعظ فسرد جملة من فضائل النبيِّ صلّى الله عليه وسلم، ومعجزاته، وذكر مولده، وإرضاعه، وما وقع في ذلك باختصار، فإذا فرغ اندفع القوم في الأشعار المولديّات، فإذا فرغوا تقدّم أهل الذكر المزمزمون بكلام الششتريِّ، وكلام غيره من الصوفية، ويتخلّل ذلك نوبةُ المنشدين للبيتين، فإذا فرغوا من ذلك كلِّه، قام الشعراء، فيتقدّم قاضي الجماعة "بلبُل" منابرِ الجمع والأعياد "قاسم بن عليّ الشاطبي"، فيُنشد قصيدةً يستفتحها بالتّغزّل والنسيب، فإذا تمَّ يتخلّص لمدح النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ثمّ يختم بمدح المنصور، والدعاء له، ولوليِّ عهده، فإذا قضى نشيده، تقدّم الإمام المفتي أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف الفلّالي، فيُنشد قصيدتَه على ذلك المنوال، فإذا فرغ تلاه الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشياظمي، فإذا فرغ تلاه الكاتب أبو فارس عبد العزيز بن محمّد بن إبراهيم الفشتالي، ويليه الكاتب أبو عبد اللّه محمّد بن علي الفشتالي، ويليه الأديب أبو عبد الله محمد بن عليّ الهوزالي المعروف بالنابغة، ويليه الفقيه الأديب أبو الحسن علي بن أحمد المسفيوي، فإذا طُوِيَ بساط القصائد نُشر خِوانُ الأطعمة والموائد، فيبدأ بالأعيان على

مراتبهم ثمّ يوذن للمسلمين فيدخلون جملة، فإذا انقضت أيّام المولد الشريف برزت صِلاتُ الشعراء على أقدارهم، هكذا كان دأبه في جميع الموالد، ولا يُحصى ما يُفرغ فيه من أنواع الإحسان على الناس"[1].

ذلكم هو المغرب في عهد الشرفاء السعديين، وتلكم هي الأحداث البارزة إبان حكم السلطان أحمد المنصور الملقّب بالذهبي (ت 1012هـ)، أحداث لا يمكن عزلها عن بعضها، بل إنها مشدودة بعضها إلى البعض كالسلسلة الذهبية ذات الحلقات لا يمكن كسر حلقة منها دون أن تتأثر باقي الحلقات بهذا الكسر.

➢ **مرحلة ما بعد أحمد المنصور:**

قال أبو زيد عبد الرحمان التمنارتي (ت 1060هـ) "في سنة اثني عشرة وألف بلغني وفاة أبي العباس المنصور ملك المغرب في هذا العصر، رحمه الله، وكانت وفاته بمدينة فاس... فنزل الأرض بذلك ما نزلها، ونالها من الفساد والفتن ما نالها، طاش لها الوقور... ووضع النفيس، وارتفع الخسيس، وفشا العار، وخان الجار، ولبس الزمان البؤس، وجاء بالوجه العبوس، وأوْرَدَنَا الاختلافُ، وانضب ماء الوجوه والائتلاف، وطأطأ الحق رأسه، وأخفى المحق نفسه... ووردت المهالك، وسدت المسالك، وعم الجوع... "فإنا لله وإنا إليه راجعون" فيا لها من مصيبة ما أعظمها"[2].

يفهم من النص الحالة التي سادت المغرب بعد وفاة أبي العباس أحمد المنصور، نتيجة تنازع أبنائه وحفدته على السلطة، وما رافق ذلك من حروب، وفتن، واضطرابات، في وقت كانت الأوبئة والطاعون ما يزالان منتشريْن، فالمولى زيدان (ت 1037هـ) بويع بفاس، وأخوه أبو فارس عبد الله (ت 1020هـ) نوديَ به ملكًا على مراكش، وازداد الأمر تعقيدًا عندما استطاع محمد الشيخ المأمون (ت

[1]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 135 وما بعدها.

[2]– الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمّة، أبو زيد عبد الرحمان بن محمد التمنارتي (ت 1060هـ)، تح: اليزيد الراضي، تقديم: محمد المنوني، دار الكتب العلمية، ط. 2، 2007م، بيروت، ص: 204.

1020هـ) –الأخ الثالث– إلحاق الهزيمة بزيدان، وتنصيب نفسه ملكًا على فاس. وَدخَل بذلك الإخوةَ الثلاثةَ وأبناءهم في حروب دامية استمرت حدّتها طوال العشر السنوات الأولى من وفاة السلطان المنصور الذهبي[1]، والمقام هنا لا يسعنا لذكر تلك الأحداث بتفصيل، إلى درجة يمكن معها القول بأن هذه الحروب الداخلية هي بداية النهاية للدولة السعدية، استنفذت قوى أمرائها، وأطمعت فيهم، مرّة أخرى، كثيرًا من الطامعين، ممّا أعاد إلى الأذهان مرحلة ما قبل تولي أحمد المنصور.

كان من أخطر مضاعفات هذه الحروب وأبرزها؛ فتنة تسليم محمد الشيخ المأمون (ت 1020هـ) العرائش للنصارى، عام (ت 1019هـ)، حيث كانت السبب في هجرة الشيخ أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، وغيره من العلماء من فاس إلى البادية استبراءً لدينهم. قال أبو حامد –وهو معاصر تلك الأوضاع– في هذا الصدّد في كتابه مرآة المحاسن: "ومن أشنع ما وقع من ذلك: أن السلطان[2] تكلم مع النصارى –دمّرهم الله– في تمكينهم من مدينة العرائش لأغراض فاسدة، وموّه على الناس بأعذار واهية، وبعث من يعرض ذلك على العلماء، ويأخذ موافقتهم؛ ليدفع اللومة عن نفسه، فمنهم من لم يجد مندوحة، ومنهم من عصمه الله بالورع. فخرج شيخنا أبو العباس[3] قبل وصول المفاوضة في ذلك إليه، وغاب عن فاس مدّة، فما رجع حتى انتهى الأمر إلى آخره، ودخل النصارى –دمّرهم الله– العرائش – أعادها الله دار إسلام– في أوائل رمضان سنة تسع عشرة وألف، ورأى شيخنا أبو العبّاس الخروج من فاس ببعض أهله فرارًا من الفتن بدينه، وبراءة من الخوض "كالذي خاضوا". وبعث إلى الشيخ سيدي أبي بكر بن محمد –رضي الله عنه– يستشيره؛ فأشار له بالخروج، وكان عند شيخنا أبي العبّاس علم بتفاصيل مآل تلك الحال: إمّا

[1]– نزهة الحادي للإفراني، م. س، ص: 190 وما بعدها.

[2]– يقصد به: محمد الشيخ المأمون (ت 1020هـ).

[3]– يعني به أخوه: الشيخ أبو العباس بن يوسف الفاسي (ت 1021هـ).

عن خبر، وإمّا عن كشف. أما بحسب الجملة؛ فقد علم ذلك كل من له نظر في المقدمات والنتائج"[1].

ويستطرد محمد العربي الفاسي: "فخرجت من فاس بأهلي، وبعض أهله[2] صبيحة يوم السبت السابع عشر من صفر سنة عشرين وألف. وهو يوم عشرين من أبريل، وأقام هو بفاس أيّامًا، ثم لحق بنا في "بني يحمد"، وقد تطارحوا علينا في الإقامة عندهم، فأقمنا إلى أواخر ربيع الثاني، ثم أقمت أنا، وسار هو بالأهل جميعًا إلى "بُوزيري من بلاد مصمودة عمل أزّاجن"؛ وهو منزل سيدنا وبركتنا سيدي عبد الرحمان المجدوب رضي الله عنه. فنزلنا به خير نزول في خير منزل. وكان لنا متسع في تلك البلاد، وتلك القبائل منذ زمان قديم.

وبعد خروجنا من فاس بقريب؛ وهو: يوم الجمعة الحادي والعشرين من ربيع الأول؛ ثار بفاس أبو الربيع سليمان بن محمد الزرهوني، وَعَضَّدَهُ محمد المربوع اللّمطي، وتبعهما أهل فاس بأجمعهم، وأخرجوا من كان من جيش السلطان، وقتلوا كثيرًا منهم، وجرت في ذلك خطوب آلت بعد سنين إلى انقطاع المُلْكِ بفاس، وبقي الناس فوضى إلى الآن، والله مالك المُلك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممّن يشاء"، "والأرض لله يورثها من يشاء من عباده"[3].

ويُردفُ أبو حامد: "ومن الغرائب: أني يوم خروجنا من فاس لقيت ببلاد لمطة كبير بني عامر وفقيرَهم[4]، وكان صديقًا لنا؛ فقال لي: "نِعْمَ ما فعلتُم، من الآن إلى نحو شهر يتزلزل هذا المُلْكُ تزلزلا لا ينجبر بعده أبدًا!" فكانت الثورة المذكورة بعد شهر وثلاثة أيام، ثم غدر المربوعُ سليمانَ؛ فقتله يوم السبت رابع صفر سنة ست وعشرين وألف، ثم قُتِل المربوعُ بعد ذلك في أخبار لا حاجة لنا في ذكرها، وأقمنا حيث نزلنا

---

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 214.

[2]– يقصد أهل شقيقه أبي العباس (ت 1021هـ).

[3]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 215.

[4]– هو: محمد بن عبد الرحمان العامري الملوكي الملقب بالأدغم. كما يقول محقق مرآة المحاسن.

بنجاة من الهياط والمياط الذي كان بفاس، وما إليها إلى أوائل ربيع الثاني سنة إحدى وعشرين وألف"[1].

ما قيل سلفًا في فتنة العرائش وتسليمها للنصارى يؤكّدُه كذلك الإفراني، والناصري، والقادري، وصاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية. وملخص ذلك بعد أحداث لا داعي لذكرها: "أن الاستفتاء وقع بعد أن وقع الإعطاء، وما أجاب به من أجاب من العلماء عن ذلك إلّا خوفًا على نفسه، وقد هرب جماعة من الفتوى؛ كالإمام أبي عبد الله محمد الجنان (ت 1050هـ) صاحب الطرر الشهيرة على المختصر، وكالإمام أبي العباس أحمد المقرّي (ت 1041هـ) مؤلف نفح الطيب، فاختفيا مدّة مديدة استبراءً لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما، وبسبب هذه الفتوى أيضًا، هرب جماعة من علماء فاس للبوادي كالإمام سيّدي الحسن الزيّاتي (ت 1023هـ) شارح الجمل، والإمام الحافظ أبي العبّاس أحمد بن يوسف الفاسي (ت 1021هـ) وأخوه الإمام أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسيِّ (ت 1052هـ)، وغيرهما، والحول والقوّة بالله. ثمّ إنّ محمد الشيخ نزل بالفحص... تمالا أشياخ الفحص على قتله لما رأوا من انحلال عقده وتمليكه بلاد الإسلام للكفار، فقتله المقدّم محمد أبو الليف غدرًا بمحلّته بموضع يعرف بفجّ الفرس[2]... وكان قتله خامس رجب سنة اثنتين وعشرين وألف..."[3].

على أن استقرار الأمر نسبيًا للمولى زيدان بمراكش منذ عام 1022هـ، مكّنه من العمل على إقرار بعض الأوضاع الداخلية المضطربة، خاصّة وأن حدّة الحروب

---

[1]– مرآة المحاسن، أبو حامد محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 215.

[2]– فج الفرس: موقع قرب طنجة.

[3]– نزهة الحادي، الإفراني، م. س، ص: 198–199 – "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"، محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ)، تح: محمد حجي، وأحمد التوفيق، مكتبة الطالب، ط. 1، من سنة 1977م إلى 1986م، الرباط، المغرب، 108/1 – "الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، أحمد بن خالد الناصري (ت 1315هـ)، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، د. ط، د. ت، الدار البيضاء، المغرب، 105/3 . تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، مؤلف مجهول، تقديم وتح: عبد الرحيم بن حادة، مطبعة دار تينمل، ط. 1، 1994م، مراكش، ص: 96.

الأهلية قد خفّت إثر مقتل أخويه: عبد الله أبي فارس (ت 1017هـ)، ومحمد الشيخ (ت 1022هـ)، وساعده على تنظيم مقاومة الغزاة الإسبان بالشواطئ المغربية، "فسأل السلطان زيدان بن أحمد الذهبي عمّن يليق يتولية ذلك الثغر، والقيام بوظيفته، وبنواحيه، فقيل له: سيدي محمد العياشي، فكتب له بالتولية لذلك، فنهض بأعباء ما حمل من ذلك... وكان كلما بعث بما يفتح الله به عليه من خُمُسِ الغنائم والأساري إلى السلطان زيدان بمراكش، ازدادت شهرته وتناقل الناس حديثه"[1].

هذه الجهود المتواصلة التي بذلها المولى زيدان لاستعادة النفوذ السعدي إلى بعض المناطق المغربية لم تستمر طويلاً، فبعد وفاته عام 1037هـ، سقط ما بقيَ للسعديين من هيبة في أعين العامّة، وبدأ الطامعون يعلنون خروجهم، ويستقلون تدريجيًّا بمناطق نفوذهم.

إذا كان السلطان السعدي قد أخذ ينحصر في العاصمة مراكش وما حولها خلال الثلاثين سنة الأخيرة من عهد الدولة السعدية زمن حكم عبد الملك الثاني (1037هـ–1040هـ)، والوليد ابن زيدان (1040هـ–1045هـ)، ومحمد الشيخ الصغير (1045هـ–1064هـ)، وابنه أحمد العباس (1064هـ–1069هـ)، فإن المناطق المختلفة من البلاد قد تقاسمها قادة محلّيّون أشهرهم[2].

- (بودميعة) بسوس ودرعة والصحراء وبلاد السودان.
- محمد العياشي بالسواحل المغربية الأطلسية.
- محمد الحاج الدلائي بالمنطقة الوسطى من المغرب.

بظهور هذه الإمارات المتنازعة انقسمت البلاد إلى وحدات سياسية، وضعفت قوى المعسكر ووحدته، وأصبح الأمر ينذر بأفدح العواقب. قال أبو القاسم الزياني: "بعد

---

[1]– نزهة الحادي، الإفراني، م. س، ص: 263.

[2]– نزهة الحادي، الإفراني، م. س، بتصرف: 200–260–274.

موت زيدان... تطاولت أيدي رؤساء القبائل، وعمالها إلى الاستبداد على الدولة لمرضها، وهرمها، وشاركهم من له شِرْكَةٌ قوية، وصاروا كملوك الطوائف بالأندلس"[1].

وممّا زاد الوضعية الداخلية تدهورًا حرصُ بعض الطامعين على التوسع، وبسط النفوذ، فازدادت لذلك الاصطدامات العسكرية، وتعددت واجهات الحروب بينهم، وهذا كلّه ضاعف من تفكك القوى السعدية، وأغرى الإسبان على موالاة الغزو والتوسع. قال الناصري: "فلا يغرب عن فطنتكم كيدهم وتربصهم بالمسلمين الدوائر"عليهم دائرة السوء"، واذكروا وذكروا المسلمين كيف كان استيلاؤهم على الجزيرة، واستئصالهم إياها؟ أعادها الله دار إسلام لهذا العهد، وكانت أضخمَ ملكا من هذه العدوة، وأكثر عَددًا وعُددًا، بل هي محشر العساكر، فلم يزل ينازلها من أطرافها ويطاول من جهاتها... حتى انتظمت كلّها في سلكهم... وها هو قد عبر البحر إلينا، ومدّ الصليب بهذه السواحل ذراعيه علينا... الله الله في الإسلام، أدركوه قبل أن يموت، وخلصوه قبل أن يفوت"[2].

ذلكم هي بعض أحوال المغرب السياسية والعسكرية أيام السعديين، وتلكم هي الأحداث التي طبعت تلك المرحلة، ممّا احتاج المغرب إلى قيادة جديدة في "زمن – على حدّ تعبير أبي الربيع سليمان الحوات (ت 1232هـ)– أطفأت فيه الضلالة أنوار الهداية، وذلك حين فسدت الدولة السعدية، فذهبت ريح سطوتها القهقرية، وكثر الثوار في غالب الأقطار... ولم ييسر الله تعالى لواحد منهم أمرًا، وقد كانت عاقبة أمر بعضهم خسرًا"[3].

---

[1]– البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، أبو القاسم الزياني، تحقيق: رشيد الزاوية، مركز الدراسات والبحوث العلوية، ط. 1، 1992م، الدار البيضاء، ص: 52.

[2]– الإستقصا للناصري، م. س، ص: 141/3.

[3]– البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، أبو الربيع سليمان الحوات الشفشاوني الفاسي (ت 1232هـ)، تقديم وتحقيق: عبد الرحمان كظيمي، إشراف: عباس الجراري، رسالة جامعية مرقونة بجامعة محمد الخامس، 1993م، الرباط.

ويقترح القادري أن "من رفع الصلبان عن الأمة، وكشف عن الإسلام، وقد طالت شكواه لأهله الغمة، ففتح باب الجهاد للأنام، الذي طال الاستفهام، وأجاب بالأقلام والرماح، وألسنة الصِّفَاحِ داعية. فإنكم أردتم معهم مِنْ مُورِثِهم من جدهم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم قرة عيننا وعينهم، فإنه نهانا عن طلب ما ليس لنا، فقال: الخلافة في قريش والغير متغلِّبٌ، وهم أحقّ بذلك من قريش في المغرب"[1].

المطلب الثاني: الحالة الثقافية والعلمية.

رغم ما تميزت به الدولة السعدية من عدم الاستقرار السياسي، إلّا أنها استطاعت في أحيان كثيرة إنجاز أعمال ثقافية وعلمية رصينة، إذ تعددت المراكز الثقافية في المدن والأرياف، وتكاثر عدد العلماء والطلبة، وقد تطعمت العناصر العلمية أيام السعديين بأخرى أندلسية وشرقية، فازدادت آفاق المعرفة اتساعًا أمام الراغبين في الدرس والتحصيل.

وإذا كان مركز الثقل الثقافي والعلمي بالمغرب قد تغير أيام السعديين خلال الأدوار التاريخية الثلاثة التي تقلبت فيها هذه الدولة، كما أشرت إلى ذلك سلفًا في الحالة السياسية، فيمكن القول إن مدينة فاس تفردت بالزعامة العلمية خلال الدور الأول (حتى سنة 986هـ/1578م)، بينما تصدرت مدينة مراكش الحياة العلمية في الدور الثاني (من 986هـ إلى 1012هـ)، أي حكم أحمد المنصور الذهبي، وأصبحت مهبط ومقصد العلماء والأدباء من الأندلس والمشرق، حتى إذا آن الدورُ الثالث دورُ انحلال الدولة السعدية فكسفت أنوار المعرفة في عموم الحواضر المغربية، ولَم يعد لها إشعاع إلا في بعض البوادي كزاويتي الدّلاء وتمكروت.

ما يهمّنا في هذا المقام هو الدور الثاني والثالث، وهي الفترة التي عاصرها الشيخ محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، لذا ركزت واخترت الحديث عنهما لتسليط الضوء على الأجواء التي أسهمت في سطوع نجمه.

---

[1]– نشر المثاني، القادري (ت 1187هـ)، م. س، 123/1–124.

الدور الثاني (986هـ–1012هـ) هو ألمع الأدوار التاريخية للدولة السعدية وأوج عظمتها. قال محمد حِجّي: "فقد كان بالنسبة لفاس دور تقهقر نسبي ونزول عن درجة الزعامة العلمية. ولا يعني هذا ضَعفًا في همّة المعلمين والمتعلمين بهذه المدينة، إذ من المؤكد أن الإقبال على العلم في هذا الظرف، سواء بفاس أو غيرها من مدن المغرب وقُراه، كان أقوى منه في أي وقت سابق... غير أن بلاط أحمد المنصور، وذهبه الوهاج كانا يستهويان الأفئدة ويسحران العيون، فغدت مراكش مقصد العلماء والأدباء يشدون إليها الرحال من المغرب والمشرق... على أنه لا ينبغي إغفال حقيقة ارتباط علماء فاس الوثيق لهذا العهد بشخص الملك السعدي الذي ولد ونشأ ودرس بين أظهرهم، فلم يكن أحب إليهم من مواصلة تلميذهم المتوّج المعطاء، وإن شطت الدار وبعد المزار"[1].

نجد في طليعة علماء فاس في هذه الفترة من أساتذة محمد العربي الفاسي:

– محمد بن قاسم القصّار القيسي الأندلسي[2] (ت 1012هـ/1604م): الذي خَلَفَ يحيى بن محمد السراج[3] (ت 1007هـ/1598م) في الإفتاء والخطابة والكراسي العلمية في القرويين، وجامع الأندلس، ومدرستي العطارين والحلفاويين. اشتهر القصّار بدقة التفكير والتعمق في البحث، وكان لا يحضر مجلسه إلّا عدد قليل من النجباء من بينهم:

– أحمد بن علي العلمي (ت 1027هـ/1618م): تخرج على مشيخة فاس ونال إجازة الإمام محمد القصّار، قبل أن يرجع إلى مسقط رأسه شفشاون، وقد زاوج بين

---

[1]– الحركة الفكرية في عهد السعديين، محمد حِجّي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، د. ط، د. ت، الرباط. 358/2.

[2]– درة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي (ت 1025هـ)، تح: محمد أبو النور، م. س، 153/2–162– روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، أحمد المقري التلمساني (ت 1041هـ)، تح: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، ط. 2، 1983م، الرباط، ص: 316–332.

[3]– جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، أحمد ابن القاضي المكناسي (ت 1025هـ)، دار المنصور للطباعة، د. ط، 1309هـ، الرباط، 339/2–340.

التعليم والتأليف في الفقه والأصول والتاريخ والطب واللغة وقواعدها[1]. واحتفظ صهره العربي الفاسي برسالة بعث بها الشيخ القصار إلى تلميذه أحمد العلمي بعد أن رجع من فاس إلى شفشاون، اشتملت على فوائد يحسن إيرادها، قال فيها مع تعليق للعربي الفاسي: "وفرحت غاية بختمك "الصغرى"، فشد روحك، وطالع كتب الشيخ السنوسي السبعة حتى تحفظها، وبالك تخالف في شيء إلّا بعد مشاورة غير واحد، والمؤمن وفاق. وكتاب ابن مالك: "الفوائد المحوية في المقاصد النحوية" فيه ما في "الكافية"، وَوَرَّى به في قوله: مقاصد النحو بها محوية. والتورية لا يلزم منها أن يكون في "الألفيه" ما فيه، وكذلك ورى به في اسم "التسهيل". مع الإشارة إلى أن "التسهيل" تسهيل له وتكميل، وهو كذلك. وقول المادح: إن الفوائد جمع لا نظير له. الظاهر أنه: أراد "الفوائد المحوية"، وكان هذا قبل تأليف "التسهيل"، ويحتمل –على بعد– أن يكون أراد "تسهيل الفوائد"، وعبر عنه بالفوائد لضيق النظم"[2].

– محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ)، قال في مؤلَّفه مرآة المحاسن: "ولما كنت ابن نحو عشر سنين؛ بعثني والدي مع أخي وعمي وسيدي الحسن بن مهدي إلى شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بن قاسم القصار؛ فدخلنا إليه بموضع كتبه وخلوته من داره التي بقرب حمام القلعة، وذلك أول يوم رأيته... وكان إذ ذاك ملازمًا لداره، لا يخرج منها إلّا نادرًا، فَأَدْناني –رحمه الله– وفرح بي، وناولني جزءً من صحيح البخاري، وأجازني في جميع مروياته التي منها جميع ما اشتملت عليه فهرسة ابن حجر، والمِنْتوري، وابن غازي، وكتب لي ذلك بخطّه، وأنشدني –رحمه الله– من لفظه: [الطويل]

---

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 167–189 – الإعلام بمن غَبَر من أهل القرن الحادي عشر، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمان الفاسي الفهري (ت 1131هـ)، تح: فاطمة نافع، دار ابن حزم، ط. 1، 2008م، ص: 376.

[2]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 231.

تَمَــسَّكْ بِحُــبِّ الشَّــاذِلِيةِ تَلْــقَ مــا تَــرومُ وَحَــقِّقْ ذا الرَّجــاءِ وَحَصِّــلِ
وَلا تَعْــدُوَنْ عَيْنَــاكَ عَــنْهُمْ فَإِنَّهُــمْ شُـموسُ هُدًى فـي أَعْيُـنِ الْمُتَأَمِّـلِ"[1]

وقال عنه محمد حجّي: "كان محمد العربي الفاسي من أبرز الشخصيات التي تمثل المشاركة العلمية الحقّ في العصر السعدي، متمكّن في علوم الشريعة، واللغة، والأدب على السواء، مؤلّف محقّق، ومفكّر بعيد النظر، متين العقيدة..."[2].

أما **الدور الثالث**: (1012هـ-1075هـ/1603م-1664م) فيه عرفت فاس

أجيالا متعددة من شيوخ امتدت حياتهم إليه، وعلماء شباب تكونوا أو بدأ تكوينهم في المرحلة السابقة -أمثال شارح القصيدة الشقراطسية- إلى جيل جديد نشأ وتعلم في هذا الدّور. وإذا كانت هذه المرحلة تعتبر عصر فتن ومحن لمدينة فاس والمغرب عمومًا، فإن الفترة الأولى منه الممتدة إلى عام 1040هـ/1631م -كما ذكرت آنفًا في الحالة السياسية- كانت أشنع، لما حدث فيها من صراعات بين أبناء أحمد المنصور وأحفاده ثم بين الثوار المتهافتين على السلطة... فوجئ العلماء الفاسيون بهذه الأهوال تلاحقهم في عقر دارهم، وفي خضم هذه الاضطرابات -على حدّ تعبير محمد حجّي- ظهرت في المغرب حركة صوفية تعمل على إصلاح ما فسد من الأوضاع السياسية وحماية المؤسسات الدينية والعلمية، ولعبت في هذا الإطار الزاويتان الفاسيتان أدوارًا مهمّة، وبرز من شيوخها أعلامًا -أذكر منهم أساتذة محمد العربي الفاسي- وفي طليعتهم:

أبوه يوسف بن محمد الفاسي (أبو المحاسن) (ت 1013هـ/1604م)[3]: فقيه صوفي، انتقل من مسقط رأسه مدينة القصر الكبير، ودخل إلى فاس سنة 988هـ/ 1580م، فاستقر بها نهائيًا، وأسس الزاوية الفاسية الأولى سنة 1004هـ/1595م، بالغرب من منزله بحومة المخفية من عدوة الأندلس، فكان يعقد بها كل يوم مجالس علمية للطلبة والمريدين، وكان من بينهم؛ ابنه محمد العربي.

---

[1]- مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 220.

[2]- الحركة الفكرية في عهد السعديين، محمد حجي، مر. س، 420/2.

[3]- مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 13 وما بعدها.

– محمد بن علي ابن ريسون الشريف الحسني الإدريسي[1]: (ت 1018هـ/1609م) رافق إبان الطلب أبا المحاسن الفاسي فسكنا معًا في المدرسة المصباحية.

وصفه تلميذه محمد العربي قائلا: "هو من أهل العلم والولاية والبركات الظاهرة،

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 205–208 – نشر المثاني، القادري (ت 1187هـ)، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، م. س، 1/103–104.

كثير التلميذ، كبير النفع، عظيم الشهرة... ممتع الحديث..."[1] كان التلميذ البَارُّ يشد الرحلة من فاس إلى تزروت المرة بعد الأخرى، ليأخذ عنه علوم الظاهر والباطن، "كما كان ابن ريسون يتلقى بحفاوة هذا الإبن العالم الذكي –على حدّ قول محمد حجي–"[2] ويوليه من العناية الخاصّة ما تشعر به عبارة العربي الفاسي: "... وربما أفرد لي مجلسًا من الظهر إلى المغرب أو إلى العشاء، وربما قرأت عليه شيئا من كتب التصوف..."[3].

ظل محمد ابن ريسون على اتصال وثيق بكبار علماء فاس يكاتبهم ويكاتبونه في شؤون التعليم. "واحتفظ العربي الفاسي بمراسلة من الإمام محمد القصار (ت 1012هـ) يحض فيها محمد ابن ريسون على التعاون بين العلماء والشرفاء في كل من جبل العلم وشفشاون"[4].

تجدر الإشارة "أن جبل العلم –حيث ضريح أشهر الشرفاء الأدارسة بالشمال ورأس الصوفية المغاربة، عبد السلام ابن مشيش (ت 622هـ)، شيخ أبي الحسن الشاذلي– ظل بما حوله من مداشر الشرفاء كتزروت وبسرواس، مركزا نشيطا للتصوف والعلم معًا عبر العصور، ورغم كثرة من هاجر منه إلى شفشاون بعد أن أسّسها الشرفاء بنو راشد منهم أواخر القرن الهجري التاسع، بقيت فيه أثارة من علم وصلاح"[5].

– **علي بن عبد الرحمان ابن عمران السلاسي**[6]: (ت 1018هـ/1609م) أسند أحمد المنصور قضاء الجماعة بفاس لعلي ابن عمران السلاسي أواخر 1004هـ/1596م، بعد وفاة شيخه عبد الواحد الحميدي (ت 1003هـ)، وظل يشغل

---

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 206.

[2]– الحركة الفكرية في عهد السعديين، محمد حجي، مر. س، 465.

[3]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 207.

[4]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 170.

[5]– الحركة الفكرية في عهد السعديين، محمد حجي، مر. س، 463.

[6]– درة الحجال في أسماء الرجال، ابن القاضي (ت 1025هـ)، م. س، 3/255–256 – نزهة الحادي، الإفراني (ت 1156هـ)، م. س، ص: 216–217.

هذا المنصب طوال ثلث قرن. وقبيل وفاة المنصور اسْتُدْعِيَ لتولي قضاء الجماعة بحاضرة مراكش. حضر العربي الفاسي مجالسه العالية في التفسير والفقه والنحو، وقال عنه: "كان في ذلك لا نظير له فصاحة لسان، وصراحة بيان، وحسن إيراد وترتيب وتنميق..."[1].

والسلاسي نسبة إلى منطقة سلاس (جنوب درعة)، اشتهرت أيام السعديين بآل عمران، وكان علماؤها ملء السمع والبصر. قال محمد حجي: "... أما الجانب الثقافي فَدَلّت الإشارات التاريخية على اتصالهم في بعض أطوار حياتهم بالبادية، ولو أن شهرة الكثير منهم دعتهم إلى المقام –مدة طويلة أو قصيرة– في فاس أو مراكش أو غيرهما من الحواضر..."[2].

– **محمد بن علي القنطري القصري**[3] (ت 1018هـ/1609م): من أعلام القصر الكبير[4]، أسند إليه كرسي التفسير بالجامع الأعظم، عندما أحدثه الشيخ أبو المحاسن حوالي سنة 1000هـ/1592م، وعلى يديه تلقى محمد العربي الفاسي علومه في التفسير آنذاك.

من المعلوم أن الحركة الثقافية في القصر الكبير كما قال محمد حجي: "لم تكن خاملة أيام السعديين، رغم أخطار الاحتلال وما تقتضيه من تأهب دائم للدفاع، حتى كان كثير من علماء هذه المدينة يوزّعون أيامهم بين التدريس في المساجد

---

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 102.

[2]– الحركة الفكرية في عهد السعديين، محمد حجي، مر. س، 485.

[3]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 28 – نشر المثاني، القادري (ت 1187هـ)، تح: محمد حجي وأحمد التوفيق، م. س، 130/1.

[4]– ويسمى أيضًا قصر كتامة وقصر عبد الكريم، فسمي بقصر كتامة لوقوعه في وسط بلاد هذه القبيلة، أما عبد الكريم فلعله عبد الكريم ابن العجوز الكتامي الذي قال عنه القاضي عياض في المدارك وتقريب المسالك أنه كان عالمًا رئيسًا لقومه كتامة إلى أن قتله المرابطون بعد أن تغلبوا عليهم ودخلوا قلعتهم – مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 205–206.

والمدارس، والخروج للجهاد والإقامة بالربط"[1].

– **أحمد بن يوسف الفاسي**[2] (ت 1021هـ/1612م) اشتهر بلقب الحافظ لكثرة حفظه لكتب الحديث لا سيما الصحاح. تعلم وعلّم في زاوية أبيه –وممّن علّمهم أخوه محمد العربي الفاسي– وفي غيرها من مساجد فاس وزاوية الدلاء. ولمّا اشتد الضغط على علماء فاس ليبرّروا خيانة المأمون السعدي –كما ذكرتُ سلفًا في فتنة تسليم العرائش للإسبانيين عام 1019هـ/1610م– طمعًا في نصرتهم له، خرج الحافظ الفاسي وأخوه العربي مع أهلهما إلى بادية بوزيرى بالريف، ويظهرجليّاً أن محمد العربي الفاسي ألّف شرحه على الشقراطسية هناك، يقول في نهاية المخطوط: "ووافق الفراغ منه مغرب يوم الخميس خامس ربيع الثاني عام خمسة وعشرين وألف موافق الثامن عشر أبريل ببوزيرى أحد قرى مصمودة عمل زاجن..."[3].

– **الحسن بن يوسف الزياتي**[4] (ت 1023هـ/1614م): تخرج بفاس، ودرس بها وبمسقط رأسه بني زيات، كانت دروسه –تبعًا لدراساته وإجازاته– متنوعة، تشمل القراءات، والحديث، والأصلين، والفقه، والمنطق، وأكثر تآليفه حواش كتبها على ما كان يدرّس للطلّبة –من بينهم محمد العربي– من أمهات المؤلفات. استقر الحسن الزياتي بفاس بعد أن زوّجه الشيخ أبو المحاسن إحدى بناته، وتكفل بمؤونته ليتفرغ للتدريس والتأليف.

– **أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني**[5] (ت 1032هـ/1623م): أحد رجال التدريس بالقرويين الذي تزعم حركة محاربة استعمال دخان التبغ فأفتى فيها، وكان

---

[1]– الحركة الفكرية في عهد السعديين، محمد حجي، مر. س، 427/2.

[2]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 211 وما بعدها.

[3]– شرح القصيدة الشقراطسية، محمد العربي الفاسي، ص:.....

[4]– روضة الآس، أحمد المقري (ت 1041هـ)، تح: عبد الوهاب بن منصور، م. س، ص: 345 وما بعدها – مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 223 وما بعدها.

[5]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 221.

يعقد مع أحمد المقري مجالس علمية يحضرها نخبةٌ من الطلبة وعلماءُ المدينة وعُدُولُها، قال محمد العربي الفاسي: "ولازمت شيخنا في قراءة محصَّل المقاصد للشيخ أبي العباس ابن زكري، ومختصر الشيخ السنوسي في المنطق، وشرحه لكبراه، "وتلخيص المفتاح"، وجملة من التفسير... وكان يحضره العلامة أبو العباس أحمد بن محمد المقري، والعلامة الأستاذ الحاج أبو محمد عبد الواحد بن أحمد ابن عاشر، والعلامة النحوي أبو الحسن علي ابن الزبير السجلماسي... وغيرهم من الأعيان"[1].

– **عبد الرحمان بن محمد الفاسي (العارف)**[2] (ت 1036هـ/1626م): قال محمد العربي الفاسي: "... وقرأت في هذه المدّة على عمّي شيخنا أبي محمد عبد الرحمان كثيرًا من رسالة الشيخ ابن أبي زيد قراءة في غاية الحسن والتحقيق، وقرأت عليه غير ما مرّة شرح "الصغرى" في غاية التحرير والتحقيق، وكان نسيج وحده في ذلك، وقرأت عليه كثيرًا من "تلخيص المفتاح" ومختصر المنطق..."[3].

ويستطرد العربي في موضع آخر قائلا: "... وانقادت إليه الرئاسة بحضرة فاس؛ فانفرد بها، واحتاج إليه السلطان فمن دونه، ونفذت كلمته، مرجوعًا إليه في كل مهم، متبوعًا في كل ما يقصد"[4].

تجدر الإشارة أنه إلى جانب الزاوية الفاسية التي أسسها الشيخ أبو المحاسن، قامت زاوية فاسية أخرى أنشأها أخوه عبد الرحمان الفاسي بجوار دار سكناه في حي القلقليين، وأخذ يعقد فيها مجالس علمية متعددة كل يوم[5]. ونالت –فيما بعد– الصدارة بين الزوايا نظرًا لبقاء العلم فيها لحد الآن، تحت إشراف الدكتور إدريس الفاسي

---

[1]– م. ن، ص. ن.

[2]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 207 وما بعدها.

[3]– م. ن، ص: 221.

[4]– م. ن، ص: 208.

[5]– مرآة المحاسن، ص: 29.

الفهري، حيث تعتبر الآن أنشط الزوايا الفاسية بالمغرب، تقام بها حفل المولد النبوي الشريف مرّة كل عام، إلى جانب دروس علمية وثقافية في شتى المجالات.

- **محمد بن أبي بكر الدلائي**[1] (ت 1046هـ/1636م): برز في التفسير والحديث، حتى كادت مجالسه العلمية في آخر حياته تقتصر عليها. يحفظ صحيحي البخاري ومسلم، وكتب السنن. امتاز بالفصاحة والسلاسة في دروسه، ويمكن أن نعرف قيمة هذه الدروس "إذا علمنا أن من بين من كان يحضرها ويستفيد منها: أحمد المقري، ومحمد العربي الفاسي، وعبد الواحد ابن عاشر، وعلي بن عبد الواحد الأنصاري، ممّن رأيناهم بين أعلام التدريس في فاس وسلا"[2].

أمّا فيما يتعلق بالناحية العلمية والثقافية في "زاوية الدلاء"[3]، فقد أجمع كل من تحدث عنها على أنها بلغت في هذا المضمار شأوًا بعيدًا. قال عبد الله كنون: "إن الثقافة اللغوية المتينة التي كانت موجودة في زاوية الدلاء حيث درس اليوسي، هي التي أحيت دماء الأدب في المغرب بعد عدم"[4].

مرّت الزاوية الدلائية في الميدان الثقافي –على حدّ تعبير محمد حجي– "بمرحلتين، امتدت أولاهما إلى وفاة أحمد المنصور، وكانت خلالها مركزًا ثقافيّا بدويًّا – لا يقوى– رغم ما أوتيَ بسطة في العلم والمال – على منافسة المراكز الحضرية التقليدية، غير أنه لمّا انقلبت الأحوال على إثر وفاة المنصور، وقامت بين أبنائه وأنصارهم في الشمال والجنوب حرب أهلية قضت على النشاط العلمي في الحواضر، في جملة ما أتت عليه فيها من مظاهر الرقي والعمران، اتجهت الأنظار إلى زاوية

---

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي الفاسي، م. س، ص: 293.

[2]– الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، ط. 2، 1988م، ص: 76–81.

[3]– أسسها أبو بكر بن محمد الدلائي عام 974هـ/1568م، في مرتفعات جبال الأطلس المتوسط، وشيد الثانية حفيده السلطان محمد الحاج الدلائي عام 1048هـ/1638م، في موقع زاوية آيت إسحاق الحالية بين خنيفرة وقصبة تادلا. م. ن، ص: 33.

[4]– خلّ وبقل، عبد الله كنون، المطبعة المهدية، د. ط، د. ت، تطوان، ص: 278.

الدلاء الآمنة بموقعها المنيع وسط قبائل زيان المتفانية والذود عن حماها، وقصدها العلماء والطلبة من كل جهة، بلغت حينئذ أوج عظمتها، وغدت مساجدها ومدارسها ومكتباتها تضاهي ما كان العهد به في فاس ومراكش..."[1].

تلكم هي النهضة العلمية والثقافية التي عاصرها محمد العربي الفاسي في الدورين الثاني والثالث من الدولة السعدية. وذلكم هُمْ بعضٌ من كلِّ مَنْ اشتهر من العلماء في تلك الفترة، والذين أسهموا في إثراء الساحة العلمية بصنوف المعرفة المختلفة.

[1]– الزاوية الدلائية، محمد حجي، مر. س، ص: 74 وما بعدها.

المبحث الثاني: ترجمة شارح القصيدة الشقراطسية: أبو حامد محمد العربـي بن يوسـف الفاسـي (ت 1052هـ)

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

المطلب الثاني: نشأته وولادته.

المطلب الثالث: شيوخه.

المطلب الرابع: تصدره للإقراء وتلاميذه.

المطلب الخامس: مكانته العلمية وشهادات وأقوال العلماء فيه.

المطلب السادس: محنته ووفاته.

المطلب السابع: مصنفاته.

المطلب الأول: إسمه ونسبه[1].

هو الشيخ أبو حامد محمد المدعو: العربي بن يوسف بن محمد بن يوسف عبد الرحمن ابن أبي بكر ابن الجد الفاسي الفهري الأندلسي ثم المغربي. ينتمي لبيت بني الجد الفهريين، أحد كبار بيوتات المغرب والأندلس، والذي عرف بتواتر العلم والوزارة فيه قرونا في الأندلس، وأخرى بالمغرب. وينتمي هذا البيت للصحابي الجليل سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة.

المطلب الثاني: نشأته وولادته.

ولد –رحمه الله تعالى– بحومة العيون من عدوة القرويين بفاس، ضحى يوم الاثنين السادس من شوال سنة: (988هـ/1580م)، ونشأ في بيئة الطهر والعلم والعفاف، فوالده شيخ الشاذلية بفاس وشمال المغرب في وقته، الشيخ المربي أبو المحاسن يوسف الفاسي، الإمام في علوم الظاهر والباطن. وعمه الشهير بالعارف الفاسي، عبد الرحمن بن محمد الفاسي، شيخ الصوفية بفاس، وإمام التفسير، المشارك مشاركة إمامة في جميع العلوم الاثني عشر من علوم الشريعة. وشقيقه الأكبر منه،

---

[1]– مصادر الترجمة: مرآة المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، ص: 220 وما بعدها – خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد بن فضل الله المحبي (ت 1111هـ)، 273/4 – صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الإفراني (ت 1156هـ)، ص: 71 – نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ)، 10/2 – التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ)، ص: 114 – طبقات الحُضَيْكي، محمد بن أحمد الحُضيكي (ت 1189هـ)، 226/2 – عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد، أبو الربيع السلطان سليمان بن محمد العلوي (ت 1238هـ)، ص: 29 – الدرر البهية والجواهر النبوية، إدريس بن أحمد الفضيلي الحسني العلوي (ت 1316هـ)، 279/2 – سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345هـ)، 313/2 – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد عمر مخلوف (ت 1360هـ)، ص: 302 – معجم المطبوعات المغربية، إدريس بن الماحي الإدريسي القيطوني الحسني (ت 1391هـ)، ص: 1680 – الأعلام، خير الدين الزركلي (ت 1396هـ)، 265/6 – تاريخ تطوان، مؤرخ تطوان محمد دَاود (ت 1404هـ)، 278/2 – الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، محمد حجي، ص: 113 – مؤرخو الشرفاء، ليفي بروفنصال، تعريب عبد القادر الخلادي، ص: 172.

الشهير بالحافظ الفاسي: أبو العباس أحمد بن يوسف، إمام الحديث في عصره، القائل: "لو لم يؤلف ابن عبد البر كتاب "الاستذكار"، لوجد من يؤلفه الآن"[1]. يعني نفسه.

عدا من كان يتوارد على زاوية أبيه من أعلام المغرب، كالإمام القصار، وابن جلال، وأبي مالك الحميدي، وابن مهدي الزيات... وغيرهم.

فنشأ في بيئة العلم والطهر والعفاف، إضافة إلى ذكائه الفطري، وقابليته العلمية التي ورثها من آبائه، ثم اكتسبها من بيئته. وكان منذ صغره جدا لا يعرف الهزل ولا يلعب مع الصغار، ولا يرى للهو واللعب قيمة، إنما همه العلم والتعلم.

المطلب الثالث: شيوخه.

ولما بلغ الرابعة من عمره، بدأ يحفظ بعض سور القرآن، ويتعلم بعض قواعد الكتابة والقراءة على يد والده وأقرب أهله، ثم من بعد تم له حفظ القرآن الكريم بروايتي ورش وقانون على يدي المقرئ علي بن أحمد ابن سعيد، ثم الإمام أبي على الحسن بن مهدي الزيات الذي ختم عليه القرآن الكريم أكثر من ثماني مرات.

وفي تلك الفترة، لازم عمه العارف الفاسي في علوم العقائد والفقه والمنطق... وغيرها، وأخاه الحافظ الفاسي كذلك، والمؤرخ الإمام أبا العباس أحمد ابن القاضي المكناسي صاحب "جذوة الاقتباس"، علاوة على أخذه علم التصرف والسلوك على والده الشيخ الإمام أبي المحاسن سلوكا وعلما.

وفي هذه الفترة –كذلك– زار شيخ الإسلام القصار، وتبرك به، ونال منه الإجازة العامة، وناوله القصار نسخة من صحيح الإمام البخاري.

ثم انكب بعد هذه الفترة على مجالس العلم في جامعة القرويين الغراء، فأخذ عن جلة من أئمة العلم في زمانه، وفي العلوم التي نبغوا فيها:

---

[1]– فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، عبد الحي الكتاني (1382هـ)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ط. 2، 1982م، بيروت، 604/2.

فلازم المفتي محمد بن أحمد المريني في الفقه المالكي، وفقه الأثر، والنحو واللغة... وغير ذلك.

ولازم قاضي الجماعة علي بن عبد الرحمن ابن عمران في التفسير والسير والفقه والنوازل واللغة والنحو.

ولازم قاضي الجماعة –كذلك– الإمام الفيلسوف أبا القاسم بن أبي النعيم الغساني في التفسير والعقائد والمنطق.

ولازم العلامة اللغوي المطلع أبا القاسم ابن القاضي المكناسي في علوم القرآن والفرائض، والنحو والعروض والتصريف، والحساب والتوقيت.

كما لازم شيخ الإسلام محمد بن قاسم القصار القيسي الأندلسي سنين عديدة في التفسير والحديث والفقه والأصول... وغير ذلك. وجالسه كثيرا، "وكانت مجالسته تقوم مقام دروس كثيرة، فإنها كان يحصل بها من الفوائد ما لا يكاد يحصل في دروس كثيرة..."[1].

كما درس على الشيخ علي بن الأعراب لامية الأفعال، وإيساغوجي.

وأخذ على الشيخ أبي الطيب بن مهدي الزيات علمي الفقه واللغة... وغيرها.

وكذا درس الفقه على الفقيه الحافظ أبي الحسن علي بن جلول.

ودرس التفسير على الشيخ أبي الحسن على القنطري، وأجازه بالمسلسل بالمصافحة.

وأخذ في هذه الفترة ودرس علوما كثيرة على عمه العارف الفاسي، وشقيقه الحافظ الفاسي، بحيث لازمهما ملازمة تامة.

[1]– مرآة المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 163.

ولقي في هاته الفترة أمما من رجالات التصوف الكبار، وعلى رأسهم: والده الشيخ أبو المحاسن، والشيخ محمد بن أبي بكر الدلائي، والشيخ محمد بن علي ابن ريسون الشريف الحسني الإدريسي.

المطلب الرابع: تصدره للإقراء وتلاميذه.

ثم بعد تحصيله للعلم ونبوغه، تصدر للتدريس والإقراء بفاس خاصة، وبغيرها من المدن التي زارها أو حل بها، كالقصر الكبير وتطوان وزاوية الدلاء... وغيرها.

قال السلطان أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله العلوي: "درس العلوم بحواضر المغرب وبواديه، وانتشرت عنه في تحقيقه أياديه، وكان ممن تقصر عن محاسنه الأقلام، وتكل دون منتهاها ألسنة الأنام..."[1].

وقد أخذ عنه أعلام في مختلف العلوم التي درسها، خاصة علوم: الفقه والأصول، والحديث والمصطلح، علم العقائد الذي قال فيه شيخه العارف الفاسي: "إنه أعلم به من السنوسي"[2].

ومن أجل من أخذ عنه: أبناؤه الأربعة: الأديب المحقق عبد الوهاب، والمحدث يوسف، والأديب عبد العزيز، والفقيه عبد السلام، وأبناء أخويه: شيخ الإسلام عبد القادر بن علي الفاسي، وقاضي مكناس محمد بن أحمد بن يوسف الفاسي، وأحمد بن علي بن يوسف الفاسي، وكذا أخذ عنه الشيخ أحمد بن عبد الرحمن ابن جلال التلمساني، وإمام النحاة الشيخ محمد المرابط بن أبي بكر الدلائي، وإمام سوس وعالمها محمد بن سعيد المرغيثي... وغيرهم.

---

[1]– عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد، أبو الربيع سليمان بن محمد العلوي (ت 1238هـ)، م. س، ص: 33.

[2]– سلوة الأنفاس، محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345هـ)، م. س، 314/2.

قال السلطان أبو الربيع: "وغيرهم ممن لا يحصى بفاس وتطوان وقبائل غمارة، والمصامدة والهبط... بل عم الانتفاع بعلمه في جميع الأصقاع المغربية، لتأييده بنور التحقيق والفتح المبين، الممتدين عن شمس المعرفة اللدنية والتعلمية..."[1].

المطلب الخامس: مكانته العلمية وشهادات وأقوال العلماء فيه.

"أبو حامد محمد العربي الفاسي من أفراد العلماء في وقته، انقادت إليه العلوم فأعطته زمامها، وتحصل على أدوات الاجتهاد فكان إمامها، يمزج العلوم بعضها ببعض، مع إدراك لعلل الأحكام وفلسفة التشريع، ومقاصد الشريعة الغراء، واطلاع كبير على أقوال العلماء في مختلف العلوم. ولا أدل على ذلك من كتابه: "شهادة اللفيف" الذي مزج فيه علوما عدة من فقه ونوازل، وأصول ومصطلح، ومنطق وفلسفة تشريع، وعلم مقاصد... بحيث وحده يكفي للتعبير عن تبحر هذا الإمام ورفعة شأنه، ومن أهم ما يميز أسلوب الشيخ أبي حامد: التعليل؛ فهو لا يفتأ بعلل الأحكام والآراء التي ينحو إليها"[2].

وصفه محمد الصغير الإفراني (ت 1156هـ) في كتابه "صفوة من انتشر" بـ: "الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، بحر العلم الزاخر، وأعجوبة العصر الآخر..."[3].

وقال عنه محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ) في كتابه "نشر المثاني": "وهو في الباب من الأئمة المقتدين، وممن جمع بين التحقيق ومتانة الدين، ولا غرو أن كان لهذا أهلا، وحاز على من عداه فضلا..."[4].

---

[1]– عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد، أبو الربيع سليمان بن محمد العلوي (ت 1238هـ)، م. س، ص: 32.

[2]– مقدمة تحقيق مرآة المحاسن بقلم حمزة بن علي الكتاني، ص: 42.

[3]– صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الإفراني (ت 1156هـ)، م. س، ص: 71.

[4]– نشر المثاني، محمد بن الطيب القادري (ت 1187هـ)، م. س، 11/2.

وقال السلطان أبو الربيع (ت 1238هـ) في "عناية أولي المجد": "صار شيخًا جامعًا مانعًا، فدرس العلوم بحواضر المغرب وبواديه، وانتشرت عنه في تحقيقه أياديه، وكان ممن تقصر عن محاسنه الأقلام، وتكل دون منتهاها ألسنة الأنام، أمره أشهر من نار على علم، فكأنه بدر ثم سطع في ديجور الظلم، قد برع في الفنون، وغاص في لججها فاستخرج منها نفائس الدرر المكنون... فهو من أجل مفاخر هذه السلالة الفاسية الجدية حفظا وإتقانًا، وعلما وعرفانا..."[1].

ووصف علمه ودينه كذلك شيخ الإسلام محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345هـ) في مؤلفِه: "سلوة الأنفاس" فقال: "حَصَّل من العلوم ما طبق الآفاق، وملأ الآذان، من العلوم ما طبق الآفاق، وملأ الآذان، واشتهر علمه في المشرق أكثر من المغرب، وشهد له علماء عصره بالبراعة في العلوم كلها..."[2].

"كان له من الاعتناء بتقييد شوارد الفوائد ما لم يكن لغيره، حتى إنه يكون راكبًا في السفر فيتذكر مسألة، فيظهر له فيها شيء، فيوقف فرسه حتى يقيد ما ظهر له في الوقت، ثم يجد السير..."[3].

"أما فصاحة القلم، وجودة الخط، وبراعة الشعر؛ فهو سحبان عصره، وابن مقلة زمانه، ونابغة وقته، حتى كان يقول: والله؛ ما بيني وبين القصيدة إلا البسملة أو الحمدلة –أي: أن أكتب: بسم الله، أو: الحمد لله– أو أحبس القلم في يدي..."[4].

وأختم بما حلّاه محمد بن جعفر الكتاني في صدر الترجمة بـ: "الإمام الأوحد، وقدوة الأنام الأعمد، بحر العلم الزاخر، وأعجوبة العصر الآخر، نادرة الزمان حفظا وفهمًا وإتقانًا، ووحيد الدهر ذكاء وفطنة ومعرفة وإتقانًا، شيخ الإسلام، وعَالِمُ الأعلام..."[5].

---

[1]– عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي بن الجد، أبو الربيع السلطان سليمان (ت 1238هـ)، م. س، ص: 31.
[2]– سلوة الأنفاس، محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345هـ)، م. س، 314/2.
[3]– م. ن، ص. ن.
[4]– م. ن، ص. ن.
[5]– سلوة الأنفاس، محمد بن جعفر الكتاني (ت 1345هـ)، م. س، 313/2.

المطلب السادس: محنته ووفاته.

عاش شارح القصيدة الشقراطسية: محمد العربي بن يوسف الفاسي في فترة اضطرابات وتقلبات سياسية، تعد من أشد فترات التاريخ المغربي تأزما وأكثرها فتنا وسيبة، ومن أهم الفتن التي عرفها ذلك العصر: فتنة تسليم النصارى الإسبان مدينة العرائش سنة (1019هـ/1610م).

"لما انهزم جيش السلطان محمد الشيخ بن أحمد المنصور الذهبي المأمون السعدي أمام جيش أخيه السلطان زيدان؛ فاوض فيليب الثالث ملك إسبانيا على أن يساعده بجيش ضد أخيه من أجل استرداد ما سلب من ملكه، مقابل أن يترك عندهم أولاده وحشمه رهينة... فاشترط عليه الإسبان –بعد تعنت طويل– تسليمهم مدينة العرائش الواقعة في الشمال الغربي للمغرب، جنوب مدينة طنجة، والتي كانت ميناء تجاريا مهما حينها... فاتفق معهم على ذلك، وحاول استمالة قواد جيوشه من أجل ذلك؛ فلم ينصع له سوى قائده الكرني، وتم إخلاء العرائش وحلول النصارى بها رابع رمضان عام (1019هـ/1610م)[1].

تسبب تسليم المأمون السعدي للعرائش في امتعاض عام من قواد جيشه، وعلماء البلاد، والقبائل وجمهور الشعب المغربي؛ حتى بدت بوادر الفتنة نظهر عيانا نظرا لأن المرجعية الشعبية كانت مرجعية إسلامية، فالإسلام فوق كل اعتبار وإن كان في مقابل الملك فمن دونه، والعلماء الربانيون هم قادة الشعب الحقيقيون ورواده إلى سبل الخير.

"كان الشيخ –أي المأمون السعدي– لما خاف من الفضيحة وإنكار العامّة والخاصّة عليه إعطاءه العرائش –بلاد الإسلام– للكفار؛ احتال على ذلك بأن كتب سؤالاً لعلماء فاس وغيرها، يذكر لهم فيه أنه: لمّا وغل في بلاد العدو الكافر، واقتحمها كرهًا بأولاده وحشمه؛ منعه النصارى من الخروج من بلادهم بعد أن دخلها، حتى

[1]– صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الإفراني (ت 1156هـ)، م. س، ص: 291.

يعطيهم بلد العرائش، وأنهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك عندهم أولاده رهنًا حتى يمكنهم ممّا أرادوه. فهل يجوز أن يفدي أولاده من أيديهم بإعطائها لهم أم لا؟!"[1].

فانقسم العلماء على هذه الفتوى ثلاثة أقسام[2]:

- ✓ قسم سلموا له ما أراد ووافقوه في مقصده.
- ✓ قسم جابهه ورفض مطلبه وشنع عليه، بل دعا إلى حربه؛ إذ الاستعانة بالكافر على المسلم كفر كما تنص عليه أحكام الشريعة الغراء.
- ✓ قسم اختفى وامتنع عن الإدلاء برأيه موافقة أو رفضًا، مع رفضهم الباطني؛ ومنهم الأئمة: أبو عبد الله الجنان، وأبو العباس المقري صاحب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، والحسن بن مهدي الزيات وأحمد بن يوسف الفاسي الذين هربوا خارج فاس. ومن هؤلاء الجماعة: الشيخ أبو حامد محمد العربي الفاسي.

يقول الشيخ محمد العربي –كما ذكرت سلفاً–: "فخرجت من فاس بأهلي وبعض أهله –أي: شقيقه الشيخ أحمد بن يوسف– صبيحة يوم السبت السابع عشر من صفر سنة عشرين وألف؛ وهو: يوم عشرين أبريل. وأقام هو بفاس أيامًا ثم لحق بنا في بني يحمد وقد تطارحوا علينا في الإقامة عندهم؛ فأقمنا إلى أواخر ربيع الثاني، ثم أقمت أنا وسار هو بالأهل جميعًا إلى بوزيري من بلاد مصمودة؛ عمل أزاجن؛ وهو منزل سيّدنا وبركتنا سيدي عبد الرحمان المجدوب رضي الله عنه..."[3].

بقي محمد العربي الفاسي متنقلا بين مختلف مدن وحواضر المغرب، حتى استقر بمدينة تطوان حيث توفي بها –صحوة يوم السبت الرابع عشر من ربيع الثاني سنة اثنتين وخمسين وألف. ثم بعد عامين نقل إلى فاس، ودفن متصلا بقبر أبيه الشيخ أبي المحاسن بمنطقة القباب عند مصلى باب الفتوح.

---

[1]– صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، محمد الصغير الإفراني (ت 1156هـ)، م. س، ص: 292.

[2]– م. ن، ص. ن.

[3]– مرآة المحاسن، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، م. س، ص: 221.

قال أبو الربيع السلطان سليمان (ت 1238هـ): "بيد أنه رمته أيدي النوائب بالامتحان، ولم يكن له في الحواضر قرار بمكان، ولم يزل في البوادي تلفظه البلدان، حتى أدته خاتمة المطاف أن ألقى عصا التسيار والتطواف، وأقام بتطوان راجيًا أن يكون له بها إسعاف، والدهر بالأمان غير واف؛ فلم ينشب أن عاجله هنالك حمامه، وانطوت لياليه وأيامه..."[1].

المطلب السابع: مصنفاتـه.

ترك الشيخ أبو حامد –رحمه الله تعالى– العديد من المؤلفات العظام تعكس مدى تضلعه من العلوم وشفوف رتبته قال عنها السلطان أبو الربيع[2]: "غير أنه أبقى أثرا يدل عليه، من كل ما صح إسناده إليه، من تأليف ترفل في حلل الإجادة، وجهابذة تخرجوا بها في حسن الإفادة...". من مصنفاته:

1– "الإصابة في حكم طابة". توجد منه نسخة بالخزانة الحمزاوية رقم (227).

2– "التعريف بابن إيازا وابن أبان". ذكره في "المرآة" ص: 237.

3– تعليق على تحصيل معنى الهيللة للهبطي". توجد نسخة عنه في خزانة الأستاذ علال الفاسي تحت رقم: 257ع.

4– تقييد على قول ابن السبكي: "جائز الترك ليس بواجب". ذكره في "المرآة" ص: 237.

5– تقييد في التحاق جمع القلة بجموع الكثرة لاقترانه بـ: أل. ذكره في "المرآة" ص: 237.

6– تقييد في الكلام عن الاشتقاق وأنواعه، وشرح كلام المرادي فيه. ذكره في "المرآة" ص: 23.

7– تقييد في قول "الخلاصة": "قال محمد هو ابن مالك". توجد منه نسخة ضمن مجموع بخزانة علال الفاسي رقم: 389ع.

---

[1]– عناية أولي المجد، أبو الربيع السلطان سليمان (ت 1238هـ)، م. س، ص: 31.

[2]– م. ن، ص: 31.

8- "تلقيح الأذهان وتنقيح البرهان".

9- جواب سؤال عن العقوبة بالمال. توجد منه نسخة خطية بخزانة الأستاذ علال الفاسي تحت رقم: 636ع.

10- جواب عن سؤال يتعلق بتعليل لفظة (أمس) على الحركة. في ورقة. توجد منه نسخة بخزانة علال الفاسي تحت رقم: 257ع. ضمن مجموع.

11- رسالة في التعليق على تقسيم السنوسي للمكلفين. توجد منها نسخة بخزانة المعهد الإسلامي بنظارة تطوان، تحت رقم: (180).

12- رسالة في شهادة اللفيف. طبعت باعتناء الأستاذ محمد الأمين بوخبزة العمراني.

13- "السمط المنظوم من جوهرة ابن آجروم". منظومة توجد منها نسخة بخزانة علال الفاسي تحت رقم: 675ع.

14- "شذر الذهب في خير نسب". نظم في نسب الشرفاء العلميين في 120 بيتا. يوجد بالخزانة الفاسية ضمن مجموع. قاله د. محمد بن عزوز في مقدمة "عقد الدرر" ص: 4.

15- شرح "الشفا بالتعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض. لم يتم.

16- شرح حديث ذي اليدين. ذكره في "المرآة" ص: 237.

17- شرح على "الشقراطسية". وهو موضوع التقديم والتحقيق.

المبحث الثالث: الزاوية الفاسية

المطلب الأول: أصل الأسرة الفاسية ونشأتها.

المطلب الثاني: مناقب الأسرة الفاسية وأدوارها.

المطلب الثالث: الزاوية الفاسية وأدوارها وفروعها.

المطلب الأول: أصل الأسرة الفاسية.

عاش المؤلف أبو مدين الفاسي في أحضان الأسرة الفاسية التي رسمت معالم شخصيته، ترعرع المؤلف في البيت الفاسي و"نسب هذا البيت في قريش من بني فهر بن مالك الذي هو جماع قريش. قال أبو عبد الله الزبير بن أبي بكر عن عبد الله بن مصعب: اسم فهر بن مالك قريش وفهر لقب له. وعن ابن شهاب أن اسم فهر ابن مالك، الذي سمته أمه به قريش، وإنما امتازته بهذا قال وقد أجمع النساب من قريش وغيرهم أن قريشا إنما تفرقت عن فهر والذي عليه من أدركته من نساب قريش أن ولد فهر بن مالك قريش، وأن من جاوز فهر بن مالك بنسبه فليس بقرشي، وقيل أن جماع قريش هو النضر بن كنانة والأصح الأول.

ثم هم من بني عدي بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر فيلتقي نسبهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في كعب لأنه صلى الله عليه وسلم من بني مرة، وهم من بني عدي، وكلاهما ابن لكعب ابن لؤي. ثم هم من بني الصحابي الجليل "سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وكان من المهاجرين الأولين، شهد مع النبي المغازي كلها ماعدا بدرا لأنه كان غائبا بالشام، وقدم عقب غزوة بدر فضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم بسهمه وأجره. ثم هم من بني الشيخ الإمام حافظ الأندلس وزعيم علمائها أبي بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فرج بن أبي الجد"[1].

وهذا ما أكده الإفراني حين قال: "وهم ينتسبون إلى بني الجد كبراء مالقة، وبنو الجد من بني فهر، ثم من بني عدي، ثم من بني سعيد بن زيد"[2]، ومما دون في نسبهم "أن سلفهم الأول منذ دخلوا الأندلس في لبلة –بفتح اللامين بينهما باء موحدة ساكنة

[1]– عناية أولي المجد، ص: 3–4–5.

[2]– صفوة من انتشر، الإفراني، ص: 78.

وفي الآخر هاء التأنيث- وهي من أعمال إشبيلية -بكسر الهمزة- في الجانب الغربي ساحل البحر المحيط من جزيرة الأندلس ثم انتقل أكثرهم إلى مالقة وبعضهم إلى إشبيلية وأخرجوا منها حين أخذها النصارى في سابع وعشرين من رمضان سنة ست وأربعين وستمائة، وذلك بسبب قتل أهل إشبيلية أميرهم عمر بن الجد الفهري لأن آذفونس كان مصافيا لابن الجد ومصالحا لهم. فلما قُتل، فسد الصلح بينهم، فحاصروها برا وبحرا، حتى استولوا عليها فانحاش من كان بها من بني الجد إلى رهطهم بمالقة، ومن مالقة انتقلوا إلى هذه العدوة[1].

توالت الأحداث "لما أخذ النصارى إشبيلية، ارتحل من كان فيها من بني الجد إلى مالقة واستوطنوها ولم يبق لهم وطن بالأندلس غيرها، ثم منها انتقلوا إلى عدوة فاس 880هـ"[2].

المصادر التاريخية تبين أنه عندما "عظم الخطب بالأندلس، واشتدت الفتن فأخذ النصارى مالقة في أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، وبعدها في ربيع الأول سنة سبع وتسعين وثمانمائة أخذت غرناطة، واستولى الكفر على الجزيرة، وآل الأمر في ذلك الخلاف بعد خطوب إلى اتفاق الأخوين، وسير محمد إلى أخيه فبقي أهل الخلاف فوضى، وانتهت الحال إلى قيام مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن، وقتل من القواد القرطوسي وابن السراج وابن سيدهم، ورحلت بيوت مالقة بسبب تلك الفتن فأجازوا البحر من هذه العدوة، واستقل هذا الفل من بني الجد بحضرة فاس وهم أبو زيد عبد الرحمن، أخوه أبو العباس أحمد ابنا أبي بكر ابن الجد، وسكنوا في غالب ظني حومة الشناكين، وهي المعروفة اليوم بالشرابليين، من عدوة فاس القرويين، واحترفوا بعمل الشمع المسبوك، فجرى عليهم لفظ الشماع وعرفوا به. ولعله جرى عليهم ببلدهم من قبل. ثم توفي الأخوان معا، عبد الرحمن وأحمد ابنا أبي بكر في طاعون سنة سبع وثمانين وثمانمائة ودفنا في واد الزيتون، ولم يخلف عبد الرحمن إلا ابنه يوسف صبيا

[1]- عناية أولي المجد، ص: 7-8.

[2]- نفسه، ص: 11.

صغيرا، وابنه هي أكبر منه مع أمها أم الفتح بنت عبد الوهاب الكناني، وأما أحمد فلم يخلف عقبا أصلا، وأبوهما هو محمد ويكنى أبا بُكَر ويقال: بُكَر بضم الباء وفتح الكاف، ويلقب بالحفيد، توفي قبل ارتحال ولديه إلى العدوة وبمالقة مدفنه ونسب بني يوسف هو وابن الفقيه الأجل الشهير أبي مروان عبد المالك وهو ابن الشيخ الإمام أبي بكر بن أبي محمد عبد الله بن أبي زكرياء يحيى بن المجيد أبي محمد عبد الله بن فرج بن أبي الجد الكناني الفهري القرشي فنسب بني يوسف بهذه العدوة المغربية متصل بنسب أبي بكر بن الجد في العدوة الأندلسية لا يختلف فيه اثنان، فممن صرح به الشيخ أبو عبد الله محمد بن قاسم القصار وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي الصنهاجي المجاطي[1].

بعد وفاة الأخوين عبد الرحمن وأحمد، كما سبق ذكره، بقي على رأس الأسرة الفاسية بعدوة القرويين أبو الحجاج وهو "يوسف بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ولد في حياة أبيه بحضرة فاس، ونشأ بها أحسن نشأة، صرفه الزمان عن القراءة، وأقبل على التكسب، ثم تفرغ للتجارة، بما بقي بيده مما اجتمع له من ميراث أهله، فتردد في سبيل التجارة إلى القصر الكبير، ولما كان يتردد من فاس إلى القصر، صار يشتهر في القصر بالفاسي، وفي فاس بالقصري، ثم بالفاسي ثم بهما. تزوج بالقصر فكان ذلك سببا في إقامته فيه، كان تام المروءة، حسن السمت، قوي الهدي، عزيز البر، كريم النفس رفيع الهمة، كثير الصدقة والإطعام، لا يستطيع الطعام وحده، حتى يحضر من يأكل معه، وكان مع جيرانه مما يأتي به الوقت مما يستطرف، لا ينفرد عنهم، وكان أكثر صبيانهم يأكل عنده ولا يكبر عليه شيء من متاع الدنيا ولا يعظم عنده، وكان شيخا صالحا، كان شديد المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كان له ربائب أولاد السيد الشريف العباس المعروف بالطويل، وكان مبالغا في برهم وإكرامهم، مفضلا لهم

[1]- نفسه، ص: 11-12.

على أولادهم، رعيا لنسبهم وقيامهم بواجب حقهم، وامتثالا للأمر بمودتهم. توفي رضي الله عنه حدود العشرين وتسع مائة، دفن بالزاوية داخل القصر"[1].

وكان من البيت الفاسي ولده عبد الله –محمد بن يوسف بن عبد الرحمن وهو والد أبي المحاسن– "ولد القصر الكبير سنة اثنتي عشرة وتسعمائة، ونشأ بها في عفاف وصيانة، وعدالة وأمانة، قرأ القرآن، وجالس العلماء الأعيان، توسع في التجارة فكثر ماله، كان متواضعا وقورا، مهيبا معظما، كثير الإحسان، حسن المعاشرة، كانت داره مألف الأيتام والأرامل والمساكين، أخذ الطريقة عن الشيخ العارف أبي العباس أحمد بن قاسم الشرفي الأندلسي، وهو أخذ عن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن صالح الأندلسي دفين روضة الأنوار خارج باب الفتوح من فاس، عن الشيخ أبي فارس عبد العزيز بن عبد الحق الحرار المعروف بالتباع دفين مراكش، عن شيخ الطريقة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن أبي بكر بن سليمان الجزولي الحسني رضي الله عنه. وكان لصاحب الترجمة وجاهة عظيمة عند ولاة العصر في الدولتين الوطاسية والشريفة السعدية، منظورا إليه بعين الإجلال والتعظيم توفي رحمة الله في جمادى الثانية سنة أربع وسبعين وتسعمائة ودفن في الزاوية داخل القصر الكبير بقرب والده رحمهم الله أجمعين"[2].

ومن آل البيت الفاسي "الشيخ العارف، القطب الواضح، يوسف بن محمد بن يوسف بن عبد الرحمن القادم بن أبي بكر الحفيد ابن الجد الفهري يكنى أبا المحاسن[3]. ويعرف كأبيه وجده بالفاسي. هذا الشيخ هو قطب رحى بني الفاسي، وطود مجدهم الراسي، وبيت عددهم، وأصل مددهم[4].

---

[1]– عناية أولي المجد، ص: 13–14.

[2]– عناية أولي المجد، ص: 15–16.

[3]– ترجمته في: "ممتع الأسماع"، ص: 119. الصفوة، ص: 27. نشر المثاني، 119/1. طبقات الحضيكي، 354/2. السلوة، 306/2. شجرة النور الزكية، ص: 1136. الأعلام، 252/8. والملاحظ أن أغلبهم اعتمد على "مرآة المحاسن".

[4]– عناية أولي المجد، ص: 16.

وذكر في مرآة المحاسن أنه "ولد رضي الله عنه كما وجد بخط يده ليلة الخميس تسع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وتسع مائة بالقصر الكبير وبه نشأ، وإياه أوطن إلى أن انتقل إلى سكنى فاس، وطن سلفه الذي ينتمي إليه، ولاح لأبيه يمين غرته، وسعادة طالعه، وبركة مورده[1]، "قرأ القرآن العظيم في صباه وأحكام قراءته بحرف نافع على الشيخ أبي الحسن علي العربي، وجوده على الشيخ الفقيه الأستاذ أبي زيد عبد الرحمن ابن محمد الخباز القصري[2]. وقرأ عليه رسالة ابن أبي زيد وألفية ابن مالك ولاميته، وصغرى السنوني، وغير ذلك[3].

وكانت رحلته إلى فاس الأولى مع أبيه بقصد القراءة "فأدرك بها جماعة من المشايخ الأكابر، فمنهم: الشيخ الإمام المفتي أبو عبد الله محمد بن أحمد اليسيتني[4]، وتوفي في محرم سنة تسع وخمسين بفاس. والشيخ الإمام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن الوهاب بن محمد الزقاق[5]، وتوفي شهيدا بفاس، سنة إحدى وستين. والشيخ الإمام خطيب جامع القرويين أبو زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم الدكالي[6]، وتوفي بفاس، أول سنة اثنين وستين عن نحو سبعين سنة، وقد طال مرضه نحو السنة، وغيرهم من المشايخ رضي الله عنهم. ولم تطل إقامته بفاس، وعاد إلى القصر"[7].

عاد إلى فاس مرة ثانية "وكان شديد الحرص في طلب العلم والاجتهاد في تحصيله، دائم العكوف على الدراسة والمطالعة والنظر، لا ينام من الليل إلا قليلا، وكان ثاقب الذهن، جيد الحفظ، سريع التحصيل...، ثم رجع من فاس للقصر بعلم

---

[1]– مرآة المحاسن، ص: 73.

[2]– أبو زيد بعد الرحمن ابن محمد الخباز القصري (ت 964هـ) شرح كتاب التفصيل في الطرق العشر للشيخ أبي عبد الله ابن غازي، ترجمته في مرآة المحاسن، ص: 74.

[3]– عناية أولي المجد، ص: 16.

[4]– جذوة الاقتباس، ص: 152. ودرة الحجال، 201/2. سلوة، 59/3.

[5]– ترجمته في دوحة الناشر، ص: 55. زهرة الآس، 469.

[6]– ترجمته في دوحة الناشر، ص: 56. جذوة الاقتباس، ص: 261. درة الحجال، 97/3. سلوة الأنفاس، 130/2.

[7]– مرآة المحاسن، ص: 74.

غزير، انتفع به الخاص والعام، وظهرت بركته فيهم وفي أولادهم، إذ كان علمه مصحوبا بالنور والفتح الرباني، فقد كان قبل ذلك وبعده صحب الشيخ العارف الكامل أبا زيد عبد الرحمن المجذوب، هو الذي اقتبس الشيخ أبو المحاسن من أنواره وسلك على منهاج آثاره، وبلغ على يده المبلغ العظيم"[1].

وتذكر المصادر التاريخية أن كل الفضل يعود للشيخ المجذوب، لأن أبا المحاسن "لم يكن يعرف الفقر ولا ما هو، فقيض الله له الشيخ العارف الكامل قطب الأحوال أبا محمد عبد الرحمان المجذوب[2]. لقد كان أبو المحاسن "فصيح اللسان، متمكنا من الإيضاح والبيان، حلو العبارة، أعطي بسطة في التعبير، وإيراد المعنى الغامض، باللفظ السهل، وتنزيل المعقول منزلة المحسوس بالأمثلة الواضحة، وكان يطرز ما يلقيه من أنواع العلوم بنكت صوفية، وإشارات عرفانية، وإنشادات رقيقة، وحكايات رشيقة، فنفع الله به خلقا كثيرا[3].

أما أوصافه وأحواله "فكان الشيخ أبو المحاسن–رضي الله عنه– حسن الشكل، الصورة، معتدل القامة، جليل الذات، منور الشيبة، عليه بهاء السؤدد، ورقراق النور، العلم، وسيما الدين، وأبهة المنصب، ووسامة الوقار، تلحظه الأعين بالإجلال والتعظيم"[4].

وأما حاله: استخراج الحقائق ومعارف التوحيد من بطون الشرائع، وكثيرا ما يفرغها في عبارة العامة، وقوالب العادات، ثم قلما يذكر حقيقة إلا ويؤيدها بشاهد من الشريعة.

---

[1]– مرآة المحاسن، ص: 76.

[2]– ممتع الأسماع، ص: 138.

[3]– مرآة المحاسن، ص: 177، النص بلفظه في عناية أولي المجد، ص: 17.

[4]– مرآة المحاسن، ص: 88.

وطريقته: كتمان الأسرار والفرار من الدعوى بغاية الإمكان، إذا كوشف بحال أحد، أخبره به في طي أمر عادي أو حكاية منقولة أو مسألة بفرضها ثم يذكر حكمها وكذا إذا أراد أن يعلم أحد بأمر حتى لا يتفطن له إلا من له استعداد لذلك. وشأنه: الاعتناء بالحقائق دون الصور، ومعاملة الخلق باللطف والإشفاق، كل بحسبه، وعلى ما يليق به. فإذا استشاره أحد في أمر وظهر منه سلب الاختيار معه، رده لاختياره، فإن لم يجد عنده شيئا من الاختيار، أشار عليه بما هو الحقيقة عنده، يعامل الناس على قدر دعواهم، ويأخذ منهم على حسب ما يرى من سماحهم، غير معاتب إن بدا منهم غير دعواهم، يراعي لهم سابق إحسانهم، راحما لهم بالإقبال والمساعدة لهم"[1].

كانت وفاته في آخر الثلث الأول من ليلة الأحد 18 ربيع الأول سنة 1013 هـ، "ودفن بروضته الشهيرة به خارج باب الفتوح"[2].

المطلب الثاني: مناقب الأسرة الفاسية وأدوارها.

❖ **مناقب الأسرة الفاسية:**

تأسيسا على ما سبق في المبحث الأول من هذا الفصل، يتبين جليا أن الأسرة الفاسية هي أسرة ذات شرف وعلم ومجد وفخر، "فاق ما يذكر من مفاخرهم بالأندلس فخرا ورياسة في الدين والدنيا، وكل بني الفاسي ينتسبون للشيخ أبي المحاسن الفاسي، ومن بنيه الثلاثة أحمد وعلي والعربي، وهم يتوزعون سكنى بين فاس وتطوان والقصر الكبير، وفرع علي بن يوسف هو أزكى فروعهم وأكثرها علماء ووجهاء، وأشهرها ذكرا في تراجم المغاربة، ثم يليه فرع العربي، ثم فرع أحمد"[3].

من الواضح أن "علومهم جرت في البسيطة جريان الأنهار، جبلوا إذ صفى الله براءة قلوبهم من الأكدار، وتواصوا بمحبة آل البيت الأبرار، وجلبوا قلوب الخلائق،

---

[1]– مرآة المحاسن، ص: 88.

[2]– ممتع الأسماع، ص: 146.

[3]– مرآة المحاسن، ص: 31.

فامتدت لرؤية محاسنهم من كل الأبصار، وعرفوا أن للفضل أهلا، فأجلسوهم على منصته، واعترفوا بالحق لأهله، فوفوا كلا بحصته، فصار الثناء عليهم من الكل استحبابا، وتصدروا في صدور المحافل، صدقت لهجتهم فصفت مهجتهم، وأدركوا المزايا العالية"[1].

وما يبرز مكانة الفاسيين هو ما أُلف في مناقبهم من كتب،هذا بعضها:

- ❖ مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن: للشيخ العربي بن يوسف الفاسي.
- ❖ عناية أولي المجد بذكر آل الفاسي ابن الجد :للسلطان أبي الربيع سليمان ابن محمد العلوي.
- ❖ الجواهر الصفية من المحاسن اليوسفية: للمهدي بن أحمد الفاسي.
- ❖ ابتهاج القلوب بأخبار الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب: لعبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي.
- ❖ أزهار البستان بترجمة الشيخ عبد الرحمان: عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي.
- ❖ منظومة الدرس الصفي في وصف ما أبدى الجمال اليوسفي: لمحمد بن الطيب القادري الحسني.
- ❖ روض الأنفاس العالية في بعض الزوايا الفاسية: للكتاني عبد الكبير بن هاشم الفاسي.
- ❖ فروع الشجرة الفاسية: لعبد القادر بن علي الفاسي.
- ❖ تحفة الأكابر بترجمة الشيخ عبد القادر عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي.
- ❖ روضة المحاسن الزاهية بمآثر الشيخ أبي المحاسن: المهدي بن أحمد الفاسي.

[1]– الدرر البهية والجواهر النبوية، 252/2.

- ❖ الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس: لأبي عبد الله محمد بن عيشون الشراط.
- ❖ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس: لابن القاضي أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي.

وهناك كتب كثيرة في تراجم ومناقب الأسرة الفاسية، لا يسع المقام لذكرها بكاملها، إضافة لصعوبة حصرها، فهي موزعة بين كتب مخطوطة وأخرى مطبوعة.

أسانيد الأسرة الفاسية.

أثبتت كل المصادر التي تُرجمت لأعلام الأسرة الفاسية أنهم على الطريقة الشاذلية باعتبار الشيخ أبو المحاسن مؤسس الزاوية الفاسية فهو"إمام الطريقة الشاذلية ومحيي رسومها بالبلاد المغربية"[1]، وكذلك شيوخهم في التربية الصوفية كانوا من شيوخ الشاذلية.

أسانيد الشيخ المحاسن:

أ_ من طريق أبيه:

الشيخ أبو المحاسن سنده متصل من حيث إنه "أخذ الطريقة عن الشيخ العارف أبي العباس أحمد بن قاسم الشرفي الأندلسي، صحبه بفاس، وكان يقصده من القصر للزيارة والسلوك على يديه، وهو أخذ عن الشيخ أبي الحسن علي بن محمد صالح الأندلسي روضة الأنوار،عن شيخ المشايخ عبد العزيز بن عبد الحق الحرار، المعروف بالتباع، شيخ الطريقة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن أبي بكر بن سليمان الجزولي الحسني"[2].

ب- من طريق شيخه المجذوب:

---

[1]- السلوة، 2/345.

[2]- عناية أولي المجد، ص: 15. أورد هذا السند كل من: السلوة، 239/2. مرآة المحاسن، ص: 252.

أخذ الشيخ أبو المحاسن عن الشيخ عبد الرحمن المجذوب الذي أخذ "عن الشيخ المجذوب العظيم ذي المدد الجسيم، أبي الحسن علي بن أحمد الصنهاجي المعروف بالدوار، وهو عن الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الزرهوني المعروف بأفحام دفين جبل زرهون، ثم انضاف إلى العارف بالله القطب الغوث أبي العباس أحمد البرنوسي المعروف بزروق"[1].

ج- من طرق صوفية أخرى:

للشيخ أبي المحاسن يوسف أسانيد أخرى من شيوخ آخرين إذ أنه "أخذ طريق التبرك والاستفادة عن الشيخ أبي سلم إبراهيم الزاوي (فعن الشيخ أبي المظفر منصور الزوَّاوي، ومنه اكتسب الشيخ أبو سالم هذه النسبة لطول ملازمته إياه، عن الشيخ أبي العباس ابن عروس دفين تونس، عن الشيخ فتح الله العجمي التونسي. وأخذ الشيخ أبو سالم أيضا عن الشيخ ابن عروس دون واسطة، وعن الشيخ أبي العباس الحضرمي بمصر، وعن تلميذه الشيخ أبي العباس زروق، وعن تلميذه الشيخ أبي العباس أحمد بن يوسف الراشدي، وعن الشيخ أبي محمد عبد العزيز التباع، وكان الشيخ أبو سالم قد عمر فوق المائة، وتوفي سنة إحدى وستين وتسعمائة بفاس، ودفن خارج باب الجيسة من أبوابه). والشيخ عبد الله محمد الملقب بكانون المطاعي (فعن الشيخ أبي محمد عبد العزيز التباع)، والشيخ أبي عبد الله محمد الطالب، والشيخ أبي محمد عبد الله الهبطي، والشيخ أبي محمد عبد الله بن ساسي، والشيخ أبي العباس أحمد منصور الحاحي، (فأربعتهم عن الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني، عن الشيخ أبي محمد التباع عن الشيخ أبي عبدالله الجزولي). والشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشنزائي(فعن الشيخ أبي عثمان سعيد الداعي، عن الشيخ أبي محمد التباع)، والشيخ أبي عبد الله محمد بن مخلوف الضريسي(عن الشيخ أبي حفص الحصيني، عن الشيخ أبي محمد التباع)، والشيخ أبي الحسن بن عيسى المصباحي، (عن الشيخ أبي عبد الله

[1]- السلوة، 348/2. أورد السند نشر المثاني 135/1. الروض العطر الأنفاس، ص: 107. ابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، 133/2.

محمد المدعو بأبي عسرية بن الزبير بن الحسن بن الزبير بن طلحة بن مصباح المصباحي عن الشيخ أبي محمد عبد العزيز التباع)، والشيخ أبي النجا سالم العماري (عن الشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن عيسى الشريف العلمي المعروف بابن ريسون عن الشيخ أبي محمد عبد الله الغزواني عن الشيخ أبي محمد عبد العزيز التباع)، وغيرهم من المشايخ رضي الله عنه"[1].

الأسانيد الصوفية لأعلام الأسرة الفاسية:

❖ عبد الرحمن الفاسي (ت 1036هـ):

هو أبو زيد محمد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف القصري الفاسي، "أخذ عن أعلام منهم أخوه أبو المحاسن يوسف وانتفع به وأجازه إجازة عامة"[2]، و"لما توفي شيخه شيخه أبو المحاسن تأهل للمشيخة، وانتصب داعيا إلى الله تعالى، وانتفع به ناس كثيرون، وظهر ظهورا عظيما، ولم يذكر أحد معه في علم الشريعة ولا في الطريقة"[3]، لقد "تصدر للمشيخة والأحزاب والوظائف بزاويته"[4].

❖ عبد القادر الفاسي (ت 1091هـ):

أبو محمد وأبو السعود سيدي عبد القادر الفاسي ابن الشيخ أبي الحسن سيدي علي ابن الشيخ الكبير أبي المحاسن سيدي يوسف أخذ الطريقة عن "والده–علي بن يوسف– وأخيه– أحمد– وعم أبيه العارف الفاسي، وهو عمدته، وبه تخرج، وأخذ عنه الطريقة بسندها"[5]، وتولى أمور الزاوية"[6]، واعتبره الكتاني في السلوة الوارث الثاني،

---

[1]– مرآة المحاسن، ص: 252 وما بين هلالين أخذته من ص: 253 من المرآة وألحقته بأصحابه.

[2]– شجرة النور الزكية، 299/1.

[3]– نشر المثاني 268/1.

[4]– صفوة من انتشر، ص: 88.

[5]– شجرة النور الزكية، 315/1.

[6]– نشر المثاني، 269/1.

ينتسب في الطريقة الصوفية لعم أبيه سيدي عبد الرحمن الفاسي...، وهو شيخه، ولما توفي ارتبط بعده بالشيخ سيدي محمد بن عبد الله معن الأندلسي"[1].

- **محمد بن عبد القادر الفاسي(ت 1116هـ).**
- **محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر (ت 1134هـ).**

"أصبح رئيس حرمهم بعد وفاة أخيه سيدي محمد وولي زاويتهم الكائنة بحومة القلقليين فأدرك بذلك الوجاهة وصار معظما ملحوظا"[2]، وله "ثبتة سماها المنح البادية"[3].

- **أحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر (ت 1145هـ):**

أب أبي مدين الفاسي المؤلف، ورث المشيخة بعد عمه أحمد بن عبد الرحمن، "ولي القيام بزاوية عم جده العارف سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي، الكائنة بالقلقليين.

- **أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي(ت 1164هـ):**

أب أبي مدين الفاسي المؤلف، ورث المشيخة بعد عمه أحمد بن عبد الرحمن "ولي القيام بزاوية عم جده العارف سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي، الكائنة بالقلقليين، معنيا بمصالحها، حريصا على عمارتها، ومداوما الأوقات بها، متفقدا لأحوالها، يدافع عن من آوى إليها من أهل الجناية ومن خاف من جور الولاة والظلمة، إذ كانت لأهل الحومة التي هي بها في وقته عصبية ورياسة وقبول وكلمة، وكانوا يأوون إليه وله معهم ألفة وصحبة ومودة، ولا يخرجون عن أمره ونهيه، فعلت كلمته بسبب ذلك، وخافه الولاة والظلمة من أهل فاس، وصار له الأمر والنهي والعزل والتولية

---

[1]- السلوة، 351/1.

[2]- نشر المثاني، 363/3.

[3]- نفسه، 254/3.

في باطن الأمر في خطط الأحباس، من النظار والقباض، ومن يشهد عليهم، وولاية المنابر والمساجد وكراسي التدريس، فصارت له الوجاهة بفاس والقبول، عند أكثر العامة والخاصة، ويشاوروه في المضائق وفي كل وهل وشدة وفرح وسرور، وهو عندهم مخصوص عن أبناء جده، سيدي يوسف ن محمد الفاسي"[1].

❖ محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي(ت 1179هـ):

أخو أبو مدين الفاسي الشارح (ت 1181هـ)، أي هو ابن لأحمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر، وكلا الابنين تلقيا تربية ورعاية من أبيهما، وورثا منه الطريقة، وتوفي المترجم له 1179هـ.

❖ أبو مدين محمد بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي (ت 1181هـ):

المطلب الثالث: الزاوية الفاسية وأدوارها وفروعها.

الزاوية الفاسية امتداد للطريقة الشاذلية في المغرب، ومدرسة انبثقت عن تلامذة الشيوخ ابن عباد الرندي الأندلسي الفاسي، ومحمد بن سليمان الجزولي، وأحمد بن أحمد زروق البرنوسي الفاسي، وأكبر الطرق التي نتجت عن هذه المدرسة هي: الطريقة الدلائية في وسط المغرب، والتي تفرعت عنها الطريقتان العياشية والناصرية، والطريقتان الريسونية والوزانية، وهما الأصل امتداد لمدرسة مولانا الإمام عبد السلام بن مشيش، والطريقة اليوسفية الفاسية، وهي خلط في التأثر من تصوف المشرق والأندلس والمغرب، وقد استمرت مشيخة هذه الطريقة في البيت الفاسي حياة الشيخ أبي المحاسن المؤسس وشقيقه العارف عبد الرحمن، ومن الشيخ عبد الرحمن انتقلت مشيخة الطريقة الفاسية إلى فرعين:

[1]- نفسه، 91/4.

❖ فرع زاوية المخفية، الذي يمثله آل معن الأندلسيين، المنتسبين للسلطان أمير المسلمين يعقوب المنصور الموحدي، إذ تولى المشيخة بعد العارف الفاسي، الشيخ محمد بن عبد الله معن الأندلسي (ت 1062هـ)، ثم الشيخ قاسم الخصاصي (ت 1083هـ) ثم ابن الأول للشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله معن (ت 1120هـ)، وجدد زاوية والده بالمخفية من فاس، ثم خلفه بالزاوية نجله الشيخ محمد بن أحمد معن (ت 1134هـ)، ثم نجله الآخر الشيخ العربي بن أحمد معن (ت 1166هـ) وهو الذي جمع في طريقتهم الشاذلية المعنية الفاسية المشربين القادري والشاذلي، بأخذه عن العارف الشيخ أحمد اليمني القادري (ت 1113هـ)، ووالده أبي العباس معن، ومن الشيخ العربي بن عبد الله عندما انتقلت وراثة الطريقة الشاذلية الفاسية المعنية إلى الشيخ الشريف مولاي علي بن عبد الرحمن العمراني الإدريسي الحسني المعروف بالجمل (ت 1194هـ) صاحب زاويته الشهيرة بحومة الرميلة من فاس، وعنه أخذ الطريقة الشاذلية خليفته العارف المربي الشيخ مولاي العربي بن أحمد الفاسي الإدريسي الحسني المعروف بالدرقاوي (ت 1239هـ) ثم انتشرت طريقته شرقا وغربا كما هو معروف، وتفرعت عنها عدة طرق[1]. وهذا الفرع هو الذي تربى فيه المؤلف محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ).

❖ وفرع زاوية القلقليين، "مشيخة هذا الفرع وزعامته الروحية قد رست عند عبد القادر الفاسي، ورثها من سلفه محمد بن معن الأندلسي، والذي كان من جهته ورث سر المشيخة من عبد الرحمن الفاسي[2].

• التأسيس والإشعاع التربوي للزاوية الفاسية:

لعبت الزاوية الفاسية أدوارا طلائعية ما بين الفترة الممتدة من عام (976هـ/1569م) إلى عام (1036هـ/1626م)؛ حيث وفاة الشيخ عبد الرحمن بن

[1]– مرآة المحاسن، ص: 27–28.

[2]– الحركة العلمية والأدبية عهد المولى إسماعيل، ص: 170.

محمد الفاسي، وفي هذه الفترة نشطت الزاوية الفاسية من الناحيتين الصوفية والعلمية، غير أنه غلب عليها الطابع الصوفي من حيث إقراء كتب التصوف والأوراد والأذكار، والاعتناء بها شرحا وتدريسا، والابتعاد عن المناصب وكل ما فيه رياسة دنيوية، وتوارد على الزاوية شيخان من الزاوية الفاسية، هما: الشيخ يوسف الفاسي، والعارف عبد الرحمن بن محمد الفاسي[1].

أول تأسيس للزاوية الفاسية كان بمدينة القصر الكبير حيث "أسست زاويتان: أولهما زاوية حومة القطانين، وهي الشهيرة بزاوية الشيخ أبي عسرية بن علي بن أبي المحسن الفاسي، وتمثل المركز الأقدم تاريخيا، وتحتل موقعا مجاورا لبيت الأسرة، توسعت بعد وفاة الشيخ علي بن أبي المحاسن، الذي اضطلع بأمورها إلى وفاته سنة (1030هـ)، فزاد ولده محمد أبو عسرية من أهمية الزاوية، وطور نشاطها حتى نسبت إليه.

أما الزاوية الثانية وهي نفس الحي، كائنة مقابل مسجد الشجرة، تعد المركز الصوفي الثاني في القصر الكبير، وهي التي تولى إدارة شؤونها الشيخ المربي أحمد بن الحافظ أحمد بن يوسف الفاسي (ت1094هـ) والذي اشتهر بالخصوص بالعبادة والتربية وإطعام الطعام في زاويته إلى أن توفي"[2].

بمجرد ما حل في فاس الشيخ أبو المحاسن، "سكن بدار في أقصى الدرب الجديد من المخفية من عدوة الأندلس، وكانت أولا في يده على وجه الرهن، ثم اشتراها، ثم توسع فيما حواليها بالشراء حسب الضرورة والتيسير، وكان أولا يسكن في أعلاها، ويجتمع الناس في أسفلها، ثم اشترى دويرة صغيرة تجاورها في جوفها، فصار الناس يجتمعون فيها، وخلصت الأولى للسكنى، والضرورة مع ذلك داعية للتوسعة، فاشترى دارا أخرى تجاور هذه الدويرة في جنوبها، وكانت دارا واسعة رحيبة الساحة،

---

[1]- مرآة المحاسن، ص: 26.

[2]- نفسه، ص: 29.

فانتقل الناس إليها، وأول صلاة صلوا فيها ظهر الاثنين، أول يوم من شهر رمضان سنة 1003هـ، ثم في سنة 1004هـ، شرع في تأسيس المسجد، وما اتصل به في تلك الدار، وأنفق في عمارته جملة وافرة من المال، وتم بناء المسجد بما يحتاج فيه، وبسطت فيه الحصر وعلقت المصابيح وأول صلاة صليت فيه ظهر اليوم المذكور ورتب فيه إمام ولده الإمام أبا العباس أحمد، وجعل في قبلة المسجد محاذيا للمحراب في جهة المشرق الشمالي خزانة وقف فيها جملة من الكتب، ووقف الناس، فاجتمعت فيها جملة صالحة من الكتب، ورتب في المسجد كرسيا لقراءة العمدة، والحديثية تفقها، والرسالة المختصرة وكان ذلك بين المغرب والعشاء، فالحديث ليلتي الخميس والجمعة، والفقه في سائر ليالي الأسبوع. وولي تدريس ذلك شيخنا أبو العباس، ثم بناء صومعة المسجد والزاوية الملاصقة له[1]، و"كانت الزاوية بعيدة عن المخزن والسياسة والفتن التي عرفت بها تلك الفترة إلا لمما"[2].

- **أدوار الزاوية الفاسية:**

تبوأت الزاوية الفاسية مكانة مرموقة في المشهد العلمي والاجتماعي المغربي حيث أسهمت "دروس العلوم المختلفة، وتصدر أبناء الزاوية لمشيخة الجماعة وغيرها، من احتلال المراتب العلمية الكبيرة[3]. وفي ما يلي أهم أدوار الزاوية الفاسية خلال بعض الفترات التي شهدت إشعاعا علميا وثقافيا ظل راسخا في تاريخ الزاوية.

- **فترة مشيخة عبد القادر الفاسي(1091هـ).**

[1]– مرآة المحاسن، ص: 109.

[2]– المرآة، ص: 26.

[3]– نفسه، ص: 26.

عبد القادر الفاسي هو "أبو محمد وأبو السعود سيدي عبد القادر الفاسي ابن الشيخ الفقيه أبي الحسن سيدي علي ابن الشيخ أبي المحاسن سيدي يوسف"[1].

"ولد يوم الاثنين ثاني رمضان سنة 1007هـ، فسكن المدرسة المصباحية"[2] ثم "خرج من فاس بقصد الرجوع لوطنه القصر، فلما ...عن فاس نحو نصف مرحلة خرج عليه وعلى رفقته اللصوص فاستلبوا ما عندهم، فرجع لفاس فقال له عم أبيه شيخه العارف بالله أبو يزيد: هذه إشارة لك يا عبد القادر في استيطان فاس، وعدم الخروج منها، فعمل بتلك الإشارة، وتزوج بفاس وتصدر لبث العلم ونشره، فشاع في المغرب خبره، وتناقل حديثه الركبان، وتنافس في الرواية والأخذ عنه الأئمة الكبار، وأعمل الناس الرحلة إليه من بعيد الأقطار لكثرة الانتفاع بقراءته وسعة عارضته في سائر الفنون"[3]. كان "أهل فاس لهم فيه اعتقاد عظيم ومحبة صادقة من عامتهم وخاصتهم، حتى كان بعضهم يقول: إن سيدي عبد القادر عند أهل فاس كالحسن البصري عند أهل فاس"[4] أخذ عن عم أبيه العارف علوما كثيرة من تفسير وحديث وفقه وعقائد، وبيان ونحو، وأصول ومنطق ولغة وتفسير وتصوف وسائر الفنون، وأخذ أيضا جميع ذلك عن عمه سيدي العربي الفاسي، وأجازه في كل ما تجوز له روايته باللفظ والخط، وأخذ أيضا جميع ذلك عن عمه سيدي العربي الفاسي، وأجازه في كل ما تجوز له روايته باللفظ والخط، وأخذ أيضا الأصول والفقه عن القاضي أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني، والشيخ أبي مالك عبد الواحد بن عاشر، والنحو عن أبي الحسن الزبير، والفقه أيضا عن أبي العباس المقري، وأبي عبد الله الجنان، وغيرهم"[5].

---

[1]- سلوة الأنفاس، 351/1.

[2]- طبقات الحضيكي، 506/2.

[3]- صفوة من انتشر، ص: 310.

[4]- نفسه، ص: 311.

[5]- السلوة، 351/1.

وقيل في حقه: "لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر لكثرة الفتن التي ظهرت فيه، وهم: سيدي محمد بن أبي بكر في ملوية من بلاد فزاز، وسيدي محمد بن ناصر في الصحراء، وسيدي عبد القادر الفاسي بفاس"[1].

"سار على نهج الاعتدال والمحافظة على سنة التبرك والصحبة فكان أسلوبه مرتكزا على تأكيد المؤاخاة مع الحرص على جعل الزاوية مكانا للتفقه والتعلم والتربية"[2]، توفي رحمه الله تعالى "بعد أذان صلاة ظهر يوم الأربعاء ثامن رمضان 1091هـ"[3].

اعتنى الشيخ عبد القادر بتدريس علوم الحديث والمغازي والسير، وذلك بعد أن أهل فاس بطلب علم الفقه والعلوم العقلية، وتركوا علوم الحديث، فاعتنى بها الشيخ عبد القادر حتى أحياها[4].

كان يدرس بالزاوية: التفسير، وكتب الحديث الستة، خصوصا صحيح الإمام البخاري، وصحيح الإمام مسلم، والشمائل للترمذي، والشفا للقاضي عياض، وعيون الأثر في المغازي، والسير لابن سيد الناس، والعقيدة التي ألفها الشيخ عبد القادر الفاسي، والعقيدة الصغرى لسنوني، والحكم لابن عطاء، والإحياء للغزالي، والعهود المحمدية للشعراني، ومختصر خليل، وألفية ابن مالك، والأجرومية وغيرها"[5].

فتواصل الزاوية الفاسية مع الزاوية الدلائية تم منذ عهودها الأولى، "فأبو المحاسن الفاسي هو أحد الشيوخ الأولين في السلسلة التي تصل محمد بن أبي بكر الدلائي بالإمامين أحمد زروق ومحمد بن سليمان الجزولي، وقد تتلمذ الحافظ أحمد بن أبي المحاسن الفاسي على شيخ زاوية الدلاء أبي بكر، وأقام أخوه أبو حامد محمد العربي الفاسي مدة طويلة في الزاوية الدلائية، يدرس الحديث على الشيخ محمد

---

[1]– الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس، ابن عيشون الشراط، ص: 263.

[2]– نشر المثاني، 273/2.

[3]– صفوة من انتشر، ص: 314.

[4]– ثبت الفهارس، 767/2.

[5]– المنح البادية في الأسانيد العالية، لأبي عبد الله محمد الصغير الفاسي، ص: 55.

بن أبي بكر الدلائي، ويلقي دروسا في مختلف العلوم على الطلبة إلى أن تخرج على يده كثير من العلماء الدلائيين، كما شد الرحلة إلى المدينة الإدريسية كثير من أحفاد الشيخ أبي بكر الدلائي، للأخذ عن الإمام عبد القادر الفاسي حفيد الشيخ أبي المحاسن خصوصا في الوقت الذي كانت فاس خاضعة لنفوذ السلطان محمد الحاج الدلائي ومن أشهر المتخرجين على يد الشيخ عبد القادر الفاسي، الطيب بن المسناوي الدلائي مفتي الزاوية البكرية وفقيهها الكبير، وبعد النكبة التي أصابت الدلائيين كثر عدد طلبتهم في زاوية القلقليين بفاس، وكأنهم وجدوها أشبه ما تكون بزاويتهم القديمة[1].

وأما تواصل الزاوية الفاسية مع الزاوية الناصرية فقد كان ضعيفا، من ذلك مثلا قول الشيخ عبد القادر في حق ابن الناصر وأهل زاويته: "فتنا أولئك القوم بالسنة"[2]، فقال ابن ناصر في جوابه: "وهم فاتونا بالأدب، يريد تعاطي فنونه"[3].

وبالنسبة لمد الجسور مع الزاوية العياشية؛ فقد كانت العلاقة بينهما متبادلة، بحيث من الزاوية العياشية من تتلمذ على شيوخ الزاوية الفاسية، كما هو حال أبي سالم العياشي مع الشيخ عبد القادر الفاسي، كما أنه من الزاوية الفاسية من تتلمذ على شيوخ العياشية ومن ذلك أن أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي، وهو ابن عم والد أبي مدين الفاسي أخذ عن أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي.

كان الشيخ عبد القادر في طليعة المبايعين للرشيد، "فعندما طلع علماء فاس وأعيانها وأشرافها إلى فاس الجديد لمبايعته، وكتبوا له البيعة الرسمية، قرئت بين يديه قبل زوال يوم السبت 18 ربيع الأول عام 1077هـ"[4].

أقبل الشيخ عبد القادر وابنيه أبي عبد الله محمد وأبي زيد "على مولانا إسماعيل وراودوه على المبايعة له والانتصاب للإمامة، فأظهر الامتناع، فلم يزالوا معه حتى

---

[1]- الزاوية الدلائية، ص: 63-64.

[2]- ثبت الفهارس، 679/2.

[3]- نفسه، 670/2.

[4]- زهر الأكم، ص: 131-132.

قبل، فانعقدت له البيعة فحضرها أكابر أهل المغرب، ووافق عليها أهل الحل والعقد من العلماء والأشراف، كالشيخ أبي محمد عبد القادر الفاسي، والشيخ أبي علي اليوسي، وأبي عبد الله محمد بن علي الفيلالي، وأبي العباس أحمد بن سعيد المجلدي، وأبي عبد الله محمد بن عبد القادر الفاسي، وأخيه أبي زيد..."[1]. استقبله السلطان في مكناسة سنة 1091هـ، بكثير من مظاهر التعظيم بعدما استدعاه للمجيء، وعندما وصل إلى العاصمة استقبله بروضة الشيخ عبد الرحمن المجذوب، ثم أنزله بداره الجديدة القصبة، وإكراما لوفادته سرح المساجين الذين في طاعته كافة، وبالغ في إظهار الفرح، وقبل عذر الشيخ"[2].

كان "لا تأخذه في الله لومة لائم آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، قوالا للحق يواجه الكبراء والملوك قد أعطي قوة على التلطف في توصيل ذلك وإبلاغه على أجمل صورة حتى تنفعل له النفوس الأبية، وتذعن لسامعها آذان الجبابرة، ولا تستنكف عن الانقياد له الأنوف الشامخة"[3].

يمكن القول، ما أهله للقيام بهذه الوظيفة، وما سمح له باعتلاء هذا الموقع هو تورعه الشديد، وتنزهه عن كل ما من شأنه أن يضعف منزلته عند السلطان أو غيره فلم يكن يقبل العطايا لشخصه، "لما تولى السلطان مولانا الرشيد رحمه الله تعالى وهو حينئذ كبير السن أراد أن يمده بشيء من الدنيا فبلغه ذلك، فقال: قولوا له بشغل نفسي بغيري، فالذي رزقني من المهد إلى أن ابيضت لحيتي هو يرزقني"[4].

وفي هذه السنة أي-1089هـ- جلب الماء لزاوية سيدي عبد الرحمن الفاسي

---

[1]- الجيش العرمرم، 119/1.

[2]- نشر المثاني، 293/2.

[3]- نفسه، 272/2.

[4]- السلوة، 351/1.

التي بالقلقليين، ولك أن تقول زاوية سيدي عبد القادر الفاسي، لأن الزيادة فيها التي زادها مولانا إسماعيل كانت لأجل سيدي عبد القادر وهي من محاربها اليوم إلى محراب صحنها وهو النصف الأيسر للمستقبل مع جميع الصحن والميضة والسقالب والصومعة[1].

وفي سنة 1091هـ، في عشرين من ربيع الأول "شرع في توسيع زاوية عم أبيه العارف بالله سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي الكائنة بحومة القلقليين من فاس القرويين، إذ كان أصلها له فأمر الخليفة مولانا المنصور بالله إسماعيل بن مولانا الشريف الحسني المذكور أن يزاد فيها فاشترى نائب الخليفة المذكور بعض الدور المجاورة لها وهدمت وبنيت على الكيفية التي هي الآن عليها، ومقدار ما يزيد فيها نصف البلاطين الذي من جهة اليسار المستقبل من محرابها والصحن والميضة – ودعوا السقلابيتين على الصيب على المحج والصومعة، ولم تكن لها قبل ذلك[2].

ومن أمثلة حضوره الاجتماعي "عندما انقطع المطر عام 1090هـ، والشيخ عبد القادر في آخر مراحل عمره، خرج رغم وهنه راكبا على حمار جاعلا أبناء الأشراف أمامه للاستفادة من بركته والاستشفاع بجدهم، فنزل عند الرجوع مطر قليل، وفي الغد نزل المطر الغزير الكثير الكافي النافع، فانحطت الأسعار ونزل القمح"[3].

والزاوية الفاسية: تقوم بوظيفتها الاجتماعية التقليدية من إطعام وإيواء واستقبال طلبة العلم، وإقامة المناسبات الدينية وغير ذلك من الأنشطة، إذ توفرت لها حسب ما توحي به أوقافها أصول مادية متنوعة دور وحوانيت وفرن وأراضي خاصة بالحراثة، وبساتين وغابات زيتون، ورحى بوادي الشرفاء بالقلقليين، وثلاثة أرباع رحى بالشرابليين وغيرها"[4].

---

[1]– تاريخ الضعيف، ص: 163. نشر المثاني، 251/2.

[2]– تاريخ الضعيف، ص: 164. نشر المثاني، 294/2.

[3]– الجيش العرمرم، 152/1. تاريخ الضعيف، ص: 63.

[4]– الزاوية الفاسية، ص: 212.

عموما الشيخ عبد القادر في هذه الفترة استطاع أن يدرك ما لم يدركه غيره من معاصريه وحظي بنعوت عالية في الوصف مثل شيخ الإسلام الجماعة واستطاع أن يجعل الزاوية الفاسية محضن التربية الإيمانية الصوفية المنبنية على الرواية، وكذا المعهد العلمي الذي يُكون طلبة العلم في شتى العلوم الشرعية.

• فترة ما بعد الشيخ عبد القادر الفاسي(ت 1091هـ) إلى مشيخة أبي مدين الفاسي(ت 1181هـ).

صحب أبو مدين الفاسي والده وأخذ عنه طريقة إدارتها" عاكفا على التدريس، معظما عنده الخاصة والعامة، إذ حضر في مجلس السلطان لا ينصت إلا له، ولا يسمع إلا منه، مع علو همته"[1].

"كانت شمائل أبيه فيه دائما بادية، ومعارفه اللدنية في طلعته باقية، كأنه الوارث على التحقيق لمقام أبيه من العلم والعرفان، لكثرة ما كان يقتطفه من أزهار ذلك البستان"[2]، "أخذ النحو عن أبيه وأبي العباس الزموري، وأبي الحسن علي الزرهوني، وتلقى الفقه وغيره عن والده، وعن محمد بن عبد الرحمن بن جلال، وأبي العباس الأبار، وأخذ بالإجازة عن عم والده العربي الفاسي، وحج فأجازه الشهرزوري والخرشي والزرقاني وغيرهم"[3].

وفي مسألة تمليك الحراطين والأحرار، كان موقفه الحياد للحفاظ على علاقته الجيدة بالسلطان، حيث "لازم سبع سنين، فسلم من هذه الفتنة، حتى ظن الناس أنه مقعد لا يقدر على القيام، لكنهم فهموا حاله فيما بعد، وطيلة هذه المدة قدم ابنه محمد الطيب للإمامة بالناس بالزاوية الفاسية، وظل يتابع الأحداث من بعيد، ولم يخرج من

---

[1]– صفوة من انتشر، ص: 357.

[2]– عناية أولي المجد، ص: 48.

[3]– سلوة الأنفاس، 359/1.

داره إلا بعد أن مات ولده محمد الطيب، حيث خرج إلى الزاوية، وصلى عليه، ومكث يخرج إلى الصلاة ويرجع إلى داره نحو ثلاث سنين إلى أن مات 1116هـ"[1].

• فترة أبناء وحفدة الشيخ محمد بن عبد القادر زمن المولى إسماعيل:

بعد وفاة محمد بن عبد القادر خلفه على أمر الزاوية بالقلقليين عبد الرحمن ومحمد وأحمد وهم أبناء أخيه وهذا ما أورده القادري في نشر المتاني حيث بين أن الذي "ولي القيام بزاوية عم جده العارف سيدي عبد الرحمن بن محمد الفاسي الكائنة بالقلقليين معتنيا بمصالحها، حريصا على عمارتها، مداوما على الأوقات بها، متفقدا لأحوالها، يدافع عن من آوى عليها من أهل الجناية ومن خاف من جور الولاة"[2] وبعد تولي أمر الزاوية كل من محمد بالفتح بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي المتوفى 1179هـ، وأخيه أبي مدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر الفاسي ت 1181هـ، وما يظهر ذلك الخلاف الذي وقع بينهما في فترة المجاعة حول مسألة بيع القبور حيث "خرج الشيخ أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي مع أولاده وأهله للإقامة في زاويتهم بتطوان، وتوجه ولده محمد أو مدين إلى زاوية سيدي حمزة، لكن أخاه محمد بن أحمد بقي على راس الزاوية، أخذ يبيع القبور وكلما باع قبرا اشترى بثمنه ربعا وجعله وقفا على الزاوية لتوسيع أوقافها"[3] هذا الأمر خلف نقاشا وجدالا بين الأخوين انتهى بتحكيم أبا حفص عمر بن أحمد الفاسي الذي أيد محمد بن أحمد وبعد وفاته رجع عن ذلك أبو مدين الفاسي[4].

أهم ما ميز المرحلة منذ وفاة المولى إسماعيل 1139هـ، إلى ولاية سيدي محمد بن عبد الله 1171هـ، كثرت فيها الاضطرابات والفتن إلا أن الزاوية الفاسية كانت في

---

[1]- نشر المثاني، 152/3.

[2]- نشر المثاني، 91/4.

[3]- نفسه، 166/4-167.

[4]- نفسه، 167/4.

مأمن من الفتن وكان لها دور التوجيه والعناية والحماية فأعلامها وشيوخها تمتعوا باحترام خاص من طرف سلاطين العهد العلوي إذ عين المولى عبد الله بن إسماعيل محمد بن أحمد الفاسي خطيبا وإماما بمسجد الأندلس وعين أخاه أبا مدين–المؤلف– خطيبا وإماما بجامع القرويين، "يخطب ويصلي بهم في الأعياد وكان فقهاء فاس يرون أن الخطبة والصلاة في العيد خارج فاس القرويين يكون التقديم فيها للإمام مسجد القرويين فكان التقديم له في ذلك إلى أن توفي رحمه الله"[1].

• عصر السلطان محمد بن عبد الله.

بويع للمولى السلطان الأعظم البيعة التامة، الصحيحة العامة، حضرها جماعة من أعيان العلماء، مثل قاضي الجماعة بمكناس السيد سعيد العميري، وقاضي الجامعة بفاس السيد عبد القادر بوخريص، وشيخ الجماعة السيد محمد جسوس، والإمام المحقق رافع لواء المنقول والمعقول أبو حفص شيخنا سيدي عمر الفاسي، وابن عمه السيد أبو مدين الفاسي، وهو الذي تولى كتابة العقد بيده "وإن هذا لدليل على كفاءته اللغوية ومكانته العلمية والأدبية وسط علماء زمنه، كانت له وجاهة عند الكبراء وأعيان الدولة ملحوظا من الملوك بعين الوقار"[2]، وكانت علاقة السلطان بالزاوية الفاسية علاقة طيبة "دخل فاس وشرفها بقدومه على حين غفلة من أهلها، فزار مولانا إدريس، وزار سيدي عبد القادر الفاسي، ووصل سائر الشرفاء والعلماء والفقهاء وسائر الطلبة والقراء، بمال فرقه من ارتضاه من ولايته عليهم، ثم جمع علماء فاس واستداعهم لمجلسه الشريف قرب داره، وباحثهم وتذاكر معهم في مسائل من أنواع العلوم وأوصاهم"[3].

---

[1]– نفسه، 181/4.

[2]– عناية أولي المجد، ص: 70.

[3]– تاريخ الضعيف، 302/1.

- **فروع الأسرة الفاسية:**

تتحدر الأسر الفاسية من أربعة فروع رئيسية وهي:

الأسرة الفاسية (أبو بكر بن الجد)[1]

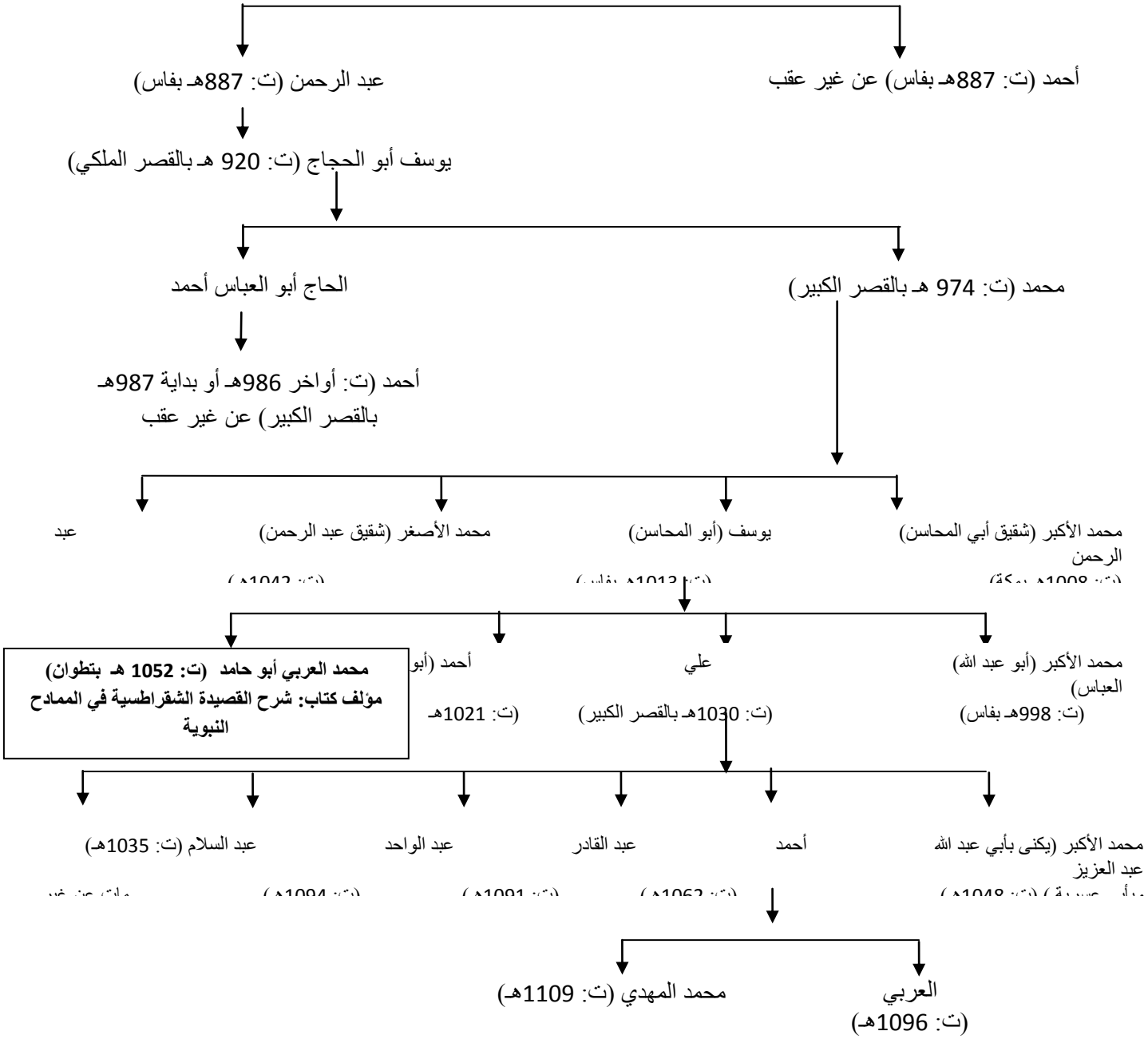

[1]– ينظر الملحق رقم: 2 من كتاب "الزاوية الفاسية التطور والأدوار"، نفيسة الذهبي، يوجد الفهرس بآخر الكتاب بعد الصفحة 365.

الفصل الثانـي

المبحث الأول: التعريف بعبد الله بن يحيى بن علي الشقراطيسي(ت 466هـ).

المبحث الثاني: التعريف بالقصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية.

المبحث الثالث: البناء الفني للبديعية الشقراطسية.

المبحث الأول: التعريف بعبد الله بن يحيى بن علي الشقراطيسي (ت 466هـ)

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

المطلب الثاني: ولادته وتعلمه، ورحلاته العلمية.

المطلب الثالث: وفاته.

المطلب الرابع: شعره (الغزل–الفخر–الرثاء–المديح).

المطلب الخامس: آثاره.

المطلب الأول: اسمه ونسبه[1].

أبو محمد عبد الله بن يحيى بن علي الشقراطيسي[2] التوزري[3] فقيه مالكي، من الشعراء، وإمام في الحديث والفقه.

المطلب الثاني: ولادته وتعلمه، ورحلاته العلمية.

ولد عبد الله بن يحيى الشقراطيسي بمدينة "تَوْزَر" وعلمه أبوه يحيى الشقراطيسي مبادئ العلوم وربّاه فأحسن تربيته ولم يترك أصلا من أصول مكارم الأخلاق والخصال الحميدة إلّا وبذره في قلبه وبثه في نفسه. وحينئذ ترعرع في صدره إيمان راسخ وعلم يُرجى صلاحه وانتشاره وأدب حي. وتعلم الفروسية فأصبح بارعا فيها، إذ جمع بين الأدب والشجاعة والعلم والفصاحة التي قلّت أن تجتمع في شخص واحد.

---

[1]– مصادر الترجمة: فهرسة ابن خير الإشبيلي (ت 575هـ)، ص: 375. – الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ)، 259/6. – نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت 733هـ)، 347/18–359. – نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، شهاب الدين أحمد المقري (ت 1041هـ)، 156/2. – كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، حاجي خليفة (ت 1067هـ)، 73/2. – شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد عمر مخلوف (ت 1360هـ)، 173/1. – الأعلام للزركلي (ت 1396هـ)، 114/4–115. – هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل الباباني البغدادي (ت 1399هـ)، 73/2. – تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، 108/5. – تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، 610/4–614. – معجم أعلام شعراء المدح النبوي، محمد أحمد درنيقة، تقديم ياسين الأيوبي، دار ومكتبة الهلال، ط. 1، د. ت، ص: 211. – أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوزري، سلسلة دراسات أدبية في أعلام النهضة الإفريقية، رابطة التضامن الأدبي، مطبعة الترقي، تونس، ص: 16.

[2]– نسبته إلى شُقْراطس: إسم لحصن كان قديما يعرف بالقرب من مدينة قفصة بالجنوب التونسي. معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت الحموي (ت 626هـ)، دار صادر، ط. 2، 1995م، بيروت، 349/3.

[3]– تَوْزَرُ: مدينة في أقصى إفريقية من نواحي الزاب الكبير من أعمال الجريد، معمورة، بينها وبين نفطة عشرة فراسخ، وأرضها سبخة، بها تحل كثير. قال أبو عبيد البكري (ت 487هـ) في كتاب المسالك والممالك: "أما قسطيلية فإن من بلادها تَوْزَر والحمّة ونفطة، وتَوْزَر هي أمّها، وهي مدينة عليها سور مبني بالحجر والطّوب، ولها جامع محكم البناء...، م. ن، 57/2–58. الحديث عن تَوْزَر بتفصيل في: الرحلة العياشية "ماء الموائد"، أبو سالم العياشي، تقديم وتحقيق: د. خالد سقاط، إشراف: د. عبد السلام الهراس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز –فاس، 1270/4.

إن ناظم القصيدة الشقراطسية اقتدى بوالده في تعلُّمه، فسافر إلى القيروان لطلب العلم وهناك صادف عدد من أكابر العلماء وفطاحل الأدباء فتعلم منهم، وأخذ العلم عنهم، منهم:

- ✓ أبو حفص العطار (ت 428هـ)[1].
- ✓ أبو عمران الفاسي (ت 430هـ)[2].
- ✓ أبو بكر أحمد بن عبد الرحمان الخولاني القيرواني (ت 432هـ)[3].
- ✓ أبو الطيب عبد المنعم الكندي (ت 435هـ)[4].
- ✓ أبو القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري (ت 460هـ)[5].
- ✓ أبو محمد عبد الحق الصقلي (ت 466هـ)[6].

وأقام بها حتى سنة (429هـ)، بعد أن شعر بأنه أكمل تعلمه وشعر بنفسه وافتقارها إلى رؤية الشرق طلبًا للعلم وسعيًا وراء زيادة الإطلاع والخبرة مع أداء فريضة الحج كي يطمئن باله ويرتاح فؤاده.

لا غرو أن جميع الأماني تَنْحني صاغرةً، وجميع الرغبات تُدرك وتُملك أمام

---

[1]– أبو حفص عمر بن محمد التميمي اشتهر بالعطار أخذ عن أبي بكر بن عبد الرحمان وانتفع به، له تعليق على المدونة (ت 428هـ) – معجم الشيوخ (المعجم الكبير، شمس الدين الذهبي (ت 748هـ))، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، ط. 1، 1988هـ، السعودية. ر. ت: 584.

[2]– أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي المعروف بأبي عمران الفاسي ولد بفاس 356هـ، وتوفي بالقيروان (430هـ)، حافظ ومحدث وأصولي مالكي – شجرة النور الزكية، محمد بن محمد مخلوف، م. س، 255/1.

[3]– شيخ فقهاء القيروان. طبقات الفقهاء، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت 476هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ط. 1، 1970م، بيروت، ص: 161.

[4]– أبو الطيب بن محمد بن إبراهيم الكندي، مهندس، فقيه من أهل القيروان، من تآليفه تعليق على المدونة (ط). الأعلام للزركلي، 317/4.

[5]– شيخ المالكية، وخاتم الأئمة بالقيروان، أحد من يضرب بحفظه المثل في الفقه مع الزهد والتأله، له تعليقة على "المدونة" وتخرج به أئمة. سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت 748هـ)، مؤسسة الرسالة، د. ط، 2001م، الطبقة 24، 213/18.

[6]– الإمام الفقيه المالكي أبي محمد عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلي (ت 466هـ)، له كتب منها: "النكت والفروق لمسائل المدونة" (ط)، وكتاب "تهذيب الطالب"، وألف عقيدة، وتخرج به أئمة. م. ن، 302/18.

المغامرة والطموح والعزيمة في طلب شرف، يقول المتنبي: [الوافر]

إذا غـــامَرْتَ فـــي شَـــرَفٍ مَـــرومِ فـــلا تَقْنَـــعْ بمـــا تحـــت النُّجـــومِ[1]

ليس هذا ممّن يتناوله أي كان، وإنّما يتناوله أصحاب العِزِّ مَنْ كانت قلوبهم مَكْمَنا للعزم والعمل والغاية الذين يعدون كل عقبة تعترضهم زيادة دافع يدفعهم نحو إتمام رغباتهم لا يعرفون الكلل ولا يفكرون في الراحة والميول إلى حياة الدفء والنعيم، من ذلك قول المتنبي: [البسيط]

لَـــوْلا المَشَـــقَّةُ ســـادَ النّـــاسُ كلهُـــمُ الجـــودُ يُفْـــقِرُ والإقْـــدامُ قَتَّـــالُ
وَإنَّمـــا يَبْـــلغُ الإنْـــسانُ طاقَتَـــهُ مـــا كـــلُّ ماشـــيّةٍ بالرّحْـــلِ شِـــمْلَالُ[2]

تَتَمَّ أبو محمد عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ) غايته، فقضى حجًا مبرورًا، وتجول في أنحاء المشرق سنة (429هـ)، ولقي أعلامًا روى عنهم، فكان لذلك أثر في تكوين شخصيته العلمية.

لمّا أراد الشقراطيسي الرجوع إلى بلده وهو في طريقه حتى صادف إحدى هجمات جيوش النصارى على مصر، فخاض المعركة مع جيوش المسلمين، قال فيها من قصيدة: [الطويل]

وأســـمر عســـال الكعـــوب ســـقيته نجيـع الطلـى والخيـل تـدمى نحورهـا
وقـــد علـــم الأبطـــال كـــرّي فـــيهم إذا جحـــم الهيـــجاء شـــب سعيـــرها[3]

عاد الشقراطيسي إلى تَوْزَر استقرّ بها، فأفتى ودرّس، ونظم القريض، فتخرّج عنه أعلام سجَّل ذكرهم التاريخ وكُتبوا في صحائف المجد منهم: أبو الفضل يوسف ابن النحوي (ت 513هـ) صاحب قصيدة المنفرجة.

---

[1]– ديوان المتنبي، تحقيق: عبد الوهاب عزام، تنسيق وفهرسة د. الشويحي، د. ط، د. ت، ص: 216.

[2]– ديوان المتنبي، م. س، ص: 230.

[3]– الأعلام، الزركلي، م. س، 144/4–145.

هكذا صرف عبد الله الشقراطيسي حياته للعلم ومن العلم إلى المعارف والأدب قبلة أنظار الطلاب والمدرسين بالجامع الكبير بمدينة تَوْزَر الذي كان يزخر بحلقات الدروس وكبار العلماء مقرًا ومعهدًا للثقافة تأتيه الناس قصدًا لطلب العلم.

المطلب الثالث: وفاته.

توفي –رحمه الله– ليلة الثلاثاء في الثامن من شهر ربيع الأول من عام 466هـ الموافق لـ 1073م، وقبر جثمانه الطاهر جنب والده وقرب الجامع الكبير بتَوْزَر.

"بموته فقد الأدب الإفريقي ركنا من أركانه التي يعلى عليها بناءه وينصب فوقها رأسه عاليًا، فقد العمود الذي يرف فيه علمه الخفاق، فقد عاملا قويًا من عوامله التي تسعى لنجاحه وتقويته وإبرازه في الوجود ذا قيمه وذا تقدير"[1].

ذكر الرحالة العياشي أنه زار قبر الإمام الشقراطيسي وولده عند رجوعه من الحج سنة 1160هـ بالروضة المخصصة لهما في مدينة توزر القديمة، وتطوّف في كامل البلاد الأمر الذي أدّاه إلى الكلام جانبًا عن قسطيلية وأخبارها في رحلته بحثا طويلا "ودخلنا آخر ذلك اليوم إلى المدينة القديمة وهي خالية، وزرنا قبر الإمام الشقراطيسي وولده..."[2].

المطلب الرابع: شعره (الغزل–الفخر–الحماسة–الرثاء–المديح).

إن القارئ لشعر أبي محمد عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ) يذكرنا بالشعر الجاهلي من حيث البنية والتركيبُ، ويظهر ذلك جليًّا في ربط البيت بسابقه، والتزام المعنى بالآخر التزامًا متينًا، الشيء الذي يتولد عنه قوة المعنى ومتانة الأسلوب والبلاغة. إلا أن الشعر الجاهلي يخالفه في أشياء منها: أن الشعرَ الجاهليَّ متولّدٌ عن طبيعة وسليقة عربية حرّة خال من الالتزام والتكلف بعيد عن المحسنات اللفظية، وحتى

---

[1]– أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوزري، م. س، ص: 20.

[2]– الرحلة العياشية ماء الموائد لأبي سالم العياشي، (ت 1091هـ)، تقديم وتحقيق: د. خالد سقاط، إشراف: د. عبد السلام الهرّاس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز–فاس، سنة 1999، 1270/4.

إن وجدت فيه بعض هذه الزخرفة، تظهر كأنها أصل من أصوله لأنها لم تكن ناتجة عن صناعة. قال ابنُ الشباط التَّوْزَري (ت 681هـ): "وله قصائد –أي الشقراطيسي– غرّ منه ما سلك فيه مسلك هذه القصيدة (يعني الشقراطسية) في التجنيس، ومنها ما يسلك فيها مسلك الجزالة –ومنها ما أتى فيها بالمنزع الغريب والمنحى البعيد القريب من طريق الإعراب في رقة الغزل والنسيب..."[1].

إن شعر عبد الله الشقراطيسي يُعد في طليعة الأدب الإفريقي، لأن العصر الذي عاش فيه لازال الأدب في بدايته، وأكثر ما تظهر فيه قوّته ومقدرته من حيث اللغة الشعرية هي قصيدته المشهورة "الشقراطسية في مدح خير البرية" التي أشرقت، وأغربت، وانتشر صيتها، فكانت رمزًا مثاليًا وأنموذجًا للأدب في عصره.

✷ الغـزل:

إن فن الغزل من أهم الفنون وأبرز الموضوعات وأعلقها بالقلب وأقربها إلى طبيعة الإنسان، وقد لقى الغزل عناية كبيرة من الشعراء، سجلوا فيه عواطفهم وخواطرهم، تناولوا المرأة فذكروا محاسنها وصفاتها وسحرها، وما يفعل فيهم من الشوق والحنين. يقول ابن رشيق (ت 463هـ): "الغزل هو ألف النساء والتخلق بما يوافقهن"[2].

إن سلوك أبا محمد عبد الله الشقراطيسي في شعره هو كما قال ابن الشباط: "على طريق منهج الإعراب في الرِّقّة واللطافة يتغنى بمحبوبته ليلى ويشكو فرقها ويصفها بالبدر المتجلي في سمائه، ويتحدث عن الوجد الذي شفّ نفسه وأبلى جسمه حتى كاد بأنفاس الضنى يستثيرها، يودّ ويبحث عن شيء يرضيها ويسعدها، ولو كلّفه الأمر ما كلّفه، ولا يعد شيئًا من هذه الأشياء يستقره أو يهلكه ما دام في حبّها متفانيا،

---

[1]– نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت 733هـ)، م. س، 350/18–351.

[2]– العمدة في صناعة الشعر ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت 463هـ)، تحقيق: النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، ط. 1، 2000م، 117/2.

وإنما أعظم شيء يشكو منه في الحبِّ هو وجود نفسه عبدًا لغيره، يعني لليلى، مع أنه أمير على نفسه"[1]. وممّا قاله في صباه، في ليلاه: [الطويل]

أتـــى بـــالنوى مـــن ءال ليلـــى نـــذيرها وســـارت بأحـــداج الظعائـــن عيرهـــا
جـــز عـــن شـــرورًا والســـجاف منوطـــة وجـــاوزن حـــزوى فاســـتهلت بـــدورها[2]

قال ابن الشباط: "وأول ما فرغ سمعي؛ افتتاح هاته القصيدة، حَسِبْتُ أنها من قصيدة توبة بن الحُمَيِّر الخفاجي[3] (ت 704م)، التي يقول فيها: [الطويل]

وكنـــت إذا مـــا زرت ليلـــى تبرقَعَـــتْ فـــقد رآنـــي مـــنها الغـــدَاةَ سُـــفورُها[4]

وهو ليدل على مقدرة كافية للمعارضة وعلى قوة عارضة، وميول عاطفي حسَّاسٍ. وفيها: [الطويل]

حـــلفتُ لهـــم بـــالله جـــد أليـــة وربّـــي عـــلام الغـــيوب خـــبيرها
لقـــد شـــف نفســـي وَجْـــدُها ووُلوعُهـــا وواصَـــل جســـمي سَـــقَمُـــها وفتورهـــا
وهـــل غـــادرت الإصـــبابة أعظـــم أكـــادُ بأنفـــاسِ الضـــنى أسْـــتَثيرها
ونفسًـــا شـــعاعًا مـــن يـــدي تســـاقطتْ ولـــم يـــبق إلا جهـــدها وزفـــيرها
أُصـــادِرها عـــن سُـــلوة كـــي أرِيحَهـــا فيَبْعُـــدُ نجواهـــا ويـــأبى ضَـــميرها
وأغـرب مـا أشـكو مـن الحـب أننـي أمـيرٌ علـى نفسـي وغيـرى أميرهـا[5]

يظهر في البيت الأخير قوة وعظمة وعزة عبد الله الشقراطيسي التي انطبعت بها شخصيته، والتي سكنت قلبَه، حتى أصبح يرى أمارة غيره عليه عارًا لأي كان حتى

---

[1]– أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوزري، م. س، ص: 24.

[2]– م. ن، ص. ن.

[3]– شاعر عربي، اشتهر بعشقه لإبنة عمّه "ليلى الأخيلية"، طلبها من والدها فرفض لاشتهار حبّهما، وحبيبته ليلى كانت شاعرة، بل لم يتقدم عليها من شاعرات العرب سوى الخنساء.الأعلام، الزركلي، م. س، 89/2.

[4]– ديوان توبة بن الحُمَيِّر الخفاجي (ت 704م)، تحقيق وشرح: صلاح الدين الهادي، دار المعارف، د. ط، د. ت، مصر، 234/1.

[5]– أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوزري، م. س، ص: 25.

لمحبوبته، ومن شأن المُحِبِّ أن يخضع لمحبوبته. يقول سلطان العاشقين ابن الفارض (ت 632 هـ): [الطويل]

تَـذَلّلْ لِمَـنْ تَهـوى فلَـيْسَ الهَـوى سَـهْلُ ففــي حبِّــه يحلــو التَّهَتّــكُ والــذلُّ[1]

من شعر الشقراطيسي الغزلي كذلك، ما قاله في قصيدته الفائية؛ وهي محشُوَّة بأنواع البديع حيث صرف فيها اللفظ أحسن تصريف، أولها: [الطويل]

ظبي البيد ترنو أم ظبي البيض ترهف أم السحر من أطراف طرفك يطرف
وأطـراف نُـبلٍ قـد تطـرفن مـن دمـي تــراءت لــطرفي أم بيــان مطــرف
فلمَّــا ترعــني قلبهــا ريــم رمــلة لهـا قضْـبٌ خَـدْلٌ وكَشْـحٌ مُهَفْهَـفُ

إلى أن يقول:

متــى بالمــنايا الحُمْـرِ يَرْتَـارُ وَرْدُهـا ووردٌ بِتَوْريــدِ الرَّدينــي يقطــف[2]

✷ الفخــر:

أما الفخر فهو التغنّي بالفضائل والمثل العليا، والتباهي بالسجايا النفسية والصفات القومية، والزهو بالفعال الطيبة، وألذ أحاديث المرء عنده هو حديثه عن نفسه وخصاله وفعاله، من الشجاعة، والكرم، والمروءة، وحماية الجار، وطيب المنبت، وعراقة الأصل، وكثرة المال والولد، إلى غير ذلك ممّا يزهو به الإنسان ويختال به على غيره.

يكره الناس الحديث عن النفس والتباهي بالخصال ويعدونه غرورًا وادعاءً،

---

[1]– شرح ديوان ابن الفارض، بدر الدين حسن البوريني، عبد الغني النابلسي، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، ط. 1، 2003م، بيروت، 171/2.

[2]– أعلام الأفارقة، الهادي مصطفى التوزري، م. س، ص: 26.

إلا في الشعر، فإنه مقبول مُستساغ. أشار إلى ذلك ابن رشيق (ت 463هـ) في كتابه العمدة بقوله: "ليس لأحد من الناس أن يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة، إلا أن يكون شاعرًا، فإن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه"[1].

والفخر إنّما يحسن إذا كان الشاعر يمتدح بالفضائل النفسية والخصال الخُلقية بعيدًا عن التباهي بالأمور المادية والقوة الجسدية أو التفاخر بالأنساب.

كذا الحال بالنسبة للشاعر عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ) الذي يحدّثنا عن نفسيته الكريمة وخلقه الطيب في الحين الذي يشكو فيه من الزمان ويتبرم من أهاليه وبعض أناسه بعيد عن السخط والشرور حيث يظهر تبرمه وسخطه كأنه عتاب خفيف، وهذا ممّا يدل على حنكته واتساع دائرته الذهنية وانبساط خلقِه الحسن. ويقول الشاعر الشقراطيسي: [الطويل]

لإن كنت في أرض طوتني على شحبي ... له في خفى وعيي جوى يتضعّف
فلي في محلّ النجم أذيال همة ... لها بين أثناء الخطوب تجعرف
ولي عزمة أربًا بها دار غربة ... لبزل المهاري مونها متعسف
فبين بلاد الله للحر مشرع ... وفي كل أرض للفتى متصرف[2]

يقول مصطفى الهادي التَّوْزَرِيِّ في كتابه أعلام الأفارقة: "هنا يتساءل القارئ النبيل، فيقول: وكيف يشكو من أهله وذويه مع أنه قد قلتم أنه محفوف بعناية ومحبّة عند معاصريه؟"[3].

إن كل إنسان مهما بلغت رتبته ومهما ارتفع شأنه لابد أن يكون له أعداء وخصوم، والسبب؛ الحسد الذي ملك قلوب الناس فتركهم يتلظون حميمًا في قلوبهم. "ومهما بلغ عبد الله الشقراطيسي من خلق وحسن نية ومعاملة، وحتى إن أراد أن يكوِّن

---

[1]– العمدة، ابن رشيق (ت 463هـ)، م. س، 25/1.

[2]– أعلام الأفارقة، م. س، ص: 27.

[3]– م. ن، ص. ن.

معهم صداقة –على حدّ قول مصطفى التوزريِّ– فإنها تستحيل"[1]، ولله دَرُّ الشاعر المتنبي (ت 354هـ) إذ يقول: [الطويل]

ولا تطمَعَنْ مـن حاسِـدٍ فـي مـودَّةٍ وإن كُـنْتَ تُبْـديها لَـهُ وتُنيـلُ
وإنّـا لَنَلْقـى الحَادِثَـات بأنْفُـسٍ كـثيرُ الرّزايـا عنـدهُنّ قلـيلُ
يهـونُ علينـا أن تصـابَ جُسومُنـا وتَسْـلَمَ أعـراضٌ لنـا وعُقـولُ[2]

إنّ أبا محمد عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ) كثيرًا ما يصف نفسه بالشجاعة والإقدام خصوصًا عند تزاحم الجيوش وسط المعارك، وهو ما أشرت إليه سابقا عند التعريف بشاعرنا، لمّا أراد الرجوع إلى بلده تَوْزَر، وهو في طريقه خاض معركة الفرنج بمصر بقلب يملؤه الشجاعة، ونفس تملؤها العزم بدون تردد ولا ثوانٍ، فما راعه إلا همز فرسه الأسمر وسط احتدام الوطيس حيث تدور رحى الحرب، وهو يقول: [الطويل]

فَلَمّـا تجلّـي الفجـر مـن طـرَّةِ الـدُّجى وَوَلَّـتْ بِأعْـجازِ الـنُّجومِ صُدورُهـا
تَـيَمَّمْتُ أسْـوامَ الميّـاهِ ودونهـا مَجَـاثِمُ آجـال الفـضا وَوُكورُهـا
بـقلبٍ رَبـيطِ الجَـأش مُتَّسـع الحَشـا على الهَوْل مَجْموعُ الحصاة وُقورُها
وأسـمَرُ عِسـالِ الكُعُـوبِ سَقَيْتُـه نَجيـعُ الطُّلـى والخـيل تُـدْمى نُحورُها
وقـد عَلِـم الأبطَـال كَـرّي فـيهم إذا جـاحَم الهَيْجـاءُ شَـبَّ سَـعيرُها[3]

✷ الرثـاء:

الرثاء من الفنون التي جود فيها الشعراء، لأنه تعبير عن خلجات قلب حزين، وفيه لوعة صادقة وحسرات حرى، ولذلك فهو من الموضوعات القريبة إلى النفس، لأن الرثاء الصادق تعبير مباشر قلّما تشوبُه الصنعة أو التكلف. وهو ينقسم إلى ثلاثة أنواع أو أساليب، فمنه[1]:

[1]– أعلام الأفارقة، م. س، ص: 27.
[2]– ديوان المتنبي، م. س، ص: 348.
[3]– الأعلام، الزركلي، م. س، 144/4–145.

1- بكاء ونواح وعويل على الميت بألفاظ حزينة مؤلمة تستمطر الدموع من العيون، ويعرف هذا الضرب من الشعر الذي يقال في هذه المناحات بـ (الندب).

جاء الإسلام فنهى عن كل هذه الأفعال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية"[2]، وقال: "إن رسول الله بريء من الصالقة والحالقة والشاقة"[3].

2- ضرب آخر من الرثاء كان يتخذ شكل الثناء على الميت -أو قد يكون حيًّا أيضًا- وذكر فضائله وتعداد محامده، ويكون ذلك عند زيارتهم للقبور، أو اجتماعهم في مجلس يعقد لذكرى الفقيد، وسمي ذلك (التأبين).

3- ضرب ثالث من الرثاء يتجه إلى التفكر في رحلة الحياة ومصير الناس وحتمية الأقدار ونزول البلاء، وضعف الإنسان أمام نوازل الدهر، ومصائب الزمان، فيلتمس في كل ذلك السلوة والصبر والرضا بما نزل به والاستسلام للقدر، ويعرف هذا الضرب بـ(العزاء).

إن المتصفّح لشعر الرثاء عند أبي محمد عبد الله الشقراطيسي، يلحظ ضعفًا يكاد أن يكون من الكلام المبتذل -كما أشار إلى ذلك مصطفى الهادي التَّوْزَرِي في كتابه أعلام الأفارقة، بقوله: "الرثاء في شعر عبد الله قليل جدًا... فلم تكن فيه روح شعورية حساسة حيّة، ولم يتأثر به صاحبه إذا سمعه، أو قرأه، وما يلمس منه غير أنه يحكي عن الفقيد كيف كان، ويأسف أسفا عاديًا ويشكو خطوب الزمان شكوى تتمازجها كبرياء يمازجها حزن، وإذا تأمل المبصر، وهو لا يعلم نفسية الشاعر ظن أنه قليل

---

[1]- الرثاء، شوقي ضيف (ت 1426هـ)، دار المعارف، ط. 4، 1987م، مصر، ص: 5-6.

[2]- صحيح البخاري، 322/2.

[3]- م. ن، 335/2.

الاهتمام بالفقيد... أو أن الرثاء ناتج عن تكلف وعدم رغبة فيه ولربّما يكون مجبرًا أن يقوله..."[1].

الظاهر –حسب تعبير الهادي التَّوْزَرِي– "أن الشاعر الشقراطيسي بعيد عن هذه الأسباب كلّها، بعيد عن الأوهام، والأباطيل الكاذبة لما علمنا من نفسه الكريمة العالية. والأمر الأساسي الذي جعل شعره الرثائي ضعيفًا هو؛ إما من شدّة الحزن والألم لكثرة حبّه لفقيده، حتى ضعفت قواه العقلية، ومداركه الذهنية، فأثر هذا في شعره، فأكسبه الضعف، أو لأن انتشار محاسن مرثية مذاعة مصغية عند جميع الناس، جعلته كأنه يقول السماء فوقنا فما بَقِيَ له إلّا أن يعبِّر عن أسفه وحزنه لفقده، ويشكو نوائب الدهر... نضيف إلى ذلك همته العظيمة، وأنفته"[2]، ليتأمل قصيده وهو يرثي شيخه الفقيه أبا الطيب عبد المنعم بن محمد الكندي[3] (ت 435هـ) إذ يقول: [الطويل]

بـــأي ســـِلاح والحَـــمام مُحـــارِب ... أطـاعِن فـي نَحـر الـرَّدى وأُضـارِبُ
سَـلوني عـن الأَرْزاء[4] إنـي شَقيقهـا ... وَعِـنْدِي مِـنْ أخبارِهِـنَّ غرائـبُ
أَطافَـتْ بـي الأَرْزَاءُ مِـنْ كـلِّ جانـبٍ ... كـأنِّي فـي القُرْبـى أخوهـا المُناسِـبُ
وفَوَّقَـتِ الدنـيا إلـيَّ خُطوبـها ... فَفِـي كَبِـدي منهـا سِـهام صَـوَائِبُ[5]

ومنها: [الطويل]

تَتَـبَّعتُ أطمـاعي وهُـنّ خواتـل ... وصَـدَّقْتُ أمـالي وهـنّ كـواذبُ
وقلـتُ لـعبد المنـعمِ ابـنِ محمـد ... تنـال جسـيمات وتقضـي مـآربُ
ولـبَيكَ مـصاب الأشـعري ويومـه ... وتنـدب فَـقْدَ الألمعـي النـوادبُ

---

[1]– أعلام الأفارقة، م. س، ص: 29.

[2]– أعلام الأفارقة، م. س، ص: 29.

[3]– سبقت ترجمته –الحديث عن شيوخه–.

[4]– الأرْزاءُ: جمع الرُّزْءِ. والرُّزْءُ والرَّزِيَّةُ: المُصيبَةُ. مختصر العين، أبو بكر محمد الزُّبَيْدِي الأندلسي (ت 379هـ)، تقديم وتحقيق: نور حامد الشاذلي، عالم الكتب، ط. 1، 1996م، 260/2، مادة: رزأ.

[5]– أعلام الأفارقة، م. س، ص: 30.

ومنها: [الطويل]

وَيَبْــكِ لِشَجْــوِ كــلِّ إنْــسٍ وَتَنْبَــري لِعِلْــمِ أَبُقْــراط[1] الــدموع الســواكبُ
فَمِــنْ للمُوطَّــأِ والبخــاري بعــده إذا ســبرت منهــا الرّجــال القرائــبُ
ومِــنْ لأصــول الفقــه يــنظم سلكهــا إذا أشكلــت أعــجازها والــقواربُ
ومِــنْ لعــباراتِ الغَــوامِضِ بَعْــده إذا سَيَّب منهــا مــا تُجَــنُّ الغياهِــبُ[2]

بِفَقْدِ شيخه –السالف الذكر– فقَد الشقراطيسي علمًا من الأعلام الشامخة، بفقدِه؛ كأن العدوّ هاجمه فجأة فلم يجد لهُ قوّةً لمواجهته ومحاربته.

✷ المديح:

إن المتصفح للمصادر والمراجع التي ذكرت عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ)؛ ليجد في شعره "المديح" سوى قصيدته المسماة باسمه: "الشقراطسية في الممادح النبوية"، كذا ذكرها شارحها: "محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) في شرحه. يبلغ عدد أبياتها 133 بيتًا بتحقيق عبد الله كنون و134 بيتاً كما وردت في شرح محمد العربي الفاسي على الشقراطسية. أنشدها صاحبها عام حجّه بقبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنوّرة. مطلعها: [البسيط]

الــحَمْدُ للهِ مِنّــا باعِــثِ الرُّسُــل هَــدى بــأَحْمَدَ مِــنَّا أَحْمَــدَ السُّــبُل
خَيْــرُ البَرِيَّــة مــن بَــدْوٍ ومــن حَضَــرٍ وَأَكْــرَمُ الْخَلْــقِ مِــنْ حــافٍ ومُنْتَعِــل[3]

قال مصطفى التَّوْزَريّ: "إنها لقصيدة أبدية على ممر الزمان والشيء الأعظم الذي امتازت به هو إنما تعد الأولى من نوعها في مدح الرسول صلوات الله عليه وقد

---

[1]– أبُقراط: أبو الطِّبِّ وأعظم أطباء عصره، أول مدوِّن لكتب الطبّ: (ت 370 قبل الميلاد باليونان).
- Dictionnaire des philosophes antiques vb, plotina à rutilius rufus, richard goulet, centre national de la recherche scientifique, 01/03/2012. P:

[2]– أعلام الأفارقة، م. س، ص: 31.

[3]– شرح القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية، محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ). موضوع الأطروحة: التقديم والتحقيق.

ضمنها معجزاته وأعماله وحكى فيها صراع الباطل والحق وانتصار الصواب إن الباطل كان زهوقا ضمنها تسابيحه الصادرة عن نفس متفانية في الحب السردمي والنور القدسي فأصبحت حديث النوادي وكلام المعجبين وذكر القانتين التائبين العابدين. واشتغل بها الأدباء والشعراء فشطروها وخمسوها وعشروها ووشحوها –كما سيأتي توضيحه لاحقًا في المبحث الثاني من هذا الفصل– ينشدونها في غالب الأحيان ويتغنون بها فتلبيها الآذان وتنشرح لها الألباب –وجاراها كثير من الشعراء فنظموا قصائد في بحرها ومعناها ولازالت إلى يومنا هذا محل الإعجاب والتقدير– ومن ذلك الشاعر المديحي البوصيري الذي نسج على منوالها بحرا ومعنى ولم يخالفها في شيء عدى تغيير بسيط في اللفظ والقافية. ففضل البوصيري في بردته هو راجع في حقيقة الأمر إلى عبد الله الشقراطيسي –وسنذكر هذا مفصلًا– واضع هذا الباب ومبتكر هذه الطريقة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا مما يدل على مكانة الشقراطسية وعظمتها وأثرها على ممر الزمان إذ البوصيري نحى نحوها بعد مضي قرنين وكلما زادت حينا زادت انتشارا وغيره وغيره ممّن جاراها"[1].

المطلب الخامس: آثاره[2]:

من المصنفات التي تم التوصل إليها من مصادر ترجمة الشقراطيسي، وهي كالآتي:

- "مجموعة الأسئلة الفقهية".
- "أرجوزة في مناسك الحج".
- "سجل" صنفه لأولاده، أوضح فيه أصله وتاريخه، وذكر في آخره الشيوخ الذين تلقى عنهم العلم وهم 72 شيخا.
- له تعليق على مسائل من (المدونة)[3].

---

[1]– أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 32–33.

[2]– مصادر الترجمة السالفة الذكر.

[3]– هي اجل الكتب المالكية، ومن مصادر المذهب المالكي الأساسية، نظر غليها وصححها أبو عبد الله، عبد الرحمن بن القاسم المتوفي بمصر عام 191هـ (أعلم الأصحاب بعلم مالك، وآمنهم عليه) – الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي، ج: 1، ص: 32.

- "فضائل الصحابة".
- "الإعلام بمعجزات النبي عليه السلام".
- قصيدته الفريدة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم على قبره الكريم.

وتعد الشقراطسية في مدح خير البرية أهم القصائد بين المدائح النبوية فهي أولا قصيدة فريدة في معانيها وبلاغتها اللغوية، وهي مصدر الوحي لكثير من القصائد التي أنشئت بعدها.

هكذا سجل أدباء الغرب الإسلامي إسهامتهم في الثقافة العربية الإسلامية، إبداعا واكتشافا ونقدا، وإن ظلوا مغمورين نسبيا.

المبحث الثاني: التعريف بالقصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية

المطلب الأول: نص القصيدة الشقراطسية (تحقيق الأستاذ عبد الله كنون).

المطلب الثاني: المديح النبوي وتطوره في المشرق والغرب الإسلامي.

المطلب الثالث: تاريخ حول القصيدة الشقراطسية.

المطلب الرابع: القصيدة الشقراطسية وأثرها في قصائد المديح بعدها.

المطلب الأول: نص القصيدة الشقراطسية (تحقيق الأستاذ عبد الله كنون):

– القصيدة من بحر البسيط قام الأستاذ عبد الله كنون بتحقيقها، ولكن النسخة في صيغتها المنشورة بالطبعة المعتمدة عندي فيها اختلاف بيِّنٌ في إزالة عجمة بعض الكلمات مما أوقع في اختلالات عروضية ونحوية ولغوية، ينظر بعضها في مواضعها من هوامش التحقيق.

اعتمد في مقابلة نصها على نسخ هي:

- نسخة في حوزته رمزها (خ).
- نسخة رحلة بن عمار، مطبوعة في الجزائر سنة 1904 رمزها (ع).
- نسخة رحلة العبدري بتحقيق محمد الفاسي مطبوعة بالرباط سنة 1968 رمزها (ر).
- نسخة كتاب الجديد في أدب الجريد لحمد البختري التونسي مطبوع سنة 1973 رمزها (ج).
- نسخة كتاب نهاية الأرب للنويري، طبع بمصر سنة 1954 م رمزها (ن).
- نسخة كتاب المنهاج الواضح في تحقيق كرامات محمد صالح لأحمد بن ابراهيم الماجري مطبوع بمصر سنة 1933م رمزها (م)

ملاحظة: تم الاحتفاظ بنص القصيدة وهوامشها كما وردت بمجلة المناهل، تحقيق عبد الله كنون، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، العدد 18، السنة السابعة، يوليو 1980، ص: 15 وما بعدها.

المطلب الثاني: المديح النبوي وتطوره:

يقول د. عباس الجراري: " إن الدارسين ظهروا مختلفين، على قلتهم وقلة اهتمامهم بموضوع المديح النبوي. بعضهم ذهب إلى أن فن المدائح النبوية نشأ في ركاب الدعوة الإسلامية، والرسول عليه السلام ينشر الدين ويجاهد في نشره. وعند هؤلاء أن القصائد التي أنشأها حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة في مواجهة الكفار والمشركين، وفي الدفاع عن الإسلام وصاحب الرسالة، تعد في صميم هذا الفن .

وذهب باحثون آخرون إلى أن مديح الرسول صلوات الله عليه فن مستحدث في القرن السابع الهجري على يد شعراء مصريين في طليعتهم البوصيري، وابن دقيق العيد"[1].

وقد ناقش الأستاذ عباس الجراري الطرحين معاً موفقاً بينهما ، وقدّم رأيه في الموضوع، وهو رأي يحتملهما معاً. يقول: " في اعتقادنا أن ما قاله شعراء الرسول يمكن أن يعد إرهاصاً لفن جديد في الأدب العربي طارئ مع الإسلام هو مديح الرسول"[2]. وسيأتي قبوله للطرح الثاني فيما يأتي من التحليل.

أ- المديح النبوي وتطوره بين المشرق والغرب الإسلامي:

بعد الهجرة النبوية الشريفة انبرى كثير من الشعراء المسلمين يدافعون عن الإسلام والمسلمين، ونبيهم الكريم ضد الكفار، ومن هؤلاء: حسّان بن ثابت (ت 54هـ)، الذي اتخذه الرسول شاعرَه المنافح عن جماعة المسلمين بإزاء شعراء قريش، ويكفيه فخرا أن الرسول دعا له فقال: "اللهم أيّده بروح القدس"[3].

ومن أُولى قصائده في ذلك همزيتُه التي يهجو فيها أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهو ابن عم الرسول، حين قال الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان ابن ثابت: "اهجهم، وجبريل معك"[4]. فهجاهم، وأظهر محاسن الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال حسّان:

---

[1] – الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، د. عباس الجراري، مطبعة المعارف الجديدة، د.ط، 1979، الرباط، 141/1.

[2] – م.ن، 142/1.

[3]– المعجم الأوسط للطبراني (ت 360هـ)، من طريق براء بن عازب، ح. ر: 684 –باب الألف– مَنِ اسْمُهُ أَحْمَدُ.

[4]– صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل حسّان بن ثابت، ح. ر: 4548.

هَجَـــوْتَ مُحَمَّـــدًا وَأَجَبْـــتَ عَنْـــهُ وَعِنْـــدَ اللهِ فِـــي ذَاكَ الجَـــزَاءُ
أَتَـهْجُـــوهُ ولَسْـــتَ لَـــهُ بِكُفْـــوٍ فَشَرُّكُـــمَا لِخَيْرِكُمَـــا الْفِـــدَاءُ
هَجَـــوْتَ مُـــبَارَكًا بَـــرًّا حَنِيفًـــا أَمِيـــنَ اللهِ شِـــيمَتُهُ الْوَفَـــاءُ
أَمَـــنْ يَهْجُـــو رَسُـــولَ اللهِ مِنْهُـــمْ وَيَمْدَحُـــهُ وَيَنْصُـــرُهُ سَـــوَاءُ؟[1]

ومدحه صلى الله عليه وسلم حتى من أسرته الشريفة، فها هو عمه أبو طالب يمدحه بقوله:

وَأَبْـيَضَ يُسْتَسْـقَى الغَمَـامُ بِوَجْهِـهِ ثِمَـالُ اليَتَـامى عِـصْمَةٌ لِلْأَرَامِـلِ
يَـلُوذُ بِـهِ الـهُلاَّكُ مِـنْ آل هَـاشِمٍ فَهُـمْ عِنْـدَهُ فِـي رَحْمَـةٍ وَفَوَاضِـلِ[2]

وفي أخرى يشيد بفضائله قائلا:

فَـإِنْ حَصَـلْتَ أَشَـرَافُ عَبْـدِ مَنَافِهَـا ففِـي هَاشِـمٍ أَشْـرَافُهَا وقَدِيمُـهَا
وَإِنْ فَخَـرْتَ يَوْمًـا فَـإِنّ مُحَمّـدًا هُوَ الْمُصْطَفَى مِنْ سِرِّهَا وَكَرِيمِهَا[3]

وكذلك عَمّه العباس بقوله له: أريد أن أمتَدِحَكَ، فقال صلى الله عليه وسلم: "قُلْ لا يُفْضِضِ اللهُ فَاكَ"[4].

مِـنْ قَـبْلِهَا فِـي الظِّـلاَلِ وَفِـي مُسْـتَوْدَعٍ حَيْـثُ يُخْصَـفُ الْـوَرَقُ
كَـمْ هَـبَطْتَ الْـبِلاَدَ لاَ بَشَـرٌ أَنْـتَ وَلاَ مُضْـغَةٌ وَلاَ عَلَـقُ
بَـلْ نُـطْفَةٌ تَرْكَـبُ السَّـفِينَ وَقَـدْ أَلْجَـمَ نِسْـرًا وأَهْلَـهُ الْـغَرَقُ
تُنْـقَلُ مِـنْ صَـالب إِلَـى رَحِـمٍ إِذَا مَضَـى عَالَـمٌ بَـدَا طَبَـقُ
حَتَّـى احْتَـوَى بَيْتُـكَ الْمُهَـيْمِنُ مِـنْ حَـتْدَقِ عَلْيَـاءَ تَـحْتَهَا النُّطُـقُ
وَأَنْـتَ لَمَّـا وُلِـدْتَ أَشْرَقَـتِ الأَ رْضُ وَضَـاءَتْ بِنُـورِكَ الأُفُـقُ

---

[1]– ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق: عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، د. ط، 1980م، ص: 64.

[2]– سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، دار الكتب العلمية، ط. 2، 1955م، 282/1.

[3]– م. ن، 286/1.

[4]– أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، ط. 2، د. ت، القاهرة 213/4، ح. ر: 4167. وينظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الريان للتراث، د. ط، 1407هـ القاهرة، 217/8.

فَنَـــحْنُ فِـــي ذَلِـــكَ الضِّـــيَاءُ وَفِـــي الـــنُّورِ وَسُـــبُلِ الرَّشَـــادِ نَخْتَـــرِقُ[1]

وليس بوسعنا، ونحن بصدد الحديث عن مادحي الرسول صلى الله عليه وسلم، أن نُهمل أمر شاعر كبير، وهو الأعشى ميمون بن قيس، وهو من فحول شعراء الجاهلية، وجعله ابنُ سلام في الطبقة الأولى من الشعراء[2].

وقد نعتبر من الإرهاصات كذلك لهذا الفن القصيدة التي قالها هذا الشاعر يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم[3]، وإن لم تتضمن شروط المديح النبوي كلها[4]، والتي مطلعها: (الطويل)

فَنَـــحْنُ فِـــي ذَلِـــكَ الضِّـــيَاءُ وَفِـــي الـــنُّورِ وَسُـــبُلِ الرَّشَـــادِ نَخْتَـــرِقُ[5]

أَلَـــمْ تَغْـــتَمِضْ عَيْنَـــاكَ لَيْلَـــةَ أَرْمَـــدَا وَبِـــت كَمَـــا بَـــاتَ السَّـــلِيمُ مُسَـــهَّدا

وفيها يقول:

وآلَيْـــتُ لاَ أَرثِـــي لَهَـــا مِـــنْ كَلاَلَـــةٍ وَلاَ مِـــنْ حَفًـــى حتّـــى تُلاَقِـــي مُحمَّـــدًا

نَبِـــيٌّ يَـــرى مَـــا لاَ تَـــرَوْنَ وَذِكْـــرُهُ أَغَـــارَ لَعَمْـــرِي فِـــي الـــبِلادِ وأَنْجَـــدَا

لَـــه صدقـــاتٌ مَـــا تُغِـــبُّ وَنَائِـــلٌ وَلَـــيْسَ عَطَـــاءُ الْيَـــوْمِ مَانِعَـــهُ غَـــدَا

أَجِـــدَّكَ لَـــمْ تَسْـــمَعَ وَصَـــاةَ مُحَمَّـــدٍ نَبِـــيِّ الإِلَـــهِ حِـــينَ أَوْصَـــى وَأَشْـــهَدَا[6]

إلى آخر الأبيات التي يشتم منها النفس الإسلامي. ويذكر ابن هشام في سيرته[7]: أن الأعشى خرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الإسلام، لكن تأخر عن ذلك في قصة مشهورة لا يسمح المجال بعرضها.

بقي المديح النبوي مستمراً في العصر الأموي، وشمل آل البيت، وبعض

---

[1]– ينظر الأبيات الشعرية في المصدرين السابقين، ص. ن.

[2]– تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، شوقي ضيف، ط. 4، 1960م، القاهرة، ص: 333–365. وينظر رأي د. عباس الجراري في الأعشى حيث اعتبره من طائفة شعراء الرسول في كتابه: "من أدب الدعوة الإسلامية"، د. عباس الجراري، دار الثقافة، د. ط، 1974م، الدار البيضاء، ص: 36.

[3]– الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، د. عباس الجراري، م. س، 142/1.

[4]– ينظر كتاب: البديعيات في الأدب العربي: نشأتها –تطورها– أثرها، علي أبو زيد، عالم الكتب، ط. 1، 1983م، بيروت، ص: 18.

[5]– ينظر الأبيات الشعرية في المصدرين السابقين، ص. ن.

[6]– ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، المطبعة النموذجية، د. ط، د. ت القاهرة، ص: 135 .

[7]– سيرة ابن هشام، م. س، 387/1.

الصحابة رضي الله عنهم، إلا أننا نجده قد تأثر بحركات الأحزاب التي برزت من زبيريين، وخوارج، وشيعة، وأمويين، وأصبح مليئا بالحجج وأفكار الفرق الإسلامية، وفي هذا الصدد يقول د. عبد الله بنصر العلوي: "إلاّ أن ظروف العصر الأموي، جعلت القصيدة المادحة تتسم بروح العصبية والتنافر القَبَلي، كما عند شعراء
النقائض، أو تتسم بالتعبير عن آراء حزب معيّن، (وخاصة عند الشيعة)، فلم تكن هاشميات الكميت وقصائد الفرزدق غرضًا لمدح الرسول، بقدر ما كانت إطراء للمذهب الشيعي، ولسانًا منافحًا عن علي والأئمة من بنيه رضي الله عنهم"[1]. لننظر مثلا ما يقوله الكُمَيْتُ بن زيد (ت 126هـ) في هاشميته البائية:

فَاعْتَتَبَ الشَّوْقُ من فؤَادِيَ وَالشِّـ ... عْرُ إِلَى مَنْ إِلَيْهِ مُعَتَتَبُ
إِلَى السِّرَاجِ الْمُنِيرِ أَحْمَدُ لاَ ... تَعْدِلُنِي رَغْبَةٌ وَلاَ رَهَبُ
عَنْهُ إِلَى غَيْرِه وَلَوْ رَفَعَ ... النَّاسُ إِلَيَّ الْعُيُونَ وَارْتَقَبُوا
وَقِيل أَفْرَطْتَ بَلْ قَصَدْتَ وَلَوْ ... عَنَّفَنِي القَائِلُونَ أَوْ ثَلَبُوا
إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ تَضَمَّنَتِ لْـ ... أَرْضُ وَلَوْ عَابَ قَوْلِي العُيُبُ

وقد أورد الجاحظ (ت 255هـ) هذه الأبيات في كتابين من كتبه، وعلَّق عليها مُنتقدًا الكُميت، إذا قال: "ومن غرائِب الحُمْقِ المذهبُ الذي ذهب إليه الكُميت ابن زيد في مديح النبي صلى الله عليه وسلم... الأبيات، فمن رأى شاعرًا مدح النبي صلى الله عليه وسلم، فاعترض عليه واحد من جميع أصناف الناس، حتّى يَزْعُمَ هو أن أنَاسًا يعيبونه ويثْلُبونه ويُعَنِّفُونَهُ؟"[2].

وَلَوْ أنّ شِعرَ الكُميت أُخِذَ على ظاهره لكان نقدُ الجاحظ في موضعه، فليس من المعقول أن يعيب مسلم شاعرًا يمدح الرسول أو يُعَنِّفَه، غير أن وراء أبيات الكُمَيْتِ سرًّا كشفه الشريف المُرْتَضَى (ت 436 هـ)، بقوله: "إنّ الشاعر لم يُرِدِ النَّبِيَّ حينما قالَ إنّ هناك من يُعَنِّفُه على مدحه، وإنما قصدَ مديحه لعلي بن أبي طالب، فورَّى عنه بذكر

[1]– في المدحة النبوية المغربية، د. عبد الله بنصر العلوي، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز–فاس، د. ط، 2015م، فاس، ص: 12–13. وينظر الأدب الصوفي في مصر في القرن 7هـ، علي صافي حسين، ص: 216.

[2]– البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، د. ط، 1975م، القاهرة، 2/239–240، الحيوان، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، د. ط، 1969م، القاهرة، 5/170. والتعليق المذكور ورد في البيان، وكرر الجاحظ هذا النقد بعبارة أخرى في كتابه الحيوان.

النَّبيِّ، خوفًا من بني أُمَيّةَ"[1]. ونحن نعرف أن من مبادئ الشيعة، التَّقِيَّةُ حفاظًا على النفس.

ويمدح الفرزدق (ت 732م) علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين، عندما أنكر هشام بن عبد الملك معرفته أثناء موسم الحج عندما رأى الحُجّاج يفسحون له الطريق أثناء الطواف، ولم يعاملوه بالمثل وهو ولي العهد، فقال مستنكرًا: من هذا؟[2]

فخاطبه الفرزدق على الفور قائلاً:

هَـذَا الَّـذِي تَعْـرِفُ البطحَـاءُ وَطْأَتَـهُ والبيْـتُ يعرفُـه والـحِلُّ والحَـرَمُ

والقصيدة من أروع شعر المديح، والشاعر يُشيد فيها بالإمام علي زين العابدين، وبنفسه إلى الشجرة النبوية المباركة، ونقرأ فيها هذه الأبيات بعد المطلع:

هَـذَا ابْـنُ خَيْـرِ عِبـادِ اللهِ كُلِّـهِمُ هَـذَا التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ الطَّـاهِرُ العَلَـمُ
إِذَا رَأَتْـهُ قَريـشُ قـالَ قائلهـا إِلَـى مَـكَارِمِ هَـذَا يَنْـتَهِي الـكَرَمُ
يُغْضِـي حَيَـاءً ويُغْضِـي مِـنْ مَهَابَتـهِ فَمَـا يُكَلِّـمُ إِلاَّ حِيـنَ يَبْتَسِـمُ
يَنْشَـقُّ ثَـوْبُ الـدُّجَى عـن نـور غُرَّتِـهِ كالشَّمْسِ تَنْجَابُ عن إِشراقِهَا الظُّلَمِ
مُشْـتَقَّةٌ مِـنْ رَسُـولِ اللهِ نَـبْعَتُهُ طَابَـبْ عَنَـاصِرُهُ والـيِمُ والشِّـيَمُ
هَـذَا ابـنُ فـاطِمَةٍ إِنْ كُنْـتَ جَاهِلُـهُ بِجَـدِّهِ أنبـياء اللهِ قـد خُتِمُـوا
اللهُ شرَّفَـهُ قِـدْمًا وعَـظَّمَهُ جَـرَى بِـذَاكَ لَـهُ فـي لَـوْحِهِ القَلَـمُ
مِـنْ مَعْشَـرٍ حُـبُّهم دِيـنٌ وبُغْضُهُـمُ كُفْـرٌ وقُـرْبُهُمُ مَـنْجًى وَمُعتَصَـمُ[3]

وفي القصيدة –كما يقول زكي مبارك– "نفحات من التّصوف، فالشاعر يَقْرِنُ شُكر الله بشُكر آل الرسول، ويرى أنّ حُبَّهم دينٌ وبغضَهم كفرٌ، وتلك أقصى غاياتِ

---

[1]– الأمالي، الشريف المُرتَضى، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، د. ط، 1954م، القاهرة، 80/2.

[2]– مناسبة القصيدة في: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تح: إحسان عباس، د. ط، 1972م، 95/6–96.

[3]– شرح ديوان الفرزدق، تح: عبد الله الصاوي، مطبعة الصاوي، د. ط، 1932م، مصر، ص: 848–849.

الصِّدق في الحبِّ كذلك نرى فيها كثيرًا من المعاني التي سيتداولها شعراء الصوفية، مثل قوله: "إن ذِكْرَ الرسول صلى الله عليه وسلم وآلِهِ وتشريفهم، سَبَقَ به القلمُ في اللوح المحفوظ، وإنّ معرفتهم إنما هي من معرفة الله"[1].

"أمّا في العصر العباسي، فقد انشغل الشعر بتيارات التجديد، واستنفذ التكسب في القصيدة المادحة قواه، ونشطت البيئات الشيعية والسنية والصوفية، وكل هذه العوامل لم تُتح لقصيدة المديح النبوي بروزا أكثر لكي تصبح بديلاً عن شعر التكسب، رغم ظهور بعض القصائد في مدح الرسول خلال هذا العصر"[2].

لننظر مثلاً ما ذهب إليه الشريف الرضي (ت 406هـ) في شعره من تصوف في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر مناقب أهل البيت وخاصة أبناء فاطمة، الذين رفعهم الشاعر إلى مرتبة كبيرة من التقوى والمجد والسؤدد كما في البيت:

شَـغَلَ الـدُّمُوعُ عَـن الـدِّيار بُكَاؤُنَـا لِبُكَـاءِ فَاطِمَـةَ عَلَـى أَوْلاَدِهـا[3]

ويقول أيضا في لاميته الزهدية التي مطلعها:

رَاحِـلٌ أَنْـتَ، وَاللَّيَالِـي نُـزُولُ ومُضِـرٌّ بِـكَ البَقَـاءُ الطَّوِيْـلُ[4]

وللشاعر العباسي مهيار الديلمي (ت 428هـ) كذلك قصائد شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم حيث يقول:

أَمِثْـلُ مُحَـمَّدٍ المُصـطفى إِذَا الحُكْـمُ وَلَّيْـتُمُوهُ لَبِيبـا

إلى أن ويقول:

---

[1]– المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، دار الشعب، د. ط، 1981م، القاهرة، ص: 62.

[2]– في المدحة النبوية المغربية، د، عبد الله بنصر العلوي، م. س، ص: 13.

[3]– ديوان الشريف الرضي، دار صادر، د. ط، 1961م، 361/1.

[4]– م. س، 187/2.

أبَـــانَ لَـــنَا اللهُ نَـــهْجَ السَّبِـــيلِ بِبَعْـــــثَتِهِ وأَرَانَـــــا الـغُيُوبَـــــا
لَئِـــنْ كُنْـــتُ مِـــنْكُمْ فَـــإِنَّ الهَجِيـــ ـــنَ يُخْـــرِجُ فِـــي الفَلَتَـــاتِ النَّجِيبَـــا[1]

إنّ لشعراء الشّيعة فضلاً لا يُنْكَر في العود إلى موضوع المديح النبوي، حتى وإن كان ذلك يأتي عندهم تابعًا للحديث عن آل البيت، ولهذا فإنهم يُمثِّلون استمرارا لهذا اغرض ومواصلته حتى القرن السادس.

إنَّ المديح النبوي سيعْرف ازدهارًا وانتشارًا بين الأدباء والعلماء في العصر المملوكي، وسيتنافسون في نظمه، ويذهبون به كل مذهب، ويسارعون إلى إنشاده في المجالس الخاصة والمحافل العامة، وفي المناسبات الدينية المختلفة التي كثرت في هذا العصر كثرة مفرطة[2].

لكن ما السبب وراء هذا الاتساع الكبير في فن المدائح النبوية؟ وما دواعي الإكثار منه؟ وما هي غاياته؟

إن إمعان النظر في جوانب العصر المملوكي المختلفة يقودنا إلى بعض الأسباب الظاهرة التي دفعت الشعراء إلى الاتساع في نظم هذا الفن، ويمكن أن نجملها من جهة أولى، فيما تعرض له العالم الإسلامي من هجماتٍ جائِحَةٍ نفذت إلى صميم البقاع الإسلامية في بلاد الشام، والتي تمثلت في المغول من جهة الشرق والصّليبيين من جهة الغرب، واستئثار فئة قليلة بالحكم –المماليك– وحرمان الأكثرية العربية منه، ومن جهة ثانية ما صاحب المجتمع المملوكي من ظلم وكوارث– وما اتصف به حكم بعضهم من ظلم واضطهاد، وتناقض بين الحاكم والمحكوم في الوضع الاجتماعي،

[1]– ديوان مهيار الدّيلمي، دار الكتب المصرية، د. ط، 1930م، القاهرة، 1/232–233.
[2]– الأدب في العصر المملوكي، محمد كامل الفقي، د. ط، 1976م، مصر، ص: 134.

فكانت العامّة تعلن سخطها على المظالم، وتثور المرة تلو المرّة لترفعها عن كاهلها، "حتى ساد الإحساس بنضوب القرائح والشعور بضياع الفعل وازدراء القول"[1].

وإذا لم تسعف بعضُهم الشجاعة الكافية للتصريح بما يجول في أنفسهم، كانوا يعتمدون طريقة غير مباشرة، ويتجهون إلى الدين ومدح النبي الكريم، ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذا الموقف، فكانوا يسجلون في شعرهم مشاعر السخط على مظاهر البؤس، الذي يحكم حياة العامة، ويظهرون تمسكًا قويًّا بالإسلام ومقدساته، وخصوصًا عند المتصوفة، ويحضون على الجهاد، فيقدمون المثل الأعلى للعدل والرحمة بالناس، ويقارنون ما كان عليه المسلمون الأوائل، وبين ما آل إليه الأمر في عهدهم لعل حكامهم الذين يتمسكون بالدين ويظلمونهم ينتبهون لذلك، فلا يستمرون فيما هم عليه.

كان الفعل والقول الصوفي عدةً حربيةً قتالية يتسلح بها الجنود أثناء المعارك، وهذا ما تفطن له د. شوقي ضيف عندما قال: "يظن بعض الناس حين يرون أسلافنا من المتصوفة يعيشون في رباطات، وتكايا، وزوايا كانوا يعيشون في عزلة عن المجتمع الإسلامي لا يحسّون بآماله وآلامه، فضلاً عن الدفاع عنه وحمايته، حين يلم به الخطر، وهو ظن واهم، فقد كانوا دائمًا في مقدمة الصفوف المحاربة، ومن لم يحارب منهم كان يحمس للقتال بأشعار حماسية، كانوا ينظمونها وهم يسددون رماحهم إلى نحور أعدائهم"[2].

ساعد على تطور المديح النبوي علماءُ أفذاذ في التصوف من أمثال أبي حامد الغزالي (ت 505) صاحب كتاب "إحياء علوم الدين". وشعراءُ موهوبون من أمثال يحيى بن يوسف الصرصري البغدادي الضرير، الذي توفي شهيدا في معارك المغول

---

[1]– فن المديح، أحمد بو حاقة، د. ط، 1962، بيروت، ص: 277. وينظر الأوضاع السياسية –بتفصيل– التي أدت إلى ازدهارها وانتشار المديح النبوي في كتابين لعمر موسى باشا: – أدب الدول المتتابعة، د. ط 1967م، لبنان، ص: 158، الأدب في بلاد الشام، ص: 408. وينظر الأدب في العصر المملوكي، ص: 134 وما بعدها.

[2]– فصول من الشعر ونقده، شوقي ضيف، دار المعارف، ط. 1، 1988م، مصر، ص: 22–23.

سنة (656هـ)، وأحسن المدح النبوي وأجاد فيه كثيرا، واشتهر به، حتى قال فيه الصفدي: "لا أعلم شاعرًا أكثر من مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم أشعرَ منه"[1].

قال مخيمر صالح: "إن قصيدة المديح النبوي عبر تاريخها الطويل لم تتضح أو تكتمل مثلما نضجت، واكتملت عند الصرصري والبوصيري، إذ استوعبت، واستوفت التقاليد الفنية، ووضحت أيما وضوح"[2].

إن تحولاً جديدًا نلمسُه عند ابن الفارض (ت 632هـ) –فقد مهد به لمن جاء بعده– إذ هام بحبه صلى الله عليه وسلم، ووصفه بأرق الأوصاف، ونظم فيه القصائد تذوب لوعة، وصدقا، وحباه حتى جاء بعده محمد بن سعيد البوصيري (ت 696هـ)، وأصبحت قصائد المديح النبوي الشريف متميزة أكثرَ بحرارة اعتقادية، وإيمانية أكثر في حبّها، وفعّاليتها[3].

يقول في هذا الصدد د. عباس الجراري مقدما الطرح الثاني وموفقا مع الطرح الأول[4] : "حقا أننا في القرن السابع نلتقي في المشرق –ومصر خاصة– مع تيار أدبي متأثر بالفكر الصوفي، الذي حمله في هذه الفترة وقبلها بقليل متصوفة مغاربة وأندلسيون، كمحيي الدين بن عربي، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسي، وأحمد البدوي.

وحقًا كذلك أننا في هذا العصر نلتقي مع البوصيري ومع بردته أو برءته التي تعد – وبعدها همزيته– أشهر ما قيل في هذا الباب، دون أن ننسى أن البوصيري، وإن ولد في

---

[1]– نَكْتُ الهِميان في نَكَتِ العُميان، خليل بن أيبك الصفدي، المطبعة الجمالية د. ط، 1911م، القاهرة، ص: 308.

[2]– المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري، د. مخيمر صالح موسى يحيى، مكتبة الهلال، ط. 1، 1986م، القاهرة، ص: 211.

[3]– البديعيات في الأدب العربي، علي أبو زيد، م. س، ص: 20.

[4] – ينظر الطرحين كما قدمهما د. الجراري ، ص : 109.

مصر، مغربي، أصله من صنهاجة، واسمه محمد بن سعيد الصنهاجي، ودون أن ننسى كذلك أنه تتلمذ على أبي العباس المُرسي..."[1].

ويستطرد د. عباس الجراري: "... ولكن فن المديح النبوي كان قد اكتمل وصار غرضًا قائم الذات قبل ذلك بنحو قرنين"[2]. وهذا ما أكده عبد الله كنون قبله، في كتابه: "أدب الفقهاء"[3]. وقد استشهد بقصيدتين: الأولى هي المعروفة بـ: "الشقراطسية في الممادح النبوية"، هكذا أوردها شارحها محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) في مخطوطته: "شرح القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية"، وهي موضوع أطروحتي – نسبة لمؤلفها أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن يحيى الشقراطيسي التوْزَرِي (ت 466هـ). ومطلع القصيدة: [البسيط]

الـــحَمْدُ لِلَّـــهِ مِنَّـــا بَاعِـــثِ الرُّسُـــلِ هَـدَى بِأَحْمَـدَ مِنَّـا أَحْمَـدُ السُّـبُلِ[4]

والثانية: القصيدة البائية المشهورة المسماة بـ: "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب" لأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت 540هـ)، كان وزيرًا بالأندلس، وكاتبًا بمراكش لعلي بن يوسف بن تاشفين[5]. يقول في أولها: [الطويل]

إِلَيْـــكَ فَهْمِـــي وَالْفُـــؤَادُ بِيَثْـــرِبِ وَإِنْ عَاقَنِي عَنْ مَطْلَعِ الْوَحْيِ مَغْرِبِي
أُعَلِّـــلُ بالآمَـــالِ نَفْسًـــا أَغَرُّهَـــا بتقيـــم غَايَـــاتِي وتَـــخِير مَذْهَـــبِي[6]

بناءً على ما سبق ذكره، وإذا سلّمنا بالطرح الثاني: أن مديح الرسول صلوات

---

[1]– الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، د. عباس الجراري، م. س، ص: 143.

[2]– م. ن، ص. ن.

[3]– أدب الفقهاء، عبد الله كنون، دار الكتاب، د. ط، د. ت، بيروت، ص: 157–158.

[4]– القصيدة الشقراطسية، تحقيق: عبد الله كنون، مجلة المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، العدد 18، السنة السابعة، يوليوز 1980، ص: 15 و22 وما بعدها.

[5]– الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، ط 15، 2002م، بيروت، 165/4.

[6]– القصيدة كاملة في: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، أحمد المقري، تحقيق: إحسان عباس، د. ط، د. ت، بيروت، 174/5.

الله عليه فن مستحدث في القرن السابع الهجري، على يد شعراء مصريين في طليعتهم البوصيري، وابن دقيق العيد، نظرًا لمجموعة من الظروف التي ذكرناها سلفًا، فهذا يعني أن الغرب الإسلامي –على حد قول د. بنصر العلوي– كان أكثر اهتمامًا بهذه الظاهرة بل سباقا لها، تقديرا لمكانة الرسول في النفوس، وتفانيا للقلوب في محبته وتغنيا بشمائله وتسليا عن بُعد المزار، وحنينا لأرض طيبة، وشوقًا إلى الصفاء والنقاء[1].

فازدهر فن المديح وعمت ظاهرته، وخاصة أواخر العصر الموحدي الذي تميّز بشيوعه، "بسبب الحالة النفسية التي صار عليها الغرب الإسلامي بعد سقوط قواعد الأندلس واختلال أمر الموحدين"[2].

وفي هذه الظاهرة نرى تشابها بين المشرق والغرب الإسلامي، في العامل الذي أدى إلى إكثار القول في المديح النبوي، والتوسل للترسل، والبَوْح له بالهموم والأشجان، فقد كان في بلاد المشرق ما أصاب الأمة من محنة الغزو الصليبي القادم إليها من الغرب، والهجوم التَّتَرِيِّ الكاسح المنطلق من الشرق، وفي الأندلس ما تعرَّضتْ له البلاد من زَحْفٍ مسيحي لم تفلح في صدِّ تياره جهود المرابطين، ثم الموحدين، وهكذا شَعَرَ المسلمون هنا وهناك بالضَّعف وقلة الحيلة، ولم يكن لدى الأدباء والشعراء –وهم ضمير الأمة ولسانُها النّاطِقُ– إلاّ أن يتوجّهوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، يستشفعون به ويطلبون منه العون والنصرة.

صفوة القول، إن المديح النبوي لم يكن ترفًا، أو نزوة وجدانية لدى الشعراء، وإنما جاء ضرورة اجتماعية ونفسية وفنية، في ظرف تراكمت فيه الأحزان، وتوالت فيه الاضطرابات، وفقد فيه الناس البوصلة التي ترشدهم إلى بر الأمان، في زمن غاب فيه النموذج المخلِّص، الذي تتوحّد به الكلمة، وتجتمع حوله القلوب، وتلتئم به الجراح، فلم

---

[1]– في المدحة النبوية المغربية، د. بنصر العلوي، م. س، ص: 16.

[2]– ملاحم ودواوين في السيرة والمديح النبوي لمحمد المنوني، دعوة الحق، العدد: 9، ص: 10، والسنة 9.

يكن الواقع يقدم للناس ما يحقق لهم هذا المطلب ويمحو عنهم هذه الحيرة، ولم يكن باستطاعتهم سوى استحضار الذاكرة، واستدعاء التاريخ، واستلهام النموذج من شخص النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره المثل المنشود، والتعويض الأمثل لكل ما كان مفقودًا في حياة الناس، فهو الدواء الشافي، وهو السراج الهادي، وهو الرحمة المهداة، وهو سر الكون والوجود.

المطلب الثالث: تاريخ حول القصيدة الشقراطسية:

قال أبو شامة المقدسي (ت 665هـ): "وجدت ناظمها[1] (أي القصيدة الشقراطسية) قد ذكرها في آخر مصنف له سماه "الإعلام بشواهد الأعلام لنبوة سيدنا محمد عليه السلام"، ذكر فيه أشياء من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأخباره وسيره وآثاره، ثم قال في آخره: "وقد أثبتُّ في آخر هذا الكتاب بتوفيق الله جل جلاله وبركة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ما جعلته لهذا الكتاب ختاما ولقصصه نظاما ولمقاصدي فيه تماما، فقلت: الحمد لله منا باعث الرسل... وذكر القصيدة"[2].

وذكر زين العابدين بنطاهر في دراسة قام بها حول الرحالة العبدري، أن من شيوخه –أي العبدري–: (أبو عبد الله بن هريرة (ت بعد 691هـ)) لقيه في تونس، وقرأ عليه كتابه الذي جمعه في "وفيات المشاهير"، وقرأ عليه "القصيدة الشقراطسية" لأبي محمد عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ)[3].

ويقول شهاب الدين النويري (ت 733هـ): "وقد رأينا أن نختم هذه الفصول بذكر القصيدة التي ابتسمت ثغورُها بوصف معجزاته، وتحلت نحورها بجواهر صفاته، ورفلت في حلل الفَخار من باهر آياته، وسحبت ذيول الافتخار بإشارات إلى غزواته، وفاح

---

[1]– أي أبو محمد عبد الله بن أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطيسي (ت 466هـ).

[2]– 113/2، شرح القصيدة الشقراطسية، الحافظ شهاب الدين أبي شامة عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ)، تح: مصطفى المسلوتي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية بالرباط، تحت إشراف: د. محمد يسف 1410هـ/1990م.

[3]– 115/1 الرحلة العبدرية، تح: د. زين العابدين بنطاهر، م. س.

أَرَجُها، فأخجلَ المسكَ الدّاريّ[1]، وأشرقت أنوارها على النِّيَرِيْن[2]، فما ظنك بالدّراري[3]، وهي قصيدة الشيخ الإمام العلامة أبي محمد عبد الله بن زكريا الشقراطيسي رحمه الله تعالى، وإنما اقتصرنا عليها وصرفنا الرغبة دون غيرها إليها،لاشتمالها على جمل من أخباره السَّنِية، ونكت من آثاره التي هي بكل خير مَلِية"[4].

ولقد اعتنى بهذه القصيدة، كذلك، الرحالة الجزائري "أحمد بن عمّار" (ت 1205هـ)، إذ نجده يقول عنها: "إن الشقراطيسي لم يُسبق في موضوعها، ولم يحتذِ فيها على مثال سابق، وذلك لانقياد البلاغة في أزمنتها، ولكونها فتحت للافتنان أبوابا، وأحكمت من نسج البديع[5] أثوابا، وطار صيتها في الآفاق وانعقد على بركتها الإجماع والاتفاق"[6].

---

[1]– الداري: المتطيب. والدَّارِيُّ العطار. يقال: إنه نُسب إلى دارين. قال الجعدي:
أُلْقِيَ فِيها فِلْجَانِ مِنْ مِسْكٍ دَارَين وَفِلْجُ مِنْ فُلْفُلٍ ضَرِمٍ، (الأزهري، تهذيب اللغة (دار)).

[2]– النَّوْرُ والنَّوْرَةُ، جَمِيعاً: الزَّهْر، وقيل: النَّوْرُ الأبيضُ والزهر الأصفر وذلك أنه يبيضُّ ثم يصفِّرُ، ولعله يعني: الشمس والقمر. – وثوب ذو نِيرَيْنِ إذا نُسج على خيطين، أي إذا نسج على نيرين كان أصفق وأبقى. ورجل ذو نِيرَيْن أي قوَّته وشدّته ضِعْفُ شدّة صاحبه. (ابن منظور، لسان العرب: نور، نير).

[3]– الدَّرَارِي: هي الشُّهب: النجوم السَّبعة، المعروفة بالدّراري. (ابن منظور، لسان العرب (شهب)).

[4]– 348/18، نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت 733هـ) دار الكتب والوثائق القومية، ط. 1، 1423هـ، القاهرة.

[5]– إن البديع أصبح ذوقا أدبيا سائدا –بعد عصر أبي تمام– و"فنا في التعبير، وطريقا من طرق القول الجميل، الذي يمتع الآذان ويعذب وقعه في النفوس، بما يستدعي من معان، وما يحدث من تقسيم وإيقاع "وصار يشكل ضغطا على الشعراء، ويؤثر في نتاجهم. يقول صاحب خزانة الأدب: "إن لكل زمان بديعا، فتمتع بلذة الجديد"، ص: 5، خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (ت 837هـ) المطبعة الخرية، ط. 1، 1304هـ، القاهرة.
والبديع يؤدي مهمة بلاغية أصيلة لها أثرها في توكيد المعاني في النفوس، ويضفي على المعاني إشراقا وجمالا يجعلها سائغة في النفوس والقلوب. والبديع في حقيقته هو تجاوب فكري مع التأنق الحضاري حين يشيع، حتى يضفي ظلاله على شتى الجوانب المادية والمعنوية للحياة.
والبديع عند ابن بسام ليس مجرد تحسين للفظ والمعنى، ولكنه أداة لسبر أغوار المعاني التي يعبر بها الأدباء في نثرهم ونظمهم، يقول ابن بسام: "لا سيما أنواع البديع ذي المحاسن الذي هو قيم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها..."، 6/1، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام (ت 542هـ)، تح: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ط. 6، 1981م، تونس، ليبيا.
ويقول صاحب الموازنة: "الشاعر يقصد باستعماله الطباق والتجنيس معنى يريده ". 48/1، "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري"، الحسن بن بشر الآمدي (ت 370هـ) تح: أحمد صقر، عبد الله المحارب، دار المعارف، ط. 4، 1994م، مصر.

[6]– ص: 88، "نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب" أحمد ابن عار الجزائري (ت 1205هـ) ، تح: عبد الجليل شقرون، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في تحقيق المخطوطات، جامعة أبي بكر بلقايد، إشراف: د. شعيب مقنونيف، 1438هـ/2017م، تلمسان–الجزائر.

المطلب الرابع: القصيدة الشقراطسية وأثرها في قصائد المديح بعدها.

القصيدة الشقراطسية –كما ذكرت سلفًا– قصيدة لامية، من البحر البسيط، في مدح خير البرية، قال عبد الله كنون: "... واستعراض وقائع السيرة النبوية وحياة الدعوة الإسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمّت أقطار المعمورة، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل، والتصوير والتسجيل، وهو حري أن تصنّف في شعر السير والملاحم، وهي تقع في (135) بيتًا –حسب تحقيق عبد الله كنون–"[1]. ويؤكد ذلك أحمد رجب أبو سالم بعده حين قال: "سرد فيها الناظم سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته، وأمور حياته، بتصوير رائع، وأسلوب جزل رائق، فيه دلالة على تمكنه في اللغة بفروعها، وقد صيغها بألوان البلاغة المختلفة"[2]. قال الرّحّالة العبدري (ت 700هـ): "... ولكن قصيدته بالجُملة قدّ حلّت من البلاغة في حصن ممتع، وجلت زهاء الحسن أن يتقنع..."[3].

تكمن أهمية هذه القصيدة –على حدّ قول د.رجب أبي سالم– في ثلاثة جوانب[4]:

– **الجانب الأول:** تعلّق العلماء بها شرحًا وتخميسًا، "وتعشيرًا وتوشيحًا وتشطيرًا"[5] –كما سيُوَضّحُ لاحقًا في هذا المطلب–.

– **الجانب الثاني:** أن هذه القصيدة كانت تُدَرَّسُ في حلقات العلم، قال الرحّالة العبدري (ت 700هـ): "وقد أولع الناس بها كل الولوع، واستحسنوا من محاسنها كل مفروق ومجموع، وعَنوا بها شرحًا وتخميسًا، وعمّروا بها معهدًا أنيسًا"[6]. وقال د. عبد الخالق أحمدون في مقدمة تحقيقه لكتاب "مطالع التمام": "ومن الكتب الدراسية التي

---

[1]– من أروع الشعر: أنجم السياسة وقصائد أخرى، عبد الله كنون، فصلة من مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج. ع. س. 53 (1399هـ–1979م).

[2]– ص: 2503، مجلة الأزهر، مقال: أحمد رجب أبو سالم عن القصيدة الشقراطسية، الجزء: 11، السنة 1989م.

[3]– 145/1، الرحلة العبدرية، تح: زين العابدين بن الطاهر، م. س.

[4]– ص: 2503–2504، مجلة الأزهر، المقال السابق.

[5]– ص: 39، أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س.

[6]– الرحلة العبدرية، تحقيق: زين العابدين بن الطاهر، م. س، 146/1.

كانت متداولة في حلقات العلم نذكر في القراءات: قصيدة الشاطبي... وفي السيرة: كتاب الشفا لعياض، والقصيدة الشقراطسية للشقراطيسي، والبردة وشروحها"[1].

– أمّا **الجانب الثالث**[2]: "أن الإمام البوصيري (ت 696هـ) استوحى منها بُردته بعد قرنين". ويضيف عبد الله كنون ويوسف الكتاني حتى قصيدته الهمزية[3]، وتأثرهما في بعض المواضع من قصيدته.

أ– الشقراطسية وأثرها في البردة والهمزية:

* بين الشقراطسية والبردة:

إن الكلام على البردة "فلا انفصال بينه وبين الكلام في العشق أو الحب لجناب الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم، بل هي مفتاح من مفاتيح الوصول إليه والمثول بين يديه، إذ هي آية من آيات الفن، وكوكب من كوكب سماء الأدب، وغرّة في جبين الدهر"[4]. كيف لا وهي تسمّى: "الكواكب الدرية في مدح خير البرية"، قصيدة ميمية بلغت أبياتها مائة وستين بيتًا[5]، اثنا عشر في المطلع، وستة عشر في ذكر النفس وهواها، وثلاثون في مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم، وتسعة عشر في مولده، وعشرة في يمن دعائه، وسبعة عشر في مدح القرآن الكريم، وثلاثة عشر في ذكر معراجه، واثنان وعشرون في جهاده، وأربعة عشر في الاستغفار، وتسعة في المناجاة[6].

---

[1]– مطالع التّمام ونصائح الأنام ومَنجاةُ الخواصّ والعوامِّ في ردّ القول بإباحة إغرام ذوي الجنايات والإجرام زيادة على ما شرّع الله من الحدود والأحكام، أبو العباس أحمد الشماع الهنتاتي (ت 833هـ)، تحقيق: عبد الخالق أحمدون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، د. ط، 2003م، الرباط، ص: 47.

[2]– مجلة مجمع اللغة العربية، مجلة سابقة، فصلة عن القصيدة الشقراطسية، عبد الله كنون، ج. ع. س. 53، 1979م – أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 32 – مجلة الأزهر، مجلة سابقة، مقال: أحمد رجب أبو سالم، ص: 2504.

3– مجلة مجمع اللغة العربية، عبد الله كنون، ع. ن، س. ن – مجلة دعوة الحق، أدب المديح من خلال "الشقراطسية" و"البردة" و"الهمزية"، يوسف الكتاني، العدد: 322 جمادى 1 1417هـ/أكتوبر 1996م.

[4]– العمدة في شرح البردة، ابن حجر الهيثمي (ت 974هـ)، تح: بسام محمد بارود، دار الفتح للدراسات والنشر، ودار الفقيه، ط. 2، د. ت، الأردن والإمارات العربية المتحدة، ص: 40.

[5]– م. ن، ص: 89.

[6]– م. ن، ص: 107 وما بعدها.

قال يوسف الكتاني: "تميّز مطلعها بالبراعة، لكونه جرد من نفسه شخصًا مزج دمعه بدمه"[1] فقال: [البسيط].

1 – أَمِـنْ تـذكُّرِ جيـرانٍ بـذي سَـلَمِ مَزَجْـتَ دَمْعًـا جَـرى مِـنْ مُقْلَـةٍ بِـدَمِ[2]

أمّا تأثر البوصيري بالشقراطسية، واقتفاؤه في شعره بأسلوبه، وبعض أفكاره في قصيدته البردة، بالرغم من الفارق الزمني بينها، "فلنستمع إلى الشقراطيسي واصفًا ما وقع عند مولده صلى الله عليه وسلم"[3] يقول: [البسيط]

5– ضَـاءَتْ بِمَوْلِـدِهِ الْآفَـاقُ وَاتَّصَـلَتْ بُشْـرَى الْهَوَاتِـفِ فِـي الإِشْـرَاقِ وَالطَّفَـلِ[4]

بينما البوصيري يقول عن الحدث نفسه: [البسيط]

59 – أَبَـانَ مَوْلِـدُهُ عَـنْ طِيـبِ عُنْصُـرِهِ يَـا طيـبَ مُبْتَـدِإٍ مِنْـه ومُخْتَتَـمِ

65 – والْجِـنُّ تَـهْـتِفُ وَالْأَنْـوَارُ والـحقُّ يـظْهَرُ مِـنْ مَعْنـىً وَمِـنْ كَلِـمِ[5]

ثم يعقب الشقراطيسي بذكر المعجزات قائلا:

8– وَمَنْطِـقَ الـذِّيبِ بِالتَّصْـدِيقِ مُعْجِـزَةٌ مَـعَ الـذِّرَاعِ وُنطْـقُ العَيْـرِ وِالْجَـمَلِ

10– وَفِي دُعَائِكَ بِالْأَشْجَارِ حِينَ أَتَتْ تَمْشِـي بِـأَمْرِكَ فِـي أَغْـصَانِهَا الـذُّلَلِ[6]

بينما البوصيري يقول في الموضوع نفسه:

72– جاءتْ لدَعْوَتِـه الأَشْجَارُ سَاجِدةً تَمْشِـي إِلَيْـهِ عَلـى سـاقٍ بِـلا قَـدَمِ[7]

كذلك نجد الشقراطيسي يتحدّث عن القرآن وإعجازه بقوله:

---

[1]– دعوة الحق، يوسف الكتاني، مقال سابق، ع. ن، س. ن.

[2]– العمدة في شرح البردة، ابن حجر الهيثمي، م. س، ص: 93.

[3]– دعوة الحق، يوسف الكتاني، مقال سابق، ع. ن، س. ن.

[4]– نص القصيدة الشقراطسية، تحقيق: عبد الله كنون، مجلة المناهل، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، الرباط، العدد: 18، السنة 7، يوليو 1980، ص: 15 وما بعدها.

[5]– العمدة في شرح البردة، م. س، في معجزاته، ص: 95.

[6]– نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[7]– العمدة في شرح البردة، م. س، في معجزاته، ص: 98.

39- أَعْجَزْتَ بِالْوَحْيِ أَرْبَابَ الْبَلَاغَةِ فِي عَـصْرِ الْبَيَـانِ فَضَـلَّتْ أَوْجُـهُ الْحِيَـلِ[1]

نجد البوصيري يتناول الموضوع نفسه بقوله:

91- آيـاتُ حَقٍّ مِـنَ الرَّحْمَـانِ مُحْدَثَـةٌ قَدِيمَـــةٌ صِـفَةُ الْمَوْصُـــوفِ بِالْقِـــدَمِ[2]

ثم يتحدث الشقراطيسي عن الإسراء والمعراج قائلًا:

25- عَرَجَتْ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقِ إِلَى مَقَـامِ زُلْفَـى كَـرِيمٍ قُمْـتَ فِيـهِ عَلَـــي

26-عَنْ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى هَبَطْتَ وَلَمْ تَسْـــتَكَمِلِ اللَّيْـــلَ بَـــيْنَ المَـــرِّ وَالْقَفَـــلِ[3]

نجد البوصيري يقول عنه:

107- سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلا إلى حَرَمٍ إِلَى كَـمَا سَـرى البَـدْرُ فِـي دَاجٍ مِـنَ الظُّـلَمِ

108- وَبِـتَّ تَرْقَـى إِلَـى أنْ نِلْـتَ مَنْزِلَـةً مِـنْ قَـابِ قَوْسَـيْنِ لَـمْ تُـدْرَكْ وَلَـمْ تُـرَمِ[4]

110- وَأَنْتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِمْ فِـــي مَوْكِـبٍ كُنْـتَ فِـيهِ صَـاحِبَ الْعَلَـمِ

قال يوسف الكتاني: "نلاحظ تقاربًا كبيرًا بين أبيات القصيدتين، لا في المعنى فحسب، بل حتى في اللفظ، ففي الشقراطسية:

58- مِـنْ كُـلِّ مُهْـتَصِرٍ لِلّـهِ مُـنْتَصِرٍ بِـــالْبِيضِ مُخْتَـــصِرٍ بِالسُّـــمْرِ مُعْتَقِـــلِ[5]

نجد البوصيري يطرق المعنى نفسه بالألفاظ نفسها:

124- مِنْ كلِّ مُنْتَدِبٍ لله مُحْتَسِبٍ يَـسْطو بِمُسْتَأصِـلٍ لِلْكُفْـرِ مُصْـطَلِمِ[6]

---

[1]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[2]- العمدة في شرح البردة، م. س، في شرف القرآن الكريم ومدحه، ص: 99.

[3]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[4]- م. ن، في إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم، ص: 101.

[5]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[6]- العمدة في شرح البردة، م. س، في جهاد النبي صلى الله عليه وسلم، ص: 102.

إلا أنه بالرغم من تأثّر البوصيري واقتفائه في بردته للشقراطيسي، نجد الفارق الزمنيَّ بينهما يعمل عمله –على حدِّ قول يوسف الكتاني– "فالخيالُ الشعريُّ ورقةُ الألفاظ وخفتُها، يظهر جليًّا في البردة، في حين تظهر الصنعة والبديع واضحًا عند الشقراطيسي، وقبله بكثير كان الرحّالة العبدري ناقدًا للشقراطسية –قبل أن يرجع ويقر بتفوقها في مجال البلاغة–، وقلما يسلم من نقده أحد. وإليكم ما قاله: "على أنّه رحمه الله تعالى قد أكثر فيها لأجل الصناعة والتصنع، وتكلف منها ما هو بعيد المرام، شديد التمنّع، واعتراض في كل معنى عرض، وربما أغرق النزع فخالف الغرض... ولكن قصيدته بالجملة قد حلّت من البلاغة في حصن ممتع، وجلت زهاء الحسن أن يتقنع"[1][2].

يقول عبد الله كنون: "هذا الذي انتقده العبدري من قول الشقراطيسي، من تصنع وتكلّف، ويعني به صناعة البديع، فإنه كان حلية الكلام، وحلبة التباري بين الأدباء في تلك العصور، والناقد نفسُه لم يسلم منه في كثير من كلامه، وقد رجع فأقر بتفوق القصيدة في مجال البلاغة، والحق هو هذا الذي وقع عليه الانفصال"[3].

*** بين الشقراطسية والهمزية:**

قال ابن حجر الهيتمي (ت 973هـ) واصفًا القصيدةَ الهمزية وصاحبَها: "هذا، وإنَّ من أبلغ ما مدح به النبي صلى الله عليه وسلم من النظم الرائق البديع، وأحسنِ ما كَشف عن كثير شمائله من الوزن الفائق المنيع، وأجمع ما حوته قصيدةٌ من مآثره، وخصائصه ومعجزاته، وأفصحِ ما أشارت إليه منظومةٌ من بدائع كمالاته... ما صاغَهُ صوغَ النبر الأحمر، ونظَمَه الدرُ والجوهرُ، الشيخُ الإمام شرف الدين الصنهاجي البوصيري (ت 696هـ)... وصحِب القطب أبا العباس المرسي... فعادت عليه بركته، وساعده لحظه وهمّته، إلى أن فاق أهل زمانه، ورزقه الله من الشهرة والحظ مَا لَمْ يصل

---

[1]– الرحلة العبدرية، تحقيق: زين العابدين بن الطاهر، م. س، 145/1.

[2]– دعوة الحق، يوسف الكتاني، مقال سابق، ع. ن، س. ن.

[3]– مجلة مجمع اللغة العربية، مج. س، فصلة عبد الله كنون عن الشقراطسية، ع. ن، س. ن.

إليه أحد من أقرانه، فرحمه الله تعالى ورضي عنه من قصيدته الهمزية المشهورة – المسمّاة "أم القرى"، بلغت أبياتها أربعمائة وستة وخمسين بيتًا– العذبةُ الألفاظ، الجزلةُ المباني، العجيبةُ الأوضاع، البديعةُ المعاني، العديمةُ النظير، البديعة التحرير؛ إذ لم ينسج أحد على منوالها، ولا وصل إلى علا حسنها وكمالها، حتى الإمام البرهان القيراطي (ت 781هـ)؛ فإنه مع جلالته وتضلّعه من العلوم العقلية والنقلية، وتقدمه على أهل عصره في العلوم العربية والأدبية، لاسيما علم البلاغة، ونقد الشعر، وإتقان صنعته، وتمييز حلوه من مرّه... أراد أن يحاكيها ففاته الشنب..."[1].

أما أثر الشقراطسية على الهمزية، فقد كان البوصيري مقتفيًا فيها ألفاظا وأسلوبًا ومعاني ومقاطع للشقراطيسي، مع توسُّع كبير، وابتكار، وهذا طبيعي لأن فارق قرنين من الزمان يلعب دوره، "وذلك واضح من قراءة مطلعي القصيدتين، وملاحظة نفس الألفاظ والمعاني مع اختلاف في أسلوب التناول"، يقول الشقراطيسي:

5– ضَـاءَتْ بِـمَوْلِدِهِ الْآفَـاقُ وَاتَّصَـلَتْ بُشْـرَى الْهَوَاتِـفِ فِـي الإِشْـرَاقِ وَالطَّفَـلِ

6– وَصَـرْحُ كِسْـرَى تَـدَاعَى مِـنْ قَوَاعِـدِهِ وَانْقَـضَّ مُـنْكَسِرَ الأَرْجَـاءِ ذَا مَيَـلِ

7– وَنَـارُ فَـارِسَ لَـمْ تُوقَـدْ وَمَـا خَمَـدَتْ مُـذْ أَلْـفِ عَـامٍ وَنَـهْرُ الْقَـوْمِ لَـمْ يَسِـلِ

8– وَمَنْطِـقَ الـذِيبِ بِالتَّصْـدِيقِ مُعْجِـزَةٌ مَـعَ الـذِّرَاعِ وَنُـطْق الـعَْير وِالْجَـمَلِ

9– خَـرَّتْ لِـمَبْعَثِهِ الْأَوْثَـانَ وَانْبَعَثَـتْ ثَوَاقِـبُ الـشُّهْبِ تَـرْمِي الْجِـنَّ بِالشُّـعَلِ[2]

ولنتمعّن قول البوصيري في مطلع همزيته يتناول الألفاظَ والمعاني نفسَها، إلّا أن للخيال والعاطفة دورًا بارزًا في شعره:

13– لَيْلَـةُ الْـمَوْلِدِ الّـذِي كَـانَ لِلدِّيـ ـنِ سُـرُورٌ بِيَوْمِـهِ وَازْدِهَـاءُ

14– وَتَوَالَـتْ بُشْـرَى الْهَوَاتِـفِ أَنْ قَـدْ وُلِـدَ الْمُصْـطَفَى وَحَـقَّ الْهَنَـاءُ

15– وَتَـدَاعَى إِيـوَانُ كِسْـرَى وَلَـوْلَا آيَـةٌ مِنْـكَ مَـا تَـدَاعَى الْبِنَـاءُ

---

[1]– المنح المكية في شرح الهمزية، المسمّى: أفضل القرى لقُرّاء أم القرى، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، تح: أحمد جاسم المحمّد وبوجمعة مكري، دار المنهاج، ط. 2، 2005م، بيروت، ص: 69–70.

[2]– نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

16- وَغَـدَا كُـلُّ بَـيْتِ نَـارٍ وَفِيـهِ كُرْبَـةٌ مِـنْ خُمُودِهَـا وَبَـلَاءُ

17- وَعُيُـونٌ لِلْفُرْسِ غَـارَتْ فَهَلْ كَـا نَ لِنِيْـرَانِهِمْ بِهَـا إِطْفَـاءُ[1]

ثم ينتقل الشقراطيسي لذكر معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم قائلًا:

13- وَالْجِـذْعُ حَـنَّ لِأَنْ فَارَقْتَـهُ أَسَفًـا حَنِـينُ ثَكْلَـى شَجَتْـهَا لَوْعَـةُ الـثَّكَلِ[2]

بينما البوصيري يقول في الموضوع نفسه:

65- وَسَـلَوْهُ وَحَـنَّ جِـذْعٌ إِلَيْـهِ وَقَلَـوْهُ وَوَدَّهُ الْغُرَبَـاءُ[3]

ونجد الشقراطيسي يقول:

16- وَالشَّاةُ لَمَّا مَسَحْتَ الْكَفَّ مِنْكَ عَلَى جَهْدِ الْـهُزَالِ بِأَوْصَالٍ لَـهَا قُحُلِ

17- سَـحَّتْ بِـدِرَّةِ شَـكْرِي الضَّـرْعِ فَرَوَّتِ الرَّكْبَ بَعْدَ النَّهْلْ بِالْعَلَلِ[4]

والبوصيري يتناول الموضوع نفسه قائلًا:

166- دَرَّتِ الشَّـاةُ حِينَ مَرَّتْ عَلَيْهَـا فَلَـهـا ثَـرْوَةٌ بِهَـا وَنَمَـاءُ[5]

ويستمر الشقراطيسي بذكر معجزاته قائلًا:

27- دَعَوْتَ لِلْخَلْقِ عَامَ الْمَحَلِّ مُبْتَهِلًا أَفْـدِيكَ بِـالْخَلْقِ مِـنْ دَاعٍ وَمُبْتَهِـلِ

28- صَعَّدتَ كَفَّيْكَ إِذْ كَفَّ الْغَمَامُ فَـمَا صَـوَّبْتَ إِلَّا بِصَـوْبِ الْوَاكِـفِ الْهَطِـلِ

29- أَرَاقَ بِـالْأَرْضِ ثَجًّـا صَـوْبَ رَيِّقِـهِ فَحَـلَّ بِالـرَّوْضِ نَسْـجًا رَائِـقَ الْحُلَـلِ

32- تَحِيَّـةٌ أَحْيَـتِ الْأَحْيَـاءَ مِـنْ مَضَـرٍ بَـعْدَ الْمَضَـرَّةِ تَـرْوِي السُّـبْلَ بِالسَّـيَلِ

33- دَامَتْ عَلَى الأَرْضِ سَبْعًا غَيرَ مُقْلِعَةٍ لَـوْلَا دُعَـاؤُكَ بِـالْإِقْلَاعِ لَـمْ تَـزِلِ[6]

نجد البوصيري يطرق المعنى نفسه بالألفاظ نفسها تقريبًا:

146- فَاسْـتَهَلَّتْ بِالْغَيْـثِ سَـبْعَةَ أَيَّـا مٍ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ وَطْـفَـاءُ

---

[1]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 60.

[2]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[3]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 45.

[4]- نص القصيدة الشقراطسية، م.س.

[5]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 50.

[6]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

149- فَدَعَا فَانْجَلَى الْغَمَامُ فَقُلْ فِي وَصْفِ غَيْثٍ إِقْلاعُهُ اسْتِسْقَاءُ

150- ثُمَّ أَثْرَى الثَّرَى فَقَرَّتْ عُيُونٌ بِقُرَاهَا وَأَحْيِيتْ أَحْيَاءُ

151- فَتَرَى الأَرْضَ غبَّهُ كَسَمَاءٍ أَشْرَقَتْ مِنْ نُجُومِهَا الظَّلْمَاءُ[1]

ويستطرد الشقراطيسي حديثه بذكر معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام:

35- وَالْمَاءُ يَنْبُعُ جَوْدًا مِنْ أَنَامِلِهَا وَسَطَ الْإِنَاءِ بِلَا نَهْرٍ وَلَا وَشَلِ

36- حَتَّى تَوَضّأَ مِنْهُ الْقَوْمَ وَاغْتَرَفُوا وَهُمْ ثَلَاثُ مِئَينِ جَمْعُ مُحْتَفَلِ

37- أَشْبَعْتَ بِالصَّاعِ أَلْفًا مُرْمِلِينَ كَمَا رَوَيْتَ أَلْفًا وَنِصْفَ الْأَلْفِ مِنْ سَمَلِ[2]

ولنتأمل قول البوصيري:

167- نَبَعَ الْمَاءُ أَثْمَرَ النَّخْلُ فِي عَا مٍ بِهَا سَبَّحَتْ بِهَا الْحَصْبَاءُ

168- أَحْيَتِ الْمُرْمِلِينَ مِنْ مَوْتِ جَهْدٍ أَعْوَزَ الْقَوْمَ فِيْهِ زَادٌ وَمَاءُ

169- فَتَغَدَّى بِالصَّاعِ أَلْفٌ جِيَاعٌ وَتَرَوَّى بِالصَّاعِ أَلْفٌ ظِمَاءُ[3]

ولنتابع الشقراطيسي كيف يتحدث عن هجرة الرسول واختفائه في الغار وحواره الممتع الذي سجّله القرآن:

18- وَآيَةُ الْغَارِ إِذْ وُقِيتَ فِي حجَبٍ عَنْ كُلِّ رِجْسٍ لِرِجْسِ الْكُفْرِ مُنْتَحَلِ

21- حَمَتْ لَدَيْكَ حَمَامُ الْوَحْشِ جَاثِمَةً كَيْدًا لِكُلِّ غَوِي الْقَلْبِ مَخْتَبَلِ

22- وَالْعَنْكَبُوتُ أَجَادَتْ حَوْكَ حُلَّتِهَا فَمَا يُخَالَ خِلَالَ النَّسْجِ مِنْ خَلَلِ

23- قَالُوا وَجَاءَتْ إِلَيْهِ سرحَةٌ سَتَرَتْ وَجْهَ النَّبِيِّ بِأَغْصَانٍ لَهَا هُدُلِ

24- وَفِي سُرَاقَةَ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ إِذْ سَاخَتِ الحِجْرُ فِي وَحْلٍ بِلَا وَحَلِ[4]

نجد البوصيري يتحدث عن المعنى نفسه مع تقارب في الألفاظ:

66- أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَآوَاهُ غَارٌ وَحَمَتْهُ حَمَامَةٌ وَرْقَاءُ

---

[1]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 49.

[2]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[3]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 50.

[4]- نص القصيدة الشقراطسية، ص:.....

67- وَكَفَتْـــهُ بِنَسْـــجِهَا عَـــنْكبُوتٌ مـــا كَفَـــتْهُ الْـــحَمامَةُ الْحَصْـــدَاءُ

68- وَاخْتَفَـى مِـنْهُمُ عَلـى قُـرْبِ مَـرْآ هُ وَمِـنْ شِـدَّةِ الظُّهُـورِ الْخَفَـاءُ[1]

ثم يتحدث الشقراطيسي عن الإسراء والمعراج قائلا:

25- عَرَجَـتْ تَخْتَـرِقُ السَّبْـعَ الطِّبَـاقَ إِلَـى مَقَـامِ زُلْفَـى كَرِيـمٍ قُمْـتَ فِيـهِ عَـلِي

26- عَنْ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى هَبَطْتَ وَلَمْ تَسْـتَكَمِلِ اللَّـيْلَ بَـيْنَ المَـرِّ وَالْقَفَـلِ[2]

نجد البوصيري يقول عنه:

75- وَترَقَّـى بِـهِ إِلـى قَـابِ قَـوْسَيْـ ـنِ وَتِلْـكَ السَّـعَادَةُ الْقَـعْسَاءُ[3]

كذلك نجد الشقراطيسي يتحدث عن القرآن وإعجازه بقوله:

39- أَعْجَزْتَ بِالْوَحْيِ أَرْبَابَ الْبَلَاغَةِ فِي عَصْـرِ الْبَيَـانِ فَضَـلَّتْ أَوْجُـهُ الْحِيَـلِ

40- سَـأَلْتَهُمْ سُـورَةً فِـي مِثْـلْ حِكْمَتِـهِ فَـتَلَّهُمْ عَـنْهُ حَـيْنُ الْعَجْـزِ حِيـنَ تُـلِي[4]

نلاحظ أن البوصيري يتطرق إلى الموضوع نفسه قائلًا:

186- أَعْجَـزَ الْإِنْـسَ آيَـةٌ مِنْـهُ وَالْجِـنَّ فَـــهَلَّا يَـــأْتِي بِبَعْضِـــهَا الْبُـلَغَـــاءُ[5]

إن الغرض الذي رُمتُ إليه، والهدف الذي توخّيته من بعض هذه المقارنة بين القصائد الثلاث هو تسليط الأضواء وإزاحة أستار التغييب عن القصيدة الشقراطسية، وصاحبها، باعتباره رائِدَ هذا المديح، والسّبّاق إلى الشعر التاريخي، وخاصّة وهو سابق على الإمام البوصيري بأكثر من قرنين من الزمان. صحيح أن الخيال ورقّة الألفاظ لَعِبا دَوْرَهُمَا سواء في البردة أو الهمزية، لكن لا ننسى أن البديع في المديح النبوي كان في بداياته على عهد الشقراطيسي (ت 466هـ)، ودون أن ننسى كذلك "أن فن المديح

---

[1]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 45.

[2]- نص القصيدة الشقراطسية، ص:.....

[3]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 45.

[4]- نص القصيدة الشقراطسية، م. س.

[5]- المنح المكية في شرح الهمزية، ابن حجر الهيتمي (ت 974هـ)، م. س، ص: 51.

وجد صيغته المكتملة حين احتكّ بالتصوف، بعد أن ازدهر هذا الأخير وانتشرت مذاهبه وطرقه"[1].

ب- تعشيرها-توشيحها-تخاميسها-تشطيرها-شروحها:

*** تعشيرها:**

"أول من اشتغل بهذا القصيد فعشره هو أبو الفضل يوسف بن النحوي (ت 513هـ) صاحب المنفرجة، وتلميذ عبد الله الشقراطيسي، ولقد أبدع وأجاد طالِعُه:

إذَا سَرَى ناسمُ الأسحارِ والأُصُلِ ... بِروضةٍ روضتِها الشمسُ في المَحَلِ
واختالَ عِطْفَ الرُّبَى فِي الحِلِّ والحَلَلِ ... وأضحكَ الزهرَ دمعُ الواكفِ الهَطِلِ
وقلَّدَ الطَّلُّ جِيدَ السَّوْسَنِ الخَطِلِ ... ولاحَظ النرجسُ الوَسْنانَ عن مُقَلِ
قَدْ وَرَدَتْ وجْنَاتُ الورْدِ عَنْ خَجَلِ ... فَحَيِّ بالطِّيبِ عَنِّيَ طيبةَ وَقُلِ
(الحمدُ لله مِنّا باعثَ الرُّسُلِ ... هَدَى بأحمدَ مِنّا أَحْمَدُ السُّبُلِ)

وهو على نسق واحد في الرقة والسبك، وقد سماه صاحبه أبو الفضل "بالسيباج المعشر المنشر والمنهاج"[2].

*** توشيحها[3]:**

"ممن وشحها ابن زنون الشاعر التوزري الفحل، ومطلع توشيحه المسمى "التسبيح الاشراف والتوشيح المستطرف":

سبحان من خلق الأكوان بالأزل ... سبحان من خلق الإنسان من عجلِ
سبحان ذي العرش إن نَأْمَنْه في وجل ... لارب إلاه دينا لاسْمه الجَلَلِ
واللهُ أكبرُ إنْ ا جِئْتَهُ فَقُلِ ... (الحمد لله منا باعثُ الرُّسُلِ

---

[1]- الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، عباس الجراري، مر. س، 143/1.

[2]- أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 33-34.

[3]- مر. ن، ص: 34.

هــدى بأحــمدَ منــا أحمــدَ السُّبُــلِ) فـــأَبْلغ المُتَدَنِّـــيَ غايـــةَ الأَمَـــلِ

ولقد أبدع فيه صاحبه حتى كاد أن يكون نظمه أبلغ من الأصل[1].

*** تخاميسها:**

خُمِّس هذا القصيد مرات عدة أذْكر بعضها:

أوّلها: تخميس ابن الشباط المصريِّ التّوْزَرِيِّ (ت 681هـ) قال الرّحّالة العبدري (ت 700هـ): "وقد قرأت تخميسه على صاحبنا الفقيه أبي عبد الله بن هريرة، وحدثني به عنه قراءة وأوله:

اِبْـدَأ بِحَمْـدِ الَّـذِي أَعْطَـى وَلَـمْ تَسَـلِ وَذدْ بِــهِ رَيْــبَ رَيْــنِ الْأَيْــنِ وَالْكَسَــلِ
فَالْحَمْـدُ أَحْلَـى جَنًـى مِـنْ طَيِّـبِ الْعَسَلِ الْحَمْـــدُ للهِ مِـــنَّا بَـــاعِثِ الـــرُّسُلِ
هَــدَى بِأَحْمَــدَ مِنَّــا أَحْمَــدَ الــسُّبُلِ

وهو تخميس لا بأس به. وَوَسَمَهُ "بسمط الهدي في الفخر المحمدي"[2]. سلك فيه مسلك صاحبه من حيث الميولُ إلى الجناس وأنواع البديع، وإن مال إلى الصنعة إلا أنه لا يظهر فيه التكلف والالتزام أو التنافر والتضاد، وهذا من قوة عارضة ابن الشباط في نظم القريض، وصناعته في الشعر تعد طبيعة عند الشعراء.

وخمّسها أيضًا، الفقيه القاضي أبو عمرو عثمان بن عتيق المعروف بابن عريها (ت 659هـ)[3]. قال الرّحّالة العبدري: "وقد قرأت تخميسه على شيخ من أصحابه، يعرف بأبي إسحاق التلمساني، وحدثني به قراءة عنه، وأوله:

اِرْفَـعْ مِـنَ الْعَلَـمِ الْأَسْـنَى عَلَـى طَلَـلِ فَكَـمْ ضَـحِيتَ وَلَـمْ تَفْـزَعْ إِلَـى ظُلَـلِ

---

[1]– أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 33–34.

[2]– الرحلة العبدرية، تح: زين العابدين بن الطاهر، م. س، 144/1.

[3]– كذا سمّاه الرحالة العبدري في رحلته، الرحلة العبدرية، م. س، 145/1. وسمّاه الزركلي: "ابن عَرَبِيّة"، الأعلام، الزركلي، مر. س، 209/4.

فَـإِنْ عَـشَوْتَ إِلَـى نَـارِ الْهُـدَى فَقَـلِ الْحَـــمْدُ للهِ مـــنَّا بَاعِـــثِ الرُّسُـــلِ
هَـــدَى بِأَحْمَـــدَ مِنَّـــا أَحْمَـــدَ الـــسُّبُلِ"[1]

أمّا التخميس الثالث فهو ما حكاه العبدري كذلك في رحلته متحدثا عن القصيدة الشقراطسية. قال: "وخمسها أيضا الفقيه الأديب الفاضل الأوحد أبو بكر محمد ابن الحسن بن يوسف بن حَبِيشٍ (ت 675هـ) رحمه الله. وهو من المتقنين المُجَوِّدِينَ، وذوي الفضائل المُبرَّزين. واعتنى بها اعتناء تامًا، وتصرف فيها على أوجه كثيرة من تخميس وغيره. وكرر تخميسها ثلاث مرات. وسماها "القُرُبُ الثلاثُ". حدثني بها كلِّها عنه، صاحبنا الفقيه أبو عبد الله بن هريرة إجازة ومناولة، في أصله بخطه الذي قرأه عليه، وقد عَلِقَ بحفظي مطلع أول تخميس منها، وهو قوله:

عَزْلُ الشَّبَابِ قضَـى أنَّ الْمَشِيبَ وَلِـي فَمَـا التَّغَـزُّلُ مِـنْ قَـوْلِي وَلَا عَمَلِـي
حَمْـدُ الْإِلَاهِ وَمَـدْحُ الْـمُصْطَفَى أَمَلِـي الْحَمْـــدُ للهِ مِـــنَّا بَاعِـــثِ الرُّسُـــلِ
هَـدَى بِأَحْمَـدَ مِنَّـا أَحْمَـدَ الـسُّبُلِ"[2]

وأمّا التخميس الرابع، فهو تخميس كُتب في مقدمة "صِلَةُ السَّمْطِ وسِمَةُ المَرْطِ" لابن الشباط المصري التوزريِّ (ت 681هـ) –على حدِّ قول الهادي مصطفى التوزرِيِّ– وتضيف: "قال الشيخ الإمام الفاضل أبو الفضل محمد بن يوسف بن علي الغزنوي بجامع الخطبة بالقاهرة المحروسة، قال: أنشد الشيخ الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي البغدادي بشرقي مدينة السلام بجامع القصر، يوم الجمعة، سلخ ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، قال: قرأت على الشيخ أبي الحسن المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الصيرفي، وهو يسمع، قلت: أخبركم أبو الحسن محمد بن عبد الواحد ابن محمد المعروف بابن زوج الحرة، قرأت عليه، وابنته تسمع، وأقرباؤه، قال: أخبرنا أبو عمر محمد بن العباس بن محمد زكرياء بن جبويه الخزاز، قراءة عليه قال حدثنا أبو الحسن أحمد بن جعفر بن محمد بن عبد الله

[1]– الرحلة العبدرية، م. س، 145/1.
[2]– م. ن، ص: 146.

المنادي، قال: استرويت من أبي سليمان أحمد بن عتيق القبسي العاموري حرس الله ذاته، وحفظ مكانه، وهي وسيلة إلى الله تعالى، يعتمل عونها ويعتقد صونها:

أَرْبِعْ مِنَ الْعِلْمِ الأَسْنَى عَلَى طَلَلِ فَكَمْ ضَحِيتَ وَلَمْ تَفْزَعْ إِلى طُلَلِ
وَإِنْ عَشَوْتَ إِلَى نارِ الهُدى فَقُلِ لْـ أَحَمْدُ لله مِنّا بَاعِثِ الرُّسُلِ
هَدَى بِأَحْمَدَ مِنَّا أَحْمَدَ السُّبُلِ)
مِنْ سِرِّ عَدْنَانَ بَدْرٌ غَيْرَ ذِي سُرُرِ جَالي المُناسِب عَالي الْكَعْبِ مِنْ مُضَرِ
مِنْ دَوْحَةٍ فَرْعُها فِي النَّضْرِ ذُو نَضَرٍ (خَيْرُ البَرِيَّةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرِ
وَأَكْرَمَ الْخَلْقِ مِنْ حَافٍ وَمُنْتَعِلِ)
جَلّتْ نُبُوَّتُهُ الزَّهْرَاءُ مَفْرِعُهَا فَأَنْسَتِ الْمَغْرِبَ الدُّنْيَا وَمَشْرِقِها
تُثْنى إِلَيْهِ بِمَا فِيها لِتَرْمُقَهَا (تَوْرَاتُ مُوسَى أَتَتْ عَنْهُ فَصَدَّقَهَا
إِنْجِيلُ عِيسَى بِحَقٍّ غَيْرِ مُفْتَعِلِ)
يَا عِزَّ مِنْ أَحْمَدَ الْعِزُّ الَّتِي عَبَدَتْ عَدَّتْهُ إِلَى مُعَدٍّ خَيْرِ مَنْ وَلَدَتْ
وَأَعْرَبَتْ يَعْرُبٌ عَنْ بَعْضِ مَا شَهِدَتْ (أَخْبَارُ أَحْبَارِ أَهْلِ الكُتْبِ قَدْ وَرَدَتْ
عَمَّا رَأَوْا وَرَوَوْا فِي الأَعْصُرِ

ولعَمْرِي، أنها لأقربُ وسيلةٍ إلى اللهِ، أنها دعاءُ العابدِ القانتِ، وتسبح القلوب الخاشعة إلى ربها، راضيةً مرضيةً –الله نور السماوات والأرض، وقد قال سبحانه وتعالى: ادعوني استجبْ لكم، وهذا الدعاء الصادق الذي يغمر الألبابَ بنوره وصفائِه عندما يقرؤه القارئ، إنها الأنشودة الروحية التي طالما تُغُنِّيَ بها بجامع الخطبة بالقاهرة، وبجامع القصر ببغداد، دار السلامِ، بالجهة الشرقية من بلاد الرشيد"[1].

وممن خمّسها أيضًا فأبدع وأجاد، الشيخ محمد النيفر (ت 1277هـ) مطلعه:

باسْمِ الإلاهِ وحَسْبِي حصنُ كلِّ وَلِيٍّ ثم الصلاةُ على المختارِ في الأَزَلِ

[1]– أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 35–36–37.

والأُلَى والصحْبِ مَا نِيلَ المُنَى وتَلَى (الْحَمْدُ للهِ مِنَّا بَاعِثِ الرُّسُلِ
هَدَى بِأَحْمَدَ مَنًّا أَحْمَدَ السُّبُلِ)[1]

*** تشطيرها:**

شطّرها الشيخ إبراهيم بن سالم (ت 1937م) مطلعها:

(الْحَمْدُ للهِ مِنَّا بَاعِثِ الرُّسُلِ) وفَضْلُ المُصْطفى في القَوْل والعَمَلِ
وقد هَدانا إلى سُبل الهِدَايَةِ إذْ (هَدَى بِأَحْمَدَ مَنًّا أَحْمَدَ السُّبُلِ)[2]

*** شروحها:**

أول من اعتنى بشرح هذا القصيد أبو عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ)، ناظم القصيدة الشقراطسية، يحققه أحمد رجب أبو سالم[3].

وجاء في نفح الطيب: "أن أبا الحسن بن عبد الرحمان ابن عظيمة الإشبيلي (ت 543هـ) جاء إلى إفريقية، وأخذ عن الإمام أبي عبد الله المازري التميمي (ت 536هـ)، وجعل شرحًا قيمًا على الشقراطسية"[4].

وفي "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان": "أنَّ أبا إسحاق إبراهيم ابن يوسف بن عبد الملك بن عبد الله بن سالم بن عبد الملك بن عوانه وضع تأليفا على الشقراطسية في ثلاثة أسفار، صاحب كتاب "أنسُ النُّسَاكِ المُعْرب عن فضائل أهل المَغْرب""[5].

---

[1]– معجم ما كُتب عن الرسول وأهل البيت، عبد الجبار الرّفاعي، ميدان حسن آباد، د. ط، 1381هـ، طهران، القسم الأول: السيرة النبوية، 242/4. – ديوان التخميس، دائرة المعارف الحسنية، محمد صادق محمد (الكرباسي)، المركز الحسيني للدراسات، د. ط، د. ت، لندن، 36/1.

[2]– أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 38.

[3]– الخبر مذكور في مجلة الأزهر، مقال أحمد رجب عن الشقراطسية، ع. ن، س. ن، ص: 2503.

[4]– نفح الطيب، المقري (ت 1041هـ)، م. س، 156/1.

[5]– فهرست ابن خير (ت 575هـ)، م. س، ص: 375. – التكملة لكتاب الصّلة، ابن الأبار البلنسي (ت 658هـ)، تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، د. ط، 1995م، لبنان 324/1-

وشرح العلامة شهاب الدين أبي شامة عبد الرحمان بن إسماعيل المقدسي (ت 665هـ)، دراسة وتحقيق: مصطفى بن عمر المسلوتي، إشراف: محمد يسف، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا من دار الحديث الحسنية بالرباط، 1990م، والجزء الثاني الخاص بالتحقيق بحوزتي، أمدّني إيّاه مصطفى المسلوتي بمساعدة أستاذي المؤطر فضيلة الدكتور خالد سقاط. وحقق هذا الشرح كذلك أحمد رجب أبو سالم[1].

وابنُ الشبّاط المصري التوزريِّ (ت 681هـ)، بعد تخميسه شرَحَ القصيد، مع التخميس في ثلاث شروح: كبير، ومتوسط، وصغير[2]. أما الشرح الكبير المسمى "بصلة السمط وسمة المرط، "يوجد منه الجزء الثالث والأخير بالمكتبة الخلدونية تحت عدد، 619 ومقدمة الكتاب مستقلة عن جزئها الأول بمكتبة العلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب، وكانت توجد نسخة بمكتبة الجامع الأعظم، تحت عدد واحد، غير أن الأيادي قد تصرفت في هذا الكتاب التصرفَ السيءَ، فأفقدته، ولم يبق للمكتبة المذكورة عَدَا العدد المذكور، أما الشرح المتوسط فلا نعلم عليه شيئا، ولا أين يوجدُ. والشرح الصغير المسمى "اختصار ابن الشباط على الشقراطسية" يوجد بالمكتبة العاشورية"[3].

ويُردف صاحب أعلام الأفارقة: "وممّا يدل على تبحر ابن الشباط في العلوم وسَعَةِ الإدراك، الشرحُ الكبير، الذي أبدَع فيه إبداعا فريدا، حيث أنه يتكلم على البيت من جميع النواحي، لغةً وصرفاً ونحواً وبلاغةً وتاريخاً، وكلما وجد مَنْفَذاً للكلام، سواء أكان في الموضوع أم خارجا عنه، إلا وتحدث طويلا، حتى يُنْسِيَكَ أنك تطالع شرح قصيدة معينة، أو في موضوع خاص، وهذا النوع من الكتابة هو حالُ جميعِ الكتاب القدماء، في سالف العصور"[4].

---

[1]– مجلة الأزهر، مقال أحمد رجب أبو سالم عن الشقراطسية، ع. ن، س. ن، ص: 2503.

[2]– عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسية من عالم وأديب، محمد النيفر، وتذييل استدراك: علي النيفر، دار الغرب الإسلامي، ط. 1، 1996، بيروت، 146/1.

[3]– أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 39.

[4]– مر. ن، ص. ن.

وممّا يقوله ابن الشباط: "يئست من معارضتها الأطماع وانعقد على تفضيلها الإجماع، فطبقت أرجاء الأرض، وأشرقت منها في الطول والعرض"[1].

وممّن شرحها شرحًا مطوّلا في عشرة مجلدات، العلامةُ ابن غازي المكناسي (ت 910هـ) على ما حكاه الإمام أحمد بن إدريس الحسني المغربي الفاسي (ت 1253هـ)، كما ذكر أن بدر الدين بن جماعة أبا عبد الله الكناني الحموي (ت 733هـ) شرحها في مجلد واحد[2].

وقال ابن مريم المليتي المديوني التلمساني (ت 1014هـ): "إن الشيخ أحمد بن محمد بن أبي بكر ابن مرزوق التلمساني المتوفى سنة 842هـ، وضع شرحا سماه: المفاتيحُ القَرْطَاسية في شرح القصيدة الشقراطسية"[3].

"وبالمكتبة العبدلية يوجد شرحٌ مختصر لأبي عبد الله محمد المحجوب، ذكر في مقدمته أنه اقتبسه من شرح ابن الشباط، وبمكتبة الجزائر والمتحف البريطاني أما بالأولى فيوجد شرح أبي عبد الله محمد المحجوب ضمن مجموعة كتب أخرى، ومنفرد بالثاني"[4].

وشرحها كذلك محمد بن حميد بن عثمان بن أبي بكر التواتي (ت 1160هـ)، وسمّاه: "الدروع الفاسية في حل ألفاظ الشقراطسية". ومنه نسخة في دار الكتب المصرية برقم (1227 – شعر تيمور)[5].

---

[1]– الرحلة العبدرية، م. س، 143/1.

[2]– العقد النفيس في نُظُم جواهر التدريس، أحمد بن إدريس الحسني المغربي الفاسي (ت 1253هـ)، دار جوامع الكلم، د. ط، د. ت، القاهرة، ص: 186.

[3]– البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ابن مريم التلمساني (ت 1014هـ)، تح: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، د. ط، 1908م، الجزائر، ص: 210، ترجمة ابن مرزوق الحفيد.

[4]– أعلام الأفارقة، مصطفى التوزري، مر. س، ص: 41.

[5]– مجلة الأزهر، مقال أحمد رجب أبو سالم عن الشقراطسية، ع. ن، س. ن، ص: 2503.

ونصل إلى شرحِ أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) على الشقراطسية، وهو موضوع الأطروحة (تقديم وتحقيق).

المبحث الثالث: البناء الفني للبديعية الشقراطسية

المطلب الأول: هيكل القصيدة.

المطلب الثاني: موسيقى القصيدة (الإيقاع الخارجي).

المطلب الثالث: الإيقاع الداخلي المميز للامية الشقراطيسي.

المطلب الرابع: ألوان الفنون البديعية في الشقراطسية.

المبحث الثالث: البناء الفني للبديعية[1] الشقراطسية.

تميزت القصيدة العربية القديمة بعدد من السمات والخصائص، يمكن حصرها في جانبين هما: الهيكل والمحتوى، أو المبنى والمعنى، وانطلاقا من هذا يمكن أن تدرس القصيدة من جانبين اثنين هما:

المطلب الأول: هيكل القصيدة.

ويتكون هيكل القصيدة من مجموعة من المفاصل هي:

أ- المطلع أو المقدمة:

اعتبر النقاد أن مطلع القصيدة ينبئ عن براعة الشاعر وتمكنه من البيان، وهذا ما سمي عند أصحابها بالمقدمة الطللية أو الغزلية قديما، أو (براعة الاستهلال) عند أصحاب المديح. يقول ابن رشيق: "وبعد، فإن الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي للشاعر

---

[1]- البديعيات: عرّفها علي أبو زيد بقوله: "البديعية: قصيدة طويلة، في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، على بحر البسيط، يتضمن كل بيت من أبياتها نوعا من أنواع البديع، يكون هذا البيت شاهدا عليه، وربَّمَا وُريَ باسم النوع البديعي في البيت نفسه، في بعض القصائد" البديعيات في الأدب العربي: نشأتها، تطورها، أثره، علي أبو زيد، عالم الكتب، ط. 1، 1983م، بيروت، ص: 46.

ويقول زكي مبارك، وهو يتحدث عن أثر البردة فيقول: "إن ابن جابر، قد شغل نفسه بمعارضة البردة، ولكن أي معارضة، لقد ابتكر فنا جديدًا هو (البديعيات)، وذلك أن تكون القصيدة في مدح الرسول، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فن من فنون البديع" المدائح النبوية في الأدب العربي، زكي مبارك، صيدا، د. ط، 1935م، بيروت، ص: 169.

ويجمع سعد سليمان حمودة بين المديح والتوشية البديعية، في قوله: "البديعيات نمط من قصائد المدح وخاصة مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ضمن ناظموها كل بيت منها لونا أو محسنا من محسنات البديع" البلاغة العربية، سعد سليمان حمودة، دار المعارف، د. ط، د. ت، مصر، ص: 329.

في ظل هذه التعاريف، نلاحظ ترجيح كفة التحسين والتنميق، ولهذا دلالته: إذ يحسِّد جليًّا الانتقال من التنسق المعرفي إلى النسق الشعري، في إطار التأليف البلاغي، وباعتبار البديعيات منظومات في البديع، فإنها تنفرد وتتميّز بأنساقها المعرفية المصبوغة بألوان بديعية، وهذا هو الشأن بالنسبة لقصيدة الشقراطسية لصاحبها أبو محمد عبد الله بن يحيى الشقراطيسي (ت 466هـ).

أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"[1].

ولهذا اشترط النقاد في القديم[2]، والحديث على ناظمي القصائد أن يكون مطلع القصيدة دالا على ما بنيت عليه، مشعرا بغرض الناظم من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو، وكذلك في النثر. فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسان هذا الميدان، وإن لم يحصل له براعة الاستهلال فليجتهد في سلوك ما يقوله في حسن الابتداء.

وما سمي هذا النوع "براعة الاستهلال" إلا أن المتكلم يفهم غرض الكلام عند رفع صوته به.

قال زكي الدين بن أبي الإصبع براعة الاستهلال هي: "ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله"[3].

---

[1] – ص: 454، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ونقده، ابن رشيق (ت 456 هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط. 5، 1981م، بيروت.

[2]– وقد أدرك القدماء والمحدثون أهمية الجملة الأولى في النص، بل الكلمة الأولى في الجملة، فيقول السيوطي: "وسئل الشيخ... عن الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح، والكهف بالتحميد... وأجاب ابن الزملكاني بأن سورة (سبحان) لما اشتملت على الإسراء الذي كذب المشركون به النبي صلى الله عليه وسلم، وتكذيبه تكذيب لله تعالى، أبى بـ(سبحان) لتنزيه الله عما نسب إليه ولنبيه من الكذب. وسورة الكهف لما أنزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحي مبينة أن الله تعالى لم يقطع نعمته عن نبيه ولا عن المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة... وأما سورة سبأ فلما تضمنت ما منح سبحانه داود (عليه السلام) من تسخير الجبال والطير والريح وإلانة الحديد ناسب ذلك ما به افتتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقه، فهو المسخر لها والمتصرف في الكل بما شاء، فقال تعالى (أول سبأ): (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة) وهذا أوضح التناسب. فالارتباط واضح بين افتتاح كل من هذه السور وبما يليها من موضوع السورة والقضايا التي تناقشها.

الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرْلي، دار الكتاب العربي، 1999م، بيروت، ج: 2، النوع: 62 في مناسبة الآيات والسور، فصل مناسبة أسماء السور لمقاصدها.

[3]– تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع (ت 654هـ)، تحقيق: حنفي محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، د. ط، د. ت، ص: 108.

واستهلال الشيخ صفي الدين الحلي في هذا الباب، أي باب فن البديعيات يعده النقاد من أحسن الاستهلالات وأبرعها؛ إذ جاء كما يلي[1]:

إِن جِئتَ سَلعًا فَسَلْ عَن جَيرَةِ العَلَمِ وَاقِرَ السَلامَ عَلى عُربٍ بِذي سَلَمِ

فقد شبب بذكر سلع والسؤال عن جيرة العلم، والسلام على عرب بذي سلم، ولا يشكل على من عنده أدنى ذوق أن هذه البراعة صدرت لمديح نبوي.

كما نجد مطلع البردة أيضا في هذا الباب من أحسن البراعات أيضا وهو:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم

فمزج دمعه بدمه عند تذكر جيران بذي سلم من ألطف الإشارات إلى أن القصيدة نبوية في مدح خير البرية (صلى الله عليه وسلم).

ولقد سجل لنا مؤرخو الأدب نماذج أخرى لمطالع قصائد المدح النبوي اتخذت أسلوبًا جديدًا في البدء، كالاستفتاح بالتحميد... مثلما نجده في القصيدة التي ظهرت في القرن الخامس الهجري، على يد شاعر أديب، وعالم فقيه، مغربي الأصل والمنشأ والممات، وهي من بنات المديحيات، مزخرفة بالمحسنات، ومطروزة بسيرة سيد المخلوقات، سيدنا محمد عليه أفضل السلام وخير الصلوات، وقد استهلها ناظمها (بالحمدلة) إشارة منه إلى عظمة الموضوع المعالج، وتقربا بها إلى الله عز وجل، وتيمنا بالبركة والتيسير، وحسن الجزاء...، فكان بذلك مبدعًا لنموذج فني[2] تمثل في البديعيات، ورائدًا لاستهلال فني لمطالع قصائد المديح النبوي[3]؛ مقتديا في ذلك بكتاب

---

[1]– ديوان صفي الدين الحِلي (ت 750هـ)، دار صادر، د. ط، د. ت، بيروت، ص: 685.

[2]– يعد الشقراطيسي (ت 466هـ) من الناحية التاريخية أقدم من البوصيري (ت 695هـ) ومن صفي الدين الحلي (ت 750هـ) اللذين ينسب إليهما مؤرخو الأدب ريادة ابتداع فن البديعيات، ومن ثم يمكن أن يعد الشقراطيسي رائدا لهذا اللون الفني بحكم الأسبقية الزمنية.

[3]– لشعر المديح النبوي مطالع تعتمد الوقوف مؤسسا جماليا تستهل به المدح، فتقف على المكان (قباب، مساجد، مواقع غزوات، ...) باكية ومستذكرة ومتشوقة للقاء، ثم تتدرج نحو النسيب الرمزي المتراوح نحو محبة الرسول صلى الله عليه وسلم، فتمدح خصاله وصفاته وأخلاقه...

الله تعالى التي استهل بالحمد، وباستهلالات الخطب ذات المرجعيات الإسلامية وتمثل هذا الاستهلال الفني الرائد في قصيدة الشقراطيسي التي بدأها بقوله:

1 – الْحَمْـدُ لِلَّـهِ مِـنَّا بَاعِـثِ الـرُّسُلِ هَــدَى بِأَحْمَــدَ مَنَّــا أَحْمَــدَ السُّــبُلِ

2 – خَيْرُ البَرِيَّـةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ وَأَكْــرَمُ الْخَلْــقِ مِــنْ حَــافٍ وَمُنْتَعِــلِ

ب– التخلص أو الخروج:

والتخلص هو الانتقال من غرض إلى آخر انتقالا لطيفا، وغير مشعر بعملية الانتقال، لكي لا يحس المتلقي أن القصيدة متقطعة الأجزاء والمعاني، بل يشعر كأنه في وحدة متماسكة الأطراف والمعاني. ومن الذين وقفوا على هذا الجانب الحساس من القصيدة ابن رشيق الذي تناوله في موضعين سماه في الأول (خروجا) وهو "أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه"[1] كقول الشقراطيسي حيث خرج من الحمدلة إلى المدح بأن ختم البيت الأول بذكر النبي صلى الله عليه وسلم باسمه أحمد ثم تمادى في مدح هذا الأحمدي بأنه خير البرية من بدوها وحضرها وأكرم الخلق على الله من حاف ومنتعل. حتى كأنك تحس أنه لم ينتقل من براعة استهلال إلى موضوعه المقصود وهو المدح.

ج– الخاتمة:

إذا كان المقطع مفتاح القصيدة، فإن الخاتمة هي قفلها وآخر ما يبقى منها، وقد نظر إليها النقاد من نفس الزاوية التي نظروا إلى براعة الاستهلال، يقول ابن رشيق: "... وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكمًا: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أول الشعر مفتاحًا له وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه[2].

[1]– العمدة لابن رشيق (ت 456هـ)، م. س.

[2]– ص: 239، العمدة لابن رشيق، م. س.

والشقراطيسي ممن أحسن الختام والقفل، حيث ختم بديعيته بخير ما ختم به الناس كلامهم، واقتداء بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام الذي قال: "**لا تجعلوني في أعجاز كتبكم كقدح الراكب**"[1]، أي لا يخرجه إلا عند الحاجة، بل اجعلوني في أول الكلام ووسطه وآخره، وفي رواية أخرى عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه قال: "**الدعاء محجوب عن السماء حتى يصلى على محمد وعلى آل محمد**"[2]. وهذا ما استمسك به الشقراطيسي في قصيدته، حيث بدأها بالحمدلة ثم حشاها بفضائله ومعجزاته وصفاته وأخلاقه، ثم ختمها بكثرة الصلاة عليه في الإشراق والأصل.

المطلب الثاني: موسيقى القصيدة (الإيقاع الخارجي).

اختار الشاعر –الشقراطيسي– لقصيدته بحر البسيط[3] أو وزنه، الذي صار

---

[1]– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، علي بن أبي بكر الهيثمي، كتاب الأدعية، باب فيما يستفتح به الدعاء من حسن الثناء على الله سبحانه والصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ح. ر: 66. قال الهيثمي: رواه البزار وفيه موسى بن عبيدة.

[2]– م. ن، كتاب الأدعية، الباب نفسه، ح. ر: 17278، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات.

[3]– بحر البسيط في الشعر العربي بمنزلة السُّداسي عند اليونان، والمرسل عند الإنجليز، والمُزدوج عند فرنجة القرن الثامن عشر. والبسيط يحُل المكان المتقد في شعر العامّة باسم "الكان وكان" أو "إلدوبيت" (في السودان يسمون الكان وكان بالدوبيت) علاوة على أنه مقدم مرموق المكان بين أشعار الفصحاء. "المرشد لفهم أشعار العرب"، عبد الله الطيب، ط. 3، 1989م، الكويت، ج. 1، ص: 435.

البسيط على وزن فعيل بمعنى مفعول، قال الوطواط (ت 573هـ): "البسيط وهو مبني على مستفعلن فاعلن ثمانية أجزاء، وإنما سمي بسيطًا لانبساط الأسباب في أول أجزائه في الدائرة وهن يفككن من دائرة المختلف" أي تواليها في أوائل أجزائه السباعية، إذ في كل جزء سباعي، سببان متواليان. وقيل: لانبساط الحركات في عروضه وضربه".

"المنظومة الموسومة في العروض والقوافي والمصطلحات الموسومة"، رضوان النجار، مكتبة شمس، ط. 1، 2007م، تلمسان، ص: 155.

ينظر العلاقة بين الوزن والموضوع في كتاب "منهج البلغاء وسراج الأدباء"، حازم القرطاجني (ت 684هـ)، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، د. ط، د. ت، بيروت، ص: 266.

عرفا متبعا عند أصحاب البديعيات، وهو ذو ثمانية أجزاء، أربعة سباعية مقدمة على أربعة خماسية، موزعة بالتساوي على الصدر والعجز.

مســتفعلن فــاعلن مســتفعلن فعلــن مســتفعلن فــاعلن مســتفعلن فعلــن

والبسيط متعدد الأعرايض والضروب، لكن الشقراطيسي اختار أجودها، وهي العروض الأولى لتمام بيتها، وهاته على وزن (فعلن).

دخلها الخبن، والخبن زحاف حسن يستحسنه الشعراء، ويستلطفه النقاد، وقد أجرى هنا مجرى العلة اللازمة وجوبا التي لا تفارق البسيط أبدا.

ولم يتوقف الخبن في البسيط عند العروض، وإنما يدخل الأجزاء الواردة فيحشو بحر البسيط، ودخوله مستحسن مأنوس.

وحسن –أيضا– دخول الخبن الأجزاء السباعية الواردة أوائل الصدور والأعجاز.

1 – الْحَمْـدُ لِلَّــهِ مِنَّــا بَاعِـثِ الرُّسُـلِ هَــدَى بِأَحْمَــدَ مَنَّــا أَحْمَــدَ السُّــبُلِ

o l l l o l l o l o l o l l l o l l o l o l l o l l o l l l o l o o l l l o l l o l l

مســتفعلن–فعلــن–مســتفعلن– فعلــن مــتفعلن– فعلــن– مســتفعلن– فعلــن

122 – وَعَـادَ كُـلُّ عَـدُوٍّ عـزَّ جـانبُه قــد عــاذَ منــك ببَــذْلٍ غَيْــرِ مُبْتَــذَلِ

l l l o o l l l o l o l l l o o l l o l l l l l o l l o l o l o l l l o o l l l o l o

مــتفعلن–فعلــن–مســتفعلن–فعلــن مستفعلن–فعلن–مستفعلن–فعلن

وأحسن من هذا وذاك، سلامة الأجزاء السباعية الواردة في الحشو الداخلي، وحمايتها من أي زحاف، ولا يقدر على توفير الحماية لها واستعمالها صحيحة إلا المطبوعون، المُبدعون، وهذا حال صاحبنا الشقراطيسي على مدار مائة وثلاث وثلاثين

صدرا وعجزا بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون، "إنها صنعة ما بعدها صنعة، بل إنه إبداع ما بعده إبداع"[1].

ولذا كان هذا الاختيار المبدع عند الشقراطيسي لبحر وفق ما يتطلبه الغرض الشعري، والحس النفسي الموجود عند الشاعر.

ومع ذلك كله فإن في وزن البسيط أبهة وبهاء[2] وبساطة وطلاوة، وهي من عوامل الانسياب والسهولة والليونة، وهي صفات تناسب غرض المديح الموجود في نفس صاحب القصيدة، المنكسرة المشتاقة، والضعيفة المنهكة، بحب من تهوى، كما قال البوصيري:

نَعَمْ سَرَى طَيفُ مَنْ أهوَى فَأَرَّقَنِي والحُبُّ يَعْتَرِضُ اللَّذاتِ بالألَمِ[3]

فحبه فرض الله علينا، وجعله من علامة الإيمان، من لم يكن حب النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من كل شيء لم يتذوق طعم الإيمان. قال صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان... الحديث"[4]. ولا يناسب هذا الهيام والعشق في المحبوب من الأوزان إلا ما كان سهلاً، ليناً، ميسوراً، ومن هنا نقول إن الشقراطيسي قد وفق أو هدي لاختيار البحر المناسب لإفراغ تلك الشحنات التي كانت مكنونة في صدره، من لوعة الحب، والوجد الدائم.

*** القافية (الروي):**

وبعد البحر يأتي الروي والقافية، وهي آخر حرف من عجز البيت، وهي

---

[1]– ص: 155، المنظومة الموسومة في العروض والقوافي لرضوان النجار، م. س.

[2]– ص: 269، منهج البلغاء، حازم القرطاجني (ت 684هـ)، م. س.

[3]– ص: 238، ديوان البوصيري (ت ...هـ)، تح: محمد سيد كيلاني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، د. ط، 1973م، مصر.

[4]– "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان من كان اللهُ ورسولَه أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا..."، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، ح. ر: 43، من طريق أنس بن مالك.

"لامية"، من "القوافي الذلل"[1] التي تصلح لمعظم الأغراض الشعرية، زيادة على ذلك أنه أحد الحروف الستة في الهجاء العربي التي قيل إنها لا تخلو منها كلمة عربية الأصل وهي: اللام والراء والنون والفاء والباء والميم. وقد قالوا: "لومت لاما حسنة إذا عملتها"[2].

وقد اختار عبد الله الشقراطيسي لقصيدته المدحية "البديعية" حرف الروي "اللام"، وهو حرف هجائي مجهور[3]، يحتل مكانة عبر البَدَلْ والزيادة والأصول.

ولحرف اللام ست صفات[4] ذكرها ابن الجزري في صفات الحروف[5]:

... والانحـــــــراف صحـــــــا فـــي الـــلام والـــرا وبتكريـــر جعـــل

ويقول[6]:

لـــلام الاســـتفال مـــع وســـط فـــتح رخـــو وذلـــق ثـــم همـــس قـــد رســـم

ومخرجه[7] من المخارج الستة عشر التي ذكرها علماء الصوتيات أو التجويد هو من حافة اللسان، من أدناها إلى منتهى طرفه بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى مخرج اللام.

---

[1]– ج 60/1، المرشد إلى فهم أشعار العرب، عبد الله الطيب، م. س.

[2]– ص: 4102، لسان العرب، ابن منظور، تح: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، د. ط، د. ت، القاهرة، مادة: "لوم".

[3]– الجهر–لغة– الإعلان –واصطلاحا هو جري النفس عند النطق بالحرف لقوة الاعتماد عليه في المخرج، وهو من صفات القوة– ينظر: "التوضيح لرواية ورش عن نافع"، محمد بن موسى الشرويني الجراري، دار هومه، ط. 2، 1997م، الجزائر، ص: 35. "سر الفصاحة"، ابن سنان الخفاجي، فصل في الحروف، د. ط، د. ت، ص: 33.

[4]– ص: 37، م. ن.

[5]– ص: 3، منظومة المقدمة فيما يجب على قارئ القرآن أن يعلمه، ابن الجزري الشافعي (ت 833هـ)، تح: أيمن رُشْدي سُوَيْد، دار نور المكتبات، ط. 4، 2006م، جدة، السعودية، باب صفات الحروف.

[6]– ص: 32–33–34، "انشراح الصدور في تجويد كلام الغفور"، وهبة سرور المحلي الشافعي، ط. 1، مطبعة العامرة المليجية.

[7]– ص: 33، سر الفصاحة، م. س.

وهو من حروف الجهر. ومعنى الجهر في الحرف أنه أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت.

ومنها أيضا الرخو[1]، والشديد[2]، والتي بين الشديد والرخو ثمانية أحرف وهي: الألف والعين والراء واللام والياء والنون والميم والواو ويجمعها في اللفظ: "لم يروعنا".

وهو حرف من الحروف المنفتحة[3]، وحروف الإطباق هي أربعة أحرف: الصاد والضاد والطاء والظاء. وما سواها من الحروف مفتوح غير منطبق.

وهو حرف منخفض ضد الاستعلاء[4]، وهو من حروف الذلاقة[5].

المطلب الثالث: الإيقاع الداخلي المميز للامية الشقراطيسي.

يتجاوز الطابع الموسيقي للقصيدة، البحر والقافية، والذي يسميه البعض –الموسيقى الخارجية– أو –الموسيقى الجاهزة– إلى إطار آخر له أهمية كبرى في نغم القصيدة وهو –الموسيقى الداخلية– أو –الموسيقى الطارئة– لأن الموسيقى الخارجية مشتركة بين جميع الشعراء، بمجرد أن يختار الشاعر بحر قصيدة ورويها فهو ملزم بإطار موسيقي ليس له الحق في الخروج عنه أو تجاوزه في القصيدة الكلاسيكية، بعيدا عن الموشحات أو شعر التفعيلة. أما الموسيقى الداخلية "وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء"[6] وبها تبرز خصوصية موضوعاتهم أيضا.

---

[1]– والرخوة الحروف التي لا تمنع الصوت أن يجري فيها. "سر الفصاحة"، م. س، ص: 35.

[2]– الشديد الحرف الذي يمنع الصوت أن يجري فيه. "سر الفصاحة"، م. س، ص: 34.

[3]– ضد الإطباق: "الإطباق أن يرفع المتلفظ بهذه الحروف لسانه ينطبق بها الحنك الأعلى فينحصر الصوت بين اللسان والحنك"، "سر الفصاحة"، م. س، ص: 36.

[4]– أن تصعد في الحنك الأعلى وهي سبعة أحرف: الحاء والغين والقاف والضاد والظاء والصاد والطاء، وما سوى ذلك من الحروف منخفض. "سر الفصاحة"، م. س، ص: 36.

[5]– الذلاقة أن يعتمد عليها بذلق اللسان، وهو طرفه، وذلق كل شيء حده. وهي ستة أحرف: اللام والراء والنون والفاء والباء والميم. "سر الفصاحة"، م. س، ص: 37.

[6]– ص: 78، "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، أحمد شوقي ضيف، دار المعارف، ط. 12، د. ت، القاهرة.

كما أنه من الصعب تحديد هذا النوع من الموسيقى كما صرح به شوقي ضيف في كتابه الفن ومذاهبه[1]، إلا أننا سنقف على بعض أبيات قصيدة الشقراطيسي لنحدد مدى نجاحه في ملاءمته لغرضه المدحي. وسنكتفي بعنصرين بارزين هما:

أ- التكرار الصوتي:

يقول ابن رشيق: "وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد. أو على سبيل الاستغاثة وهي في باب المديح"[2]. وهذا ما ينطبق على موضوع قصيدة الشقراطيسي بوضوح.

1 - الْحَمْـدُ لِلَّـهِ مِـنَّا بَاعِـثِ الـرُّسُلِ هَــدَى بِأَحْمَــدَ مَنًّــا أَحْمَــدَ السُّبُــلِ

2 - خَيْرُ البَرِيَّـةِ مِنْ بَدْوٍ وَمِنْ حَضَرٍ وَأَكْــرَمُ الْخَلْــقِ مِــنْ حَــافٍ وَمُنْتَعِــلِ

إذا تأملنا البيتين الأولين من قصيدة الشقراطيسي، اللذين أفتتح بهما قصيدته، التي يبرز فيها رحمة الله للخلق وهو أرحم الراحمين، الذين بعث لهم نبيا رحيما، قال تعالى: [❺] [3] الآية، نجد كثيرا من الكلمات تتكرر بلفظها أو بمشتقاتها في الصدر والعجز أو فيهما معا، وهذا ما يعرف بالتكرار الملفوظ، الذي تكرر في كلمات بعينها كما هو واضح في - الحمد، أحمد - مِنا، مَنا - خير البرية، أكرم الخلق - بدو، حضر - حاف، منتعل -

كما جاء هذا التكرار مصحوباً بنوع آخر من التكرار المعنوي الملحوظ، وهو ترديد اسم الجلالة والهدي، أحمد، الرسل، فهذه وإن اختلفت في اللفظ إلا أنها تشترك في الدلالة على الرسالة الإلهية التي بعثها الله على يد ولسان رسله إلى البشرية عامة،

---

[1]- م. ن، ص: 77 .

[2]- العمدة، ابن رشيق، م. س، ج: 2، ص: 76.

[3]- التوبة: 128.

وإلى الأمة المحمدية خاصة بقصد الرحمة والمحبة والغفران للخلق. لأنه يحب لهم النجاة والسعادة الدنيوية والأخروية.

وبهذا التكرار تكتسب هذه الأبيات طابعها المديحي، الرحيمي، الرحماني، وهي عبارة عن استغاثة.

ب- التلوين الإيقاعي:

وهو ما يعمد إليه الشعراء من تلوين داخلي للبحر الواحد، وذلك بما يدخلونه عليه من زحافات وعلل، أو بما يضفونعلى مقاطعه من تنغيمات تكسبه خصوصية وقدرة تعبيرية جديدتين، دون أن تخرجه عن إيقاعه الأصلي.

كما عرفنا سابقا أن البحر البسيط يتكون في الأصل من تفعيلتين تتكرران أربع مرات مرتين في الصدر ومرتين في العجز كما يلي:

1 - الْحَمْـدُ لِلَّــهِ مِنَّــا بَاعِـثِ الرُّسُـلِ هَــدَى بِأَحْمَــدَ مَنَّــا أَحْمَــدَ السُّــبُل

o l o l l o l l l o l o l o l l o l l l o l o l l o l l l o l o l o l l l o l l o

مســتفعلن-فعلــن-مســتفعلن- فعلــن مــتفعلن- فعلــن- مســتفعلن- فعلــن

والمقطع القصير يتكون من حركة وسكون [/0] فهو في الأصل يتكون من [28] ثمانية وعشرين مقطعا طويلا وقصيرا موزعة على عشرة مقاطع طويلة [/0]، وأربعة مقاطع قصيرة [/]، وهذا يعني أنه يغلب عليه طابع الثقل، لغلبة المقاطع الطويلة على القصيرة فيه بنسبة [10 إلى 04].

وإذا عرفنا أن المقاطع القصيرة تجعل البحر سريعا، والطويلة تجعله بطيئا، فالأولى تلائم الموضوعات العنيفة، بينما تلائم الثانية الهدوء والحزن وما إليهما، وهذا مما يسهل علينا تفسير سبب اختيار الشقراطيسي للبحر البسيط، فهو بثقل مقاطعه الطويلة أقدر من غيره على التعبير عما تنوء به نفسه من محبة وشوق وهيام تجاه

حبيبه صلى الله عليه وسلم، وهذا ما جاء في ترجمته أنه أنشدها على قبره صلى الله عليه وسلم.

ولم يكتف بذلك، بل تجاوز إلى تلوين المقاطع الطويلة بثقل جديد، حين استخدم المقاطع الممدودة القائمة على سكون الإستغراق[1] مثل: ال، نا، با، دا، سو، لي، وقد استخدمها للتقليل من سكون التركيز[2]: مثل، حم، أح، وهذا يُنبِئنا أن الدافع لذلك هو إكساب مقاطعه الطويلة ثقلا جديدا المبني على سكون الاستغراق الذي يفيد الدوام والاسترخاء أنسب للتعبير عن ذلك الهيام والعشق الذي كان يعانيه الشقراطيسي اتجاه محبوبه، وأقدر على تجسيد مشاعر الحب والشوق التي كان يجدها، والتي كانت تثقل نفسه المشتاقة.

هكذا يمكن أن نقول إن الشقراطيسي قد وفق لاختيار بحر البسيط، ذي المقاطع الطويلة الثقيلة، كما وفق تزويده بالتكرار الذي ساعده على إشاعة مشاعر الدفء والحنان، والحب والوجدان. كما نجح في استعمال التلوين الإيقاعي بتغليبه سكون الاستغراق على سكون التركيز، لتوسيع الإمكانات التعبيرية للبحر، لكي يكون أكثر قدرة على إشاعة هذه المشاعر والأحاسيس، وقد أسهمت قافية اللام المكسورة المطلقة في تعميق هذه المشاعر وتوسيع مداها إلى أبعد الحدود الممكنة.

المطلب الرابع: ألوان الفنون البديعية في الشقراطسية.

حفلت الشقراطسية بألوان البديع، اللفظي منه والمعنوي الذي تخلل كل أبياتها. وسأذكر هنا الألوان المتكررة ورودها في القصيدة:

أ- الجناس:

---

[1]- ص: 41، يفيد معنى الدوام، "تطور بناء الفني للقصيدة العربية"، الربيعي بن سلامة، دار الهدى، د. ط، 2006م، تلمسان.

[2]- ص: 42، سكون التركيز يفيد العنف، مر. ن.

1- الجناس المماثل: وقد حفل به أول بيت من القصيدة الشقراطسية في قوله:

- في البيت (01) في قوله: - أحمدَ - أحمدَ

- في البيت (14) في قوله: - حَالُ - حَالَ - حَالٍ

- في البيت (18) في قوله: - رِجْسٍ - رِجسِ

- في البيت (24) في قوله: - وحْلٍ - وَحَلِ

- في البيت (44) في قوله: - الخَبْلِ - الخَبَلِ

- في البيت (57) في قوله: - بَذْلٍ - بَدَلِ

- في البيت (77) في قوله: - مَسْكَةِ - مُسْكَةِ

- في البيت (80) في قوله: - آجِلُ - أَجَلِ

- في البيت (107) في قوله: - خَفَرٍ - خَفَرِ

- في البيت (127) في قوله: - اشْفَعْ - اشْفَعْ

2- الجناس المستوفى: نجد هذا النوع في:

- في البيت (01) في قوله: - مِنَّا - مَنًّا

- في البيت (13) في قوله: - ثَكْلى - الثَّكَل

- في البيت (14) في قوله: - حَالُ - حَالَ

- في البيت (27) في قوله: - مُبْتَهِلاً - مُبْتَهِلِ

- في البيت (40) في قوله: - حَيْنُ - حِينَ

– في البيت (46) في قوله: – إِرْسالِ – رِسْلٍ

– في البيت (54) في قوله: – ظَهَرَت – ظَهْرِه

– في البيت (65) في قوله: – النَّقْلِ – النَّقَلِ

– في البيت (67) في قوله: – جَهْلَ – جَهْلٍ، شابَ ، شَيْبَةُ.

– في البيت (68) في قوله: – وَعُتْبَةُ – يُعْتِبْ، تَعْطِفُهُ – العَواطِفُ

– في البيت (103) في قوله: – الصَّفْحِ – صَفْحاً

– في البيت (111) في قوله: – يُ ْمنٌ – يَمَنِ

3– جناس ناقص في:

– في البيت (06) في قوله: – مَنْطِقُ – نُطْقُ

– في البيت (22) في قوله: – خِلال – خَلَلِ

– في البيت (28) في قوله: – كَفَّيْكَ – كَفَّ، صَوَّبْتَ – صَوْبِ

– في البيت (32) في قوله: – مُضَرِ – مَضَرَّةِ

– في البيت (34) في قوله: – زَوْرِ – زَوْرَاءِ

– في البيت (43) في قوله: – سَمْعُ – سامِعِهِ

– في البيت (47) في قوله: – قَوْمٍ – قِوَامَ

– في البيت (54) في قوله: – الطَّلِّ – الطَّلَلِ

– في البيت (59) في قوله: – يَمْشِي – مَشْيِ، الكَعْبِ – الكُعُوبِ – الكَاعِبِ

– في البيت (67) في قوله: – جَهْلَ – مَجْهَلَةٍ

– في البيت (70) في قوله: – القَلْبِ – مُنْقَلِبٍ، جَعَلْتَه – جُعَلِ

– في البيت (73) في قوله: – أَمْسى – أَمْسِ

– في البيت (74) في قوله: – جُنْحٌ – يَجْنَحْ

– في البيت (75) في قوله: – يُقَادُ – قدِّ – يَمْشِي – مَشْيَ، مُشْرَباً – شارِبِ

– في البيت (81) في قوله: – أَعْتَقَتْهُ – عِتاقُ، رِقِّ – رِقَّةَ

– في البيت (82) في قوله: – بَاكٍ – بَاكِيَةٍ، سَجْلٍ – مُنْسَجِلِ

– في البيت (87) في قوله: – خَوافِقٌ – خَافِقين

– في البيت (97) في قوله: – أَهَلَّ – تَهْليل، الذُّبُلِ – يَذْبُلُ

– في البيت (103) في قوله: – طَوائِلِهم – طَوْلاً، مَقِيل – المُقَلِ

– في البيت (111) في قوله: – أَمْنٌ – الإيمانِ

– في البيت (114) في قوله: – دَوْلَتِه – الدُّوَلِ

– في البيت (116) في قوله: – أَعْراقُ – عِرَاق، يُتْرَك – التُّرْكِ، مِنْه – مِنَ

– في البيت (117) في قوله: – فُرْس – مُفْتَرَسٍ

– في البيت (119) في قوله: – جِذْمٌ – مُنْجَذِمٍ، جِذْل – مُنْجَدِل

– في البيت (121) في قوله: – شَرِقَت – شرْق

– في البيت (122) في قوله: – بَذْلٍ – مُبْتَذِل

– في البيت (123) في قوله: – النَّصْلِ – مُنْتَصِل

– في البيت (130) في قوله: – نَحَلْتُك – النُّحَلِ

– في البيت (131) في قوله: – جِلْدِي – جَلَد، قَلْبي – قِبَلِ

– في البيت (132) في قوله: – خَالِقَ – خَلْق

– في البيت (133) في قوله: – صَلِّ – وَاصِلْ

4– جناس مضارع:

– في البيت (04) في قوله: – أخْبار – أحْبار، رَأَوْا – رَوَوْا

– في البيت (52) في قوله: – الأَزَلِ – الأَزْرِ

– في البيت (56) في قوله: – نَفَر – نَفَل

– في البيت (57) في قوله: – بُدِّلَتْ – بُذِلْتَ، بَذْل – بَـْدر

– في البيت (73) في قوله: – الخَيْل – الخَوَل

– في البيت (77) في قوله: – الحِجْل – الخَجَل

– في البيت (78) في قوله: – أَرَحتَ – أَزَحتَ

– في البيت (99) في قوله: – شُعوبُ – شِعاب

– في البيت (110) في قوله: – الخَوْفُ – الخَيْف

– في البيت (111) في قوله: – أمْنٌ – يُمْنٌ

– في البيت (115) في قوله: – الشّام – شُؤْمٌ

– في البيت (118) في قوله: – الصِّين – صَوْنٌ

– في البيت (119) في قوله: – جِذْم – جذْل

– في البيت (122) في قوله: – عَاد – عاذَ

– في البيت (124) في قوله: – صَفا – صفْو

5– جناس لاحق:

– في البيت (14) في قوله: – صبرُ – صار

– في البيت (51) في قوله: – بِلالٌ – بَلاءً

– في البيت (52) في قوله: – إِزْل – يزَل

– في البيت (54) في قوله: – ظَهَرت – ظَهْرِه

– في البيت (58) في قوله: – مُهتصِر – مُنتصِر، مُختصِر

– في البيت (80) في قوله: – حِمام – حَماه

– في البيت (104) في قوله: – وَشيج – نَسيج

– في البيت (110) في قوله: – مِلْت – مَلَل

– في البيت (117) في قوله: – حُبش – جَيشٌ

– في البيت (127) في قوله: – قُم – قُل، قُل – سَل

6– جناس القلب:

– في البيت (60) في قوله: – جلَد – جدَل

- في البيت (73) في قوله: - خليلَ - خُيَلاء

- في البيت (75) في قوله: - مُشرَبا - شارِب

- في البيت (83) في قوله: - وَابِل - وَبَال

- في البيت (104) في قوله: - وَاشِج - وَشيج

- في البيت (113) في قوله: - مُنعدل - مُعتدل

- في البيت (122) في قوله: - عادَ - عدُو

7- جناس الاشتقاق:

- في البيت (19) في قوله: - صاحِبك - الصدّيق

- في البيت (56) في قوله: - نَفَرت - نَفْر

- في البيت (60) في قوله: جالَدوا - جِلاد

- في البيت (74) في قوله: - جَوانِحه - جُنْحٌ

- في البيت (106) في قوله: - الخليقَة - أخْلاقاً

- في البيت (128) في قوله: - ظَمَإ - برحِ ، لافح - الغُلَل

- في البيت (132) في قوله: - حُوب - زَلَل

8- الطباق:

- في البيت (02) في قوله: - بَدْو - حَضَر، حافٍ - مُنتعِل

- في البيت (05) في قوله: - الإشْراق - الطَّفَل

– في البيت (06) في قوله: قَواعِده – الأَرْجاء

– في البيت (07) في قوله: تُوقِد – خَمَدَت

– في البيت (15) في قوله: – حَيِيُ – مات

– في البيت (17) في قوله: – النَّهْل – العَلَل

– في البيت (26) في قوله: – المَرِّ – القَفَل

– في البيت (33) في قوله: – دَامَت – مُقْلِعَة

– في البيت (38) في قوله: – عَادَ – بَدَوا

– في البيت (45) في قوله: – أَعْمى – بصِير العين

– في البيت (61) في قوله: – وصَلْتَهم – قَطَعْتَ، لم تَقْطع – لم تَصِل

– في البيت (72) في قوله: – باق – مُنتقِل

– في البيت (86) في قوله: – الوَعْثِ – السَّهَل

– في البيت (125) في قوله: – السَّهْل – الجَبَل

– وفي البيت (133) في قوله: – الإِصْباح – الأُصُل

9– المقابلة:

– وفي البيت (29) في قوله:

أَرَاقَ بِـالأَرْضِ ثَجًّـا صَـوْبُ رِّيقِـهِ فَحَـلَّ بِـالرَّوْضِ نَسْـجًا رَائِـقَ الْحُلَـلِ

– وفي البيت (30) في قوله: – زُهْرٌ من النُّور – زَهْراً من النَّوْر

- وفي البيت (31) في قوله:

مِـنْ كُـلِّ غُصْـنٍ نَضـيرٍ مُـورِقٍ خَضِـرٍ وَكُــلِّ نَــوْرٍ نَضِيــدٍ مُونِــقٍ خَضِــلِ

- وفي البيت (37) في قوله:

أَشْــبَعْتَ بِالصَّــاعِ أَلْفًــا مُــرْمَلِينَ كَمَــا رَوَيْـتَ أَلْفًـا وَنِصْـفَ الأَلْـفِ مِـنْ سَـمِلِ

- وفي البيت (42) في قوله:

مُثَّــبَجٌ بِــرَكِيكِ الإِفــكِ مُلْتَــبِسٌ مُــلجْلَجٌ بِــزَرِيِّ الــزُّورِ وَالْخَــطَلِ

- وفي البيت (55) في قوله:

إِنْ قُــدَّ ظَهْــرُ وَلِــيِّ اللهِ مِــنْ دُبُــرٍ قَـدْ قُـدَّ قَلْـبُ عَـدُوِّ اللَّـهِ مِـنْ قُـبُلِ

- وفي البيت (63) في قوله:

بِـيضٌ مِـنَ الْعَوْنِ لَـمْ تُسْتَلَّ مِـنْ غُمُـدٍ خَيْـلٌ مِـنَ الْكَـوْنِ لَـمْ تَسْتَنَّ فِـي طِيَـلِ

- وفي البيت (71) في قوله:

وَجَــاثِمٍ بمَثَــارِ النَّــقْعِ مُشْتَغِــلٍ بجَِـاحِـمٍ مِـنْ أُوَارِ الثُّكْـلِ مُشْـتَعِلِ

- وفي البيت (76) في قوله:

أَوْصَـالُهُ مِـنْ صَـلِيلِ الغُـلِّ فِـي عِلَـلِ وَقَلْبُـهُ مِـنْ غَلِيـلِ الْغِـلِّ فِـي غُلَـلِ

- وفي البيت (84) في قوله:

فُـؤَادُهُ مِـنْ سَعِيـرِ الْغَـيْظِ فِـي غُلَـلٍ وَعَيْـنُهُ مِـنْ غَزِيـرِ الـدَّمْعِ فِـي غَلَـلِ

- وفي البيت (85) في قوله:

قَـدْ أَسْـعَرْتَ مِنْـهُ صَـدْرًا غَيْـرَ مُصْطَبِـرٍ وَحَــمَلْتَ مِنْــهُ صَـبْرًا غَيْـرَ مُحْتَمَـلِ

- وفي البيت (88) في قوله:

وَجُحْفُــلٍ قَــذْفِ الأَرْجَــاءِ ذِي لَجَــبٍ عَرَمْــرَمٍ كَزُهَــاءِ السَّيْــلِ مُنْــسَجِلِ

- وفي البيت (94) في قوله:

وَالأَرْضُ تَرْجُـفُ مِـنْ زَهْـوٍ وَمِـنْ فَـرَقٍ وَالْجَــوُّ يُزْهَــرُ إِشْــرَاقًا مِــنَ الْجَــذَلِ

- وفي البيت (95) في قوله:

وَالْخَيْــلُ تَــخْتَالُ زَهْــواً فِــي أَعِنَّــتِهَا وَالْعِيسُ تَـنْثَالُ رَهْواً فـي ثُنَـى الْجَـذَلِ

- وفي البيت (97) في قوله:

أَهَــلَّ ثَـهْــلاَنُ بِالتَّهْلِيــلِ مِــنْ طَــرَبٍ وَذَابَ يَــذْبُلُ تَـهْلِــيلاً مِــنَ الـذُّبُــلِ

- وفي البيت (101) في قوله:

فَــوَيْلُ مَكَّــةَ مِــنْ آثَــارِ وَطْأَتِــهِ وَوَيْـلُ أُمِّ قُــرَيْشٍ مِـنْ جَـوَى الْهَبَـلِ

- وفي البيت (106) في قوله:

أَزْكَــى الْخَلِيقــةِ أَخْلاَقــاً وَأَطْهَرِهَــا وَأَكْـرَمُ النَّـاسِ صَـفْحًا عَـنْ ذَوِي الزَّلَـلِ

- وفي البيت (129) في قوله:

أَصْـفَى مِــنَ الــثَّلجِ إِشْــرَاقًا مَّذَاقَــتُهُ أَحْلَى مِنَ اللَّبَنِ الْمَضْرُوبِ بِالْعَسَل

10- التجريد:

- في البيت (10) في قوله: - بالأشجارِ - أغصانِها

- في البيت (12) في قوله: - والسَّرْحُ - شُمُّ الذَّوائِب

– في البيت (23) في قوله: – سَرْحَةٌ – بأَغْصانٍ لها هُدُل

– في البيت (39) في قوله: – البلاغة – البيان

– في البيت (112) في قوله: – الدّينُ – المِلل

11– العكس والتبديل:

– في البيت (83) في قوله: وَكَاسِفِ الْبَالِ بَالِي الصَّبْرِ

– في البيت (120) في قوله: وَنيلَ بِالسَّيْفِ سَيْفُ النِّيلِ

– في البيت (121) في قوله: وَسُلَّ بِالْغَرْبِ غَرْبُ السَّيْفِ

12– السجع:

– في البيت (01) في قوله: – باعثِ الرُّسُل – أحمدَ السُّبُلِ

– في البيت (48) في قوله:

يَسْـتَخْبِرُونَ خَفِـيَّ الْغَيْـبِ مِـنْ حَجَـرٍ صَلْدٍ وَيَرْجُونَ غَوْثَ النَّصْرِ مِنْ هُبَلِ

13– المبالغة (التبليغ):

– وفي البيت (91) في قوله:

يَسْـــمُو أَمَـــامَ جُنُـــودِ اللهِ مُرْتَـــدِيًا ثَـــوْبَ الْوَقَـــارِ لأَمْـــرِ اللهِ مُمْتَثِـــلِ

– في البيت (105) في قوله:

عَـاذُوا بِظِـلِّ كَـرِيمِ الْعَفْـوِ ذِي لَطَـفٍ مُبَـــارَكِ الْوَجْـــهِ بِـــالتَّوْفِيقِ مُشْـــتَمِلِ

14– مراعاة النظير:

– في البيت (03) في قوله: تَوْرَاةُ مُوسَى –إِنْجِيلُ عِيسَى

15- التتميم:

- في البيت (89) في قوله:

وَأَنْـتَ - صَـلَّى عَـلَيْكَ اللهُ- تَقْـدُمُهُمْ فِـي بَهْـوِ إِشْـرَاقِ نُـورٍ مِنْـكَ مُكْتَمِـلِ

16- التوريـة:

- في البيت (90) في قوله:

يُنِيــرُ فَــوْقَ أَغَــرِّ الْوَجْــهِ مُنْتَجَــبٌ مُتَــوَّجٌ بِعَــزِيزِ النَّــصرِ مُقْتَبِــلِ

17- المذهب الكلامي:

- وفي البيت (98) في قوله:

الْمُلْــكُ للهِ هَــذَا عِــزٌّ مَــنْ عُقِــدَتْ لَــهُ النُّبُــوَّةُ فَــوْقَ الْعَــرْشِ فِــي الأَزَلِ

18- حسن التعليل:

- وفي البيت (109) في قوله:

وَالْكُفْـرُ فِـي ظُلُمَـاتِ الْخِـزْيِ مُـرْتَكِسٌ ثَــاوٍ بِــمَنْزِلَةِ الْبَهْمُــوتِ مِــنْ زُحَــلِ

19- رد الأعجاز على الصدور:

- في البيت (49) في قوله:

نَـالُــوا أَذًى منْــكَ لَــوْلاَ حِلْــمُ خَــالِقِهِمْ وَحُجَّــةُ اللهِ بِالإِعْــذَارِ لَــمْ تُنَــلِ

الفصل الثالث

المبحث الأول: الشروح الشعرية: النشأة والتطور.

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب المُحَقّق بين دوافع التأليف ومنهجية المؤلِّف وأهمية المؤَلَّف.

المبحث الثالث: مضامين الشرح.

المبحث الأول: الشروح الشعرية.
النشـأة والتطـور.

المطلب الأول: نشأة الشروح الشعرية.

المطلب الثاني: تطور عناصر الشروح الشعرية.

أ– وسيلة الشروح الشعرية وغاياتها.

ب– اتجاهات الشروح الشعرية.

المطلب الأول: نشأة الشروح الشعرية.

إن نشأة الشروح الشعرية في الأدب العربي هو بحث في "ديوان العرب" وأعز مفاخرها، لما يتضمنه من معالم تاريخية وفنية في شتى المجالات، جعل العرب منذ العصر الجاهلي إلى اليوم يهتمون به جمعا، ورواية، وتدوينا، وشرحا، وتنقيحا وتحقيقا ومعارضة وإبداعا، لاعتبارات عدة منها:

- ❖ إنقاذ التراث من التلف والضياع.
- ❖ تبين درر الشعر ومزاياه التي ينفرد بها عن غيره من الفنون.
- ❖ دوره في فهم القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة[1].

هذه الدوافع وغيرها، ولدت اهتماما بالغا بالشعر؛ فظهرت بوادر شرح الشعر، ممثلة في تلك الجهود التي قام بها الرواة والعلماء لحظة جمع الشعر وروايته، حتى لا يضيع، يقول د. فخر الدين قباوة: "لقد نهض رواة الشعر الجاهلي بهمة المؤرخ، الذي يجمع مع الشعر الظروف والأخبار التي أوحت به، وليس بعيد أن يكون رواة العصر الجاهلي قد حملوا مع الشعر بعض الأخبار التاريخية التي تهيء الجو الكافي لتوضيح قسماته وصوره ومقاصده"[2].

إذا كان الشعر لا ينفصل عن ظروف إنتاجه، سواء تلك المتعلقة بالبيئة المحيطة به، أو تلك المتعلقة بشخصية الشاعر نفسه، أو تلك المتعلقة بخصوصية العصر وأهله، فإن كل هذه العوامل المحيطة به، لها دور أساسي في إغناء مادته

---

[1]– اشترط العلماء في تفسير القرآن الكريم معرفة أشعار العرب، فقد روي عن أحد الصحابة ولعله عمر بن الخطاب قوله: استعينوا بشعر العرب فيما أشكل عليكم من القرآن، دلالة على أهمية الشعر وقيمته بالنسبة إلى نصوص الشرع فهما وإفهاما.

[2]– منهج التبريزي في شروحه والقيمة التاريخية للمفضليات، فخر الدين قباوة، دار الفكر، دمشق، ط. 2، 1418هـ–1997م، ص: 35 بتصرف.

وتنوعها بل تعقدها في بعض الأحيان، سيما حينما نجد المتن الشعري يحتضن ما هو تاريخي وما هو لغوي وما هو فني، أو كل ما يتعلق بالمعطيات النصية والتناصية[1].

كانت للجزيرة العربية وظروف بيئتها آثار إيجابية على نشأة شروح الشعر العربي.

ولا شك أن العرب في الجاهلية قبل الإسلام لم تكونوا بحاجة إلى شروح مستقلة للشعر نظرا لوحدة المنشأ واللغة والعرق، فقد "كان للبيئة المحدودة التي نشأ فيها الأدب الجاهلي وترعرع، ولتشابه الثقافة والتفكير والتعبير... ولصفاء القريحة العربية، وحدة البديهة الفطرية، أن تلقى عرب الجاهلية أدبهم... دون صوى مصطنعة تفسر غريبا أو توضح غامضا أو تشرح ملتبسا"[2].

لذلك لم يُهتم بالشروح في العصر الجاهلي، إذ لم تكن هناك حاجة تدعو إلى وجود شروح مقصودة في ذاتها، بل له علاقة بروايته، يقول د.أحمد جمال العمري: "كان الشرح في بدايته جزءا لا يتجزأ من عصب الرواية، فلم يكن حتى هذا العهد، قد استقل فن الشرح ووضحت سماته... وكان الشرح غير مقصود لذاته، بل يأتي عرضا تأييدا لرواية، وتسجيلا لحديث وتوضيحا لغرض، وتفسيرا للفظ، وكل ذلك في نطاق الرواية الأدبية الخالصة"[3].

كان وراء نشأة الشروح الشعرية العربية في مرحلة النشأة مجموعة من النصوص، ومجموعة من التعليقات على الأدبيات الشعرية المستشكلة، اعتبرها بعض الدارسين[4] من النصوص المؤسسة لبداية الشروح، وسنورد في ما يلي بعضها لا الحصر.

---

[1]– ينظر في هذا السياق ما أشار إليه د.العياشي في كتابه: "مستويات القراءة والتأويل"، مطبعة أنفو برانت، الليدو فاس، ص: 9.

[2]– منهج التبريزي في شروحه، فخر الدين قباوة، ص: 33

[3]– شروح الشعر الجاهلي، نشأتها وتطورها، أحمد جمال العمري، دار المعارف، ج: 1، 1981م، ط. 11، ص: 207.

[4]– منهم: د. أحمد جمال العمري، ود. فخر الدين قباوة.

1- سأل عبيدُ -رواية الأعشى- الأَعْشَى: ماذا أردت بقولك:

وَمُدَامَـــةٌ مِمَّـــا تَعَتَّـــقُ بابـــلُ كَـــدَمِ الـــذَّبِيح سَـــلَبْتُهَا جِرْيَالَهَـــا

ففسر الأعشى بقوله: " **شَرِبْتُهَا حمراءَ وبُلْتُهَا بيضاءَ فَسَلَبْتُهَا لَوْنَها**"[1].

يظهر من هذه الرواية أن عبيد استشكل عليه مراد الأعشى من البيت، فاستفسر عن ذلك، فعمل الأعشى على بيان معنى البيت والمراد منه، فركز على عنصر المعنى أثناء الشرح، فتبين أن بيان قصدية الشاعر من كلامه تعد من العناصر التي يتضمنها الشعر، وتتطلب من المتلقي كشف النقاب عنها.

2- قال أبو بكر الهذلي: "قلت لعكرمة: ما رأيت من يبلغنا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأمية ابن أبي الصلت، آمَنَ شعرُه وكفَرَ قَلْبُهُ. قال: هو على حق... وما الذي أنكرتم من ذلك؟ فقلت له: أنكرنا قوله:

والشـــمسُ تطلـــع كـــلَّ آخـــر ليلـــةٍ حمـــراءَ مطلـــعُ لونُهَـــا مُتَـــوَرِّدُ

تـــأبَى فـــلا تَبْـــدُو لَنَـــا فِـــي رِسْـــلَيْهَا إلا مُعَذَّبَـــــــــةً وَإِلاَّ تُجْلَـــــــــدُ

فما الشمس تُجلد؟، قال: والذي نفسي بيده، ما طلعت قط حتى ينخسها سبعون ألف ملك يقولون لها اطلعي، فتقول: أأطلع على قوم يعبدونني من دون الله؟ فَيَأْتيهَا شيطان حين تستقبل الضياء، يريد أن يصدها عن الطلوعِ، فتطلع على قرنيه، فيحرقه الله تحتها، وما غربت قط إلا خرّت ساجدةً، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن السجود، فَتَغْرُبُ على قرنيه، فيحرقه الله تحتها، وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تطلع بين قرني شيطان، وتغرب بين قرني شيطان"[2].

تعد هذه الرواية التي أقرها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني، من بين النصوص التي تدخل في باب نشأة الشروح الشعرية، ويعكس هذا النص تلك العلاقة

---

[1]- ينظر شروح الشعر الجاهلي، العمري، ج: 1، ص: 186.

[2]- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: عبد الكريم العرياني، وعبد العزيز مطر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ج: 4، ص: 13.

القائمة بين الشعر والدين الإسلامي، ممثلا في الحديث الشريف؛ بحيث استطاع عكرمة أن يفسر البيت الشعري اعتمادا على الحديث الشريف. مما يدل على أن الشروح الشعرية تبين مدى موافقة الشعر مع مقاصد الشرع وبهذا يمكن القول: إذا كان المفسرون يعتمدون على الشاهد الشعري في بيان القرآن الكريم، فإن الإنسان العربي في صدر الإسلام لجأ إلى الحديث النبوي الشريف لاستحسان الشعر واستقباحه، أو قبوله، أو استنكاره كما هو الشأن في ما رواه أبو بكر الهذلي عن أبي الصلت.

لقد حرص الإنسان العربي في صدر الإسلام على جعل الشعر يسير في ركاب الشرع، وهذا ضرب من الذكاء والفطنة يبين أن ملامح تفسير الشعر وشرحه، لم تكن ساذجة، وبسيطة، كما ذهب إلى ذلك الدكتور أحمد العمري، حينما أقر أن هذه النصوص ومثيلاتها تمثل البداية الساذجة للشروح.[1].

3- أنشد الأحنف بن قيس التميمي معاوية بن أبي سفيان:

إذا مـــا مـــات مَيْـــتٌ مـــن تمـــيمِ فَسَـــرَّكَ أن يعـــيش فَجِـــيءْ بِـــزَادِ
بخبـــــزٍ أو بلحـــــمٍ أن بتَمْـــــرٍ أو الشـــيءِ المُلَفَّـــقِ فـــي البِجَـــادِ

فقال له: وما الشيء الملفق في البجاد؟، فقال: السخينة يا أمير المؤمنين"[2].

تعتبر هذه الرواية من المسائل التي تدخل في باب ما يتولى الشاعر شرحه بنفسه، ذلك أن هناك فرقا بين أن يتلقى المبدع إبداعه وبين أن يتلقاه قارئ آخر غير المبدع؛ وتثار هنا مجموعة من القضايا، مثل المقصدية في قراءة النصوص الأدبية.

إن الشروح الشعرية من مرحلة النشأة إلى القرن الثاني الهجري بحسب ما أوردت ونصوص أخرى تميزت بما يلي:

- تفسير كلمة غريبة - رفع لنسب الشاعر

[1]- ينظر شروح الشعر الجاهلي، أحمد جمال العمري، ج: 1، ص: 190 وما بعدها.
[2]- شروح الشعر الجاهلي، العمري، ج: 1، ص: 187.

- إيراد مناسبة تاريخية للشعر — ذكر خبر
- تفسير عبارة مجازية — تحديد مكان
- تفسير معنى — تحديد علم

أما الفاعلون في هذه المرحلة، فهم الشعراء أنفسهم، والرواة المقربون من تلاميذهم، ومعاصريهم والرواة المحترفون ممن قرب عهدهم بالشعراء[1].

وإذا كانت مرحلة النشأة قد تحددت صورتها في عناصر الشرح السالفة الذكر، والتي شكلت السمات المميزة للمرحلة، فإنه لا غرابة إذا وجدنا المراحل الأخرى قد اتسمت بعناصر أكثر عمقا، حيث توسل فيها الشراح، بوسائل لغوية ونحوية وبلاغية ونقدية، جعلت من الشرح غاية في ذاته، الأمر الذي جعل من الشروح حركة لها مسارها المتميز في تاريخ الأدب العربي.

وإذا تأكد أن نشأة شروح الشعر في الأدب العربي مرتبط بالمشرق، فإن التواصل القائم بين المشرق والمغرب والأندلس، قد كان سببا في تأثر المغاربة بالشراح المشارقة ومحاولتهم السير في ركابهم[2]. حيث يذهب د. عبد الجواد السقاط إلى أن نشأة شروح الشعر بالمغرب يعود إلى أواخر العصر الموحدي، وبداية العصر المريني، استجابة لحاجات منها؛ مراعاة الاتجاه الذي يرمي إلى خدمة الدين الإسلامي، وذلك عن طريق شرح متون فقهية وصوفية وغيرها، والاتجاه الذي يرمي إلى خدمة اللغة العربية وتمكين الإنسان المغربي منها، مثل: "شرح أبيات سيبويه" لأبي زكرياء يحيى الزواوي ت 628هـ[3].

---

[1]- مر. ن، ص: 194.

[2]- الشروح الشعرية بالمغرب، نشأة وتطور، عبد الجواد السقاط، مجلة دعوة الحق، ع: 289، أبريل 1992م، ص: 75.

[3]- المرجع السابق، ص: 75.

إن العصر الموحدي إذن بالمغرب، ظهرت إبانه أولى المؤلفات في الشروح الأدبية بصفة عامة –على خلاف عصر الفتوح وعصر المرابطين– مثل؛ شرح مقامات الحريري لابن الزيات، وشرح الجمل للزجاجي لأبي القاسم بن الزيات. ولا شك أن هذه الشروح الأدبية في هذا العصر قد مهدت لظهور شروح شعرية تعكس مدى ازدهار الحركة الأدبية بالمغرب في العصر الموحدي كما ذهب إلى ذلك د. عبد الله كنون في نبوغه حين أقر بوجود نهضة حقيقية كانت تتدرج بالعلوم الأدبية في مدارج التطور والتقدم[1].

وبناء عليه يمكن القول، إن حركة شروح الشعر بالأدب العربي، وإن كانت نشأتها مرتبطة بالبيئة المشرقية نظرا لمواكبتها حركة الإبداع الشعري منذ العصر الجاهلي، فإنها قد شهدت تميزا بل تطورا في عناصر الشرح ومناهجه واتجاهاته بتوالي العصور، حيث انتقلت الشروح من إيراد مناسبة تاريخية وبيان لفظ غريب... إلى شرح القصيدة نفسها؛ إذ صار الشرح غاية في ذاته، الأمر الذي جعل من الشروح مادة صرفة تعكس ثقافة ومشارب الشراح في كل بيئة على حدة مما مهّد لوجود أدب إقليمي ينفرد بتاريخه الأدبي، والذي يكشف عن خصوصيته وتميزه على اختلاف عصوره.

وهكذا فإن حركة شروح الشعر بالمغرب، تعد استمرارا وتطورا لحركة الشروح الشعرية في الأدب العربي التي بدأت نشأتها في الأدب المشرقي لتعرف خصوصية وميزة جديدة مع الأدب في الغرب الإسلامي.

فإلى أي حد تطورت حركة الشروح من حيث أدوات الاشتغال وآليات الإدراك؟ وكيف تلقى الشراح نُصُوصَ مَنْ قبلهم؟ ثم ما طبيعة الاتجاهات التي تمخضت عن تطور حركة الشرح؟.

[1]– ينظر النبوغ المغربي في الأدب العربي، عبد الله كنون، دار الثقافة، ج1، ص: 126.

المطلب الثاني: تطور عناصر الشروح الشعرية.

أ- وسيلة الشروح الشعرية وغاياتها.

مر شرح الشعر بمراحل، تدرج فيها من الولادة والنشأة، إلى النضج والاكتمال وانتقل من الحضور العارض إلى الحضور المقصود لذاته؛ فقد تدرج في التنقل من شرح البيت الواحد والبيتين إلى شرح القصائد والمقطوعات ومنها إلى الدواوين ثم المختارات، وتحول من تنويع مصادر المتن الشعري، إلى توحيدها والارتباط بشاعر بعين[1].

ولما كانت مادة شروح الشعر في بداية حركة الشعر عبارة عن شرح لغوي موجز لبعض الألفاظ، وتحقيق رواية أو إيراد مناسبة تاريخية... فقد بدأت تتسع متدرجة من البساطة إلى التعقيد، مضيفة إلى الشرح اللغوي عناصر أخرى أملاها انفساح آفاق الحياة الثقافية والعقلية وتنوع احتياجاتها من فترة لأخرى، حيث أسهم في نمو وتطور حركة الشرح أجيال متوالية من الشراح[2]، اختلفت مشاربهم الثقافية فتنوعت عن الشروح الشعرية من حيث المادة المشروحة، وقد ميز د. أحمد جمال العمري في هذا الباب بين مرحلتين: مرحلة ما قبل المناهج، كانت فيها الشروح عبارة عن إشارات توضيحية؛ شرح لفظة، تعريف بعلم، تحديد مناسبة تاريخية، ذكر قائل بيت...، ومرحلة المناهج تميزت بتوضيح المناحي العلمية للعلماء، ومحصولهم الثقافي للنص وطريقتهم في التصرف والتحليل[3].

---

[1]- شروح البيت والقصيدة في الأدب العربي، محاولة في التصنيف، د. أحمد رزيق، عالم الفكر، المجلد: 35، ع: 4 أبريل، يونيو، 2007م.

[2]- مناهج شروح الشعر القديم لدى الشناقطة، دراسة تطبيقية في حركة الشرح الشنقيطية خلال القرنين الهجريين الثالث عشر والرابع عشر، د. محمد محمود بن صدفة، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، ص: 51، مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز، ملحقة السلك الثالث.

[3]- وقد وقف كل من د. فخر الدين قباوة في كتابه: "منهج التبريزي في شروحه ود. أحمد جمال العمري في كتابه: "شروح الشعر الجاهلي"، عند طبقات الشراح وأجيالهم، فبينوا خصوصيات كل طبقة، ومميزات كل جيل على حدة، في إطار تأريخ تطور ظاهرة الشروح الشعرية. ينظر شروح الشعر الجاهلي، د. أحمد جمال العمري، ج: 1، ص: 9.

بفعل تطور حركة الشروح هاته، أصبح شرح الشعر بين الفينة والأخرى غاية في ذاته، وتمخضت عن ذلك مجموعة من الاتجاهات، ومجموعة من المسالك، توخى فيها الشراح نهج طريقة معينة في الشرح والتفسير. وذلك بحسب ما يتمتع به الشارح من ثقافة؛ إذ هي المرجع الأساسي، بل المحدد الذي يطبع العمل المشروح بسمة خاصة، وتجعله ضمن هذا الاتجاه أو ذاك، من هنا اختلفت مسالك الشراح، فكان ذلك تمهيدا لظهور التخصصات، يقول أبو عثمان الجاحظ: "طلبت علمَ الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه فرجعت إلى الأخفش فوجدته لا يتقن إلا إعرابه. فعطفت على أبي عبيدة، فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب"[1].

وعليه فإن الشرح يعكس شخصية الشارح وميوله واهتماماته وطريقته في فهم النصوص، كما يكشف عن قدراته على الاجتهاد وأثر الثقافة في عقليته وطبيعة عصره، وظروف معاصريه وأفقه العقلية.

ولاشك أن اختلاف الشراح ناتج عن اختلاف تكوينهم النفسي والثقافي، فمنهم من يهتم بالنواحي اللغوية، ومنهم من يهتم بالقواعد النحوية والظواهر الإعرابية ومنهم من يركز على التصريف، واشتقاق الألفاظ، ومنهم من اعتكف على استلهام المعاني والتعمق في الجوانب الجمالية ومنهم من غلب عليه استقصاء الأخبار والأنساب وممارسة النقد، ومنهم من غاص في التأويل في محاولة لصيد المعنى الإشاري كما هو الحال عند الصوفية. وسنقف في ما يلي عند مختلف اتجاهات الشرح، مبرزين في ذلك خصوصية كل اتجاه وبعض ما يميزه حتى يتبين بالملموس، ذلك التطور الإيجابي نحو التعدد والاختلاف الذي شهدته حركة شروح الشعر في تاريخ الأدب العربي.

ب- اتجاهات الشروح الشعرية:

[1]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق، ج: 2، ص: 74.

أدى انتقال الشروح من صورتها التقليدية القديمة، التي كانت عليها في مرحلة النشأة، وسائر مراحل الشروح الشعرية لدى طبقات الشراح وأجيالهم، إلى ظهور اتجاهات في الشرح، تعكس ذلك النضج الذي بلغه الشعر؛ بحيث يلجأ الشارح في البداية وقبل خوضه مجال الشرح إلى أخذ هذه الصنعة وممارستها على أيدي شيوخ. الأمر الذي يولد مسألة تواتر الاتجاهات واستمرارها فإذا أخذ الشارح عن شيوخ النحو، فلاشك أن مقاربته للنص المشروح ستطغى عليه المسائل النحوية، أو يعمل الشارح على بيان المعنى بالنحو والصرف، باعتبارهما وسيلتان من بين وسائل عدة يقتحم بها القارئ النص. وفي ما يلي أبرز اتجاهات الشروح الشعرية:

- اتجاه لغوي[1]:

"وقف بعض شراح الشعر عند حد بيان المعنى المعجمي لألفاظ المتون الشعرية وغيرها، وذلك بالرجوع إلى معاجم وقواميس اللغة. وقد ظهر ذلك في شروح الشعر العربي بسبب اختلاف معاني بعض المفردات لدى بعض القبائل، وتضخم عدد المولدين في المجتمع الإسلامي مع مرور الزمن، وانصراف الناس عن حياة البداوة ومتطلباتها، وبدت في الشعر العربي القديم ألفاظ غريبة على سامعيها، فاقتضى ذلك تفسيرها ببيان المعنى المراد بها، فكانت هذه الظاهرة خطوة تفتحت بها، أمام العلماء والرواة في القرن الثاني ميادين البحث لخدمة ذلك الشعر وكشف ضباب الغرابة عنه"[2]. ويبدو أن الاتجاه قد ظهرت فيه مصنفات خرجت عن مقاصد التفسير، بحيث تندفع وراء الكلمة الغريبة، تستقصى جميع ما حوته من المعاني المختلفة، بشواهدها وخلافات العلماء فيه. ومن خصائصه نجد:

- ❖ شرح اللفظ باللفظ المرادف له.

---

[1]- فصل د. المفضل الكنوني في رسالته الجامعية في هذا العنصر فيما سماه بالشرح اللغوي. ينظر الشروح الأدبية بالمغرب في العصر العلوي الأول، رسالة الدكتوراه، 2006م، مرقونة بكلية الآداب ظهر المهراز- فاس، ص: 350 وما بعدها.

[2]- منهج التبريزي في شروحه، فخر الدين قباوة، ص: 97.

- ❖ إيراد المعاني التي اكتسبها اللفظ في الاستعمال.
- ❖ إيراد المعنى السياقي للفظ.
- ❖ شرح اللفظ بالجملة.
- ❖ شرح اللفظ بتركيب جزئي[1].

هكذا يتضح أن الجانب اللغوي من اللبنات الأساسية في الشروح، فهو الباب الذي لا يمكن الاستغناء عنه في ولوج عالم النص الشعري خاصة.

- اتجاه نحوي:

انصب عمل بعض أهل الشروح الشعرية على تقريب النصوص للقراء، اعتمادا على آلية النحو والصرف؛ بحيث لا يمكن للنص أن يسلم مفاتحه لقارئه إلا إذا اعتمد على عنصر النحو، باعتباره عنصراً رئيساً لا يمكن الوصول إلى المعاني الباطنية إلا بتوظيفها.

إذا نظرنا إلى الشروح الشعرية نرى أن النحو قد شكل مرتكزا أصيلا لتصنيف الشروح، حيث يغنيها بالتوجيهات الإعرابية والصرفية، وسرد القواعد والأصول والخلافات المذهبية مدعمة بالأدلة والشواهد.

ولم يقف النحو عند حد استعماله كأداة في شرح الشعر، بل بالغ الشراح النحاة في ذلك، إلى درجة تجد الشرح ممتلئا من أوله إلى آخره بالمسائل النحوية، وقضايا الخلاف بين المذاهب، فأصبح الشرح بذلك وسيلة لاستعراض الثقافة النحوية من لدن الشراح. يقول د. فخر الدين قباوة: "ثم كانت نقطة الانعطاف في تطور النزعة النحوية، وذلك عندما تمادى علماء النحو لشرح الأشعار، فحملوا معهم مخلفات ثقافتهم

[1]- ملاحظات أولية حول الشروح الأدبية، وناس بن مصباح، مجلة الحياة الثقافية، تونس، ع: 41، 1986م، ص: 53.

وأخضعوا لها شروحهم، وفرضوا عليها تلك الأثقال، وقد حمل لواء هذا التطور بعض رجال الطبقة الخامسة كأبي بكر الأخباري وأبي جعفر النحاس وكذا ابن جني"[1].

وهكذا فإن عنصر النحو من العناصر التي ركز عليها الشراح في مقاربة المتون الشعرية، وفك أسرها وتجلية أسرارها. ولم تغفل المناهج النقدية الحديثة، كالبنيوية والشكلانية وغيرها من المدارس التي تستند إلى البنية التركيبية بالدرجة الأولى في مقاربة النصوص وتحليلها عن هذا العنصر، باعتبارها جزءا أساسيا من البنية اللغوية التي تعتبر عندهم غاية ووسيلة في الآن نفسه[2].

- اتجاه بلاغي:

تقتضي مقاربة النص الأدبي الإحاطة بجوانبه التركيبية والدلالية والإيقاعية والفنية. من هذا الباب لم يتوان شراح الشعر في إبراز ما تتضمنه النصوص من عناصر بلاغية؛ بيانية كانت أم بديعية أم معنوية، وذلك من أجل بيان مدى مقدرة المبدع على ابتكار التشكيل، لكن هذا العنصر لم يمثل اهتمام الشراح، ولم يكن من بين غاياتهم في الشرح خلال العصور الأولى من انطلاق حركة الشروح، لذلك نرى ابن الأثير يرد على النحاة واللغويين بأنهم كانوا يفهمون معنى النص ويدركون مواقع إعرابه دون أن يبينوا ما يتضمنه من أسرا الفصاحة والبلاغة، واتهمهم بالغلط والتقصير[3].

وإذا كان المتن الشعري يحتضن عناصر مختلفة شكلت تركيبته وبنيته، فإن العنصر البلاغي يمثل أحد هذه المكونات التي تعكس ذلك المستوى الإبداعي الرفيع للمبدع كلما وظفها، لذلك يظل بيان المعاني المخفية وراء الصور الفنية والأساليب والمحسنات البديعية أحد المهمات التي تنتظر عمل الشارح، الأمر الذي جعلنا نتحدث

---

[1]- منهج التبريزي في شروحه، فخر الدين قباوة، ص: 110 بتصرف.

[2]- مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، د. محمد الواسطي، مطبعة آنفو-برانت فاس، 2004، ص: 149 وما بعدها.

[3]- منهج التبريزي في شروحه، فخر الدين قباوة، ص: 126.

على أن هناك اتجاه بلاغي في الشروح تطغى عليه عناصر البلاغة العربية، مثله عدد من الشراح ممن كان لهم إلمام بالجانب الفني والبلاغي.

- اتجاه نقدي:

لم تقف حركة شرح الشعر عند محاولة إبراز المعاني الغامضة في النص وشرح الألفاظ الغريبة، وإيراد الأبعاد التاريخية التي يتضمنها النص، بل تجاوز الشراح ذلك عبر مر الزمان إلى ما هو أبعد من ذلك وأعمق، بحيث بدأوا في إبراز مكامن الصحة والخطأ في الشروح، وتعمد البعض تتبع أخطاء من سبقه من الشراح، فلم يكن غرضهم بذلك تقويم الشرح فقط، بل تقويم ونقد صاحبه، فكان أن ظهر اتجاه مميز مال إليه بعض الشراح[1]، وأعلنوا بذلك عن بوادر مسار جديد تمثل في الاتجاه النقدي. ومن سمات هذا الاتجاه:

- ❖ تتبع نقاط الجودة والإصابة في عمل الشارح دون النظر إلى وحدة القصيدة أو الديوان أو المجموعة الشعرية.
- ❖ تميز الجيد من الدخيل.
- ❖ استعمال الذوق في الحكم.
- ❖ بيان السرقة الأدبية.
- ❖ طغيان النزعة الذاتية.

ويرى التبريزي أن هذا الاتجاه يتميز تبعا لطبيعته الجدلية بتأثير الهوى والنزعات الذاتية، والذوق الخاص، فإذا كان الشارح خصما للشاعر سفه شعره، وجرح ديوانه بشتى الوسائل، وإذا كان نصيرا له حسن مذهبه وجمل قبيحه[2].

---

[1]- يرى د. فخر الدين قباوة أن ذلك بدأ في أواخر القرن الثالث، منهج التبريزي في شروحه، ص: 124.

[2]- شرح ديوان أبي تمام للتبريزي، ص: 23، نقلا عن قباوة، ص: 125.

يمكن القول، إن ظهور هذا الاتجاه يعكس تطور فكر الشراح، بحيث لم يظلوا دائما مقيدين بالعناصر الداخلية للنص، بل أبدوا آراءهم وحكموا بأذواقهم الفنية، وَقَوَّمَ بعضُهم بعضاً.

- اتجاه تاريخي/اجتماعي:

تضمن الشعر العربي القديم مادة تاريخية مهمة، فيما ما مر على العرب من أيام، ولا غرابة أن نجد الشعر قد احتضن ما جرى من أحداث وأقوال وأفعال في تلك الأيام التي تداولها العرب فيما بينهم والتي شكلت فيما بعد الحضارة العربية على مر التاريخ. ولما كان الشعر ديوان العرب، فإن عمل الشراح قد انصب على إبراز ذلك البعد التاريخي، لذلك نجد أن مادة هذا الاتجاه تتمثل في ذكر الأحداث والأنساب والتراجم، والأمكنة والأزمنة، وكل ما له علاقة بالماضي[1].

ولعل الحديث عن الظروف التاريخية في المتن الشعري أسهم عن ظهور بعض المناهج الأدبية مثل التاريخي والاجتماعي؛ حيث يؤمن أصحابها على أن النص يحتوي على مادة خارج نصية ينبغي الالتفات إليها، ودراسة النص على ضوئها.

- اتجاه إشاري في شرح الشعر:

عمل الصوفية كغيرهم من الشراح على قراءة النصوص الأدبية وشرحها، لكن شرحهم يتميز عن باقي الشروح والاتجاهات؛ إذ يفرض الصوفي ثقافته الصوفية على النص، ويقارب بها معاينه ودلالاته.

يقصد بالشرح الإشاري، ذلك الشرح الذي يوغل في استعمال مصطلحات

[1]- منهج التبريزي في شروحه، فخر الدين قباوة، ص: 401.

المتصوفة وإشاراتهم ورموزهم باستنباط معان لا تدرك إلا بالذوق[1]، ولذلك فقد تواترت عندهم مقولات من مثل قولهم: "من ذاق عرف ومن حُرِمَ انحرف"، وقولهم أيضا: "دع عنك يا صاحبي علم الأوراق وأقبل على علم الأذواق". ويبدو أن الصوفية يركزون على تفسير النصوص بما يملكونه من ثقافة تستمد جذورها من مجاهداتهم وإشراقاتهم ومن تربية النفس وترقيتها في مقامات المعرفة والعرفان، ابتغاءً لوجه الله وطمعا في رضاه.

عمل الصوفية على تفسير العلوم وشرحها، وتقديم قراءات وفق تصورهم للحياة والعقيدة والدين، فتراهم قدموا مؤلفات في شتى العلوم، سواء في النثر والشعر، أو القرآن أو النحو وغيرها – لكن الملفت للنظر هو أن كتاباتهم تتسم بضرب من التأويل الذي يتجاوز الظاهر واللغة العادية إلى الباطن، إيمانا منهم أن: "لكل آية ظَهْرٌ وَبَطْنٌ ولكل حرف حد ولكل حد مطلع"[2].

بذل الصوفية جهودا ملموسة في تقريب المتن الشعري إلى القراء، فكانت قراءتهم تختلف عن قراءة اللغويين والنحاة والبلاغيين والرواة، ذلك أن المتتبع للإشارات الصوفية في شروحهم، يجد تميزا واضحا عن شروح غيرهم، فتراهم لا يقفون عند الجوانب اللغوية والتركيبية في إبراز الدلالة فحسب، بل يتجاوزون ذلك إلى ما هو أعمق. وفي ما يلي نماذج من تلك الشروح التي تمثل لهذا الاتجاه[3]:

- شرح البردة لأبي القاسم الماجري المغربي (ت 418هـ).
- شرح ابن مرزوق على البردة (ت 842هـ).
- شرح نونية الششتري لأحمد زروق (ت 899هـ).

---

[1]– الأدب الصوفي بالمغرب في القرن التاسع الهجري، موضوعات، خصائصه، الحسن شاهدي، رسالة الدكتوراه 1421-1422هـ/2000-2001م، ص: 402.

[2]– ص: 167 وما بعدها، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، نشر مصطفى البابي الحلبي، ط. 4، 1398هـ/1986م، ج. 1، ص: 236.

[3]– الشروح الصوفية، الحسن شاهدي، مصر.

- ❖ شرح تائية التباع لمحمد عبد الله بن عجال الغزاوي(ت 935هـ).
- ❖ شرح الهمزية البوصيرية لعلي حرازم برادة التيجاني المسمى: "الإرشادات الربانية بالفتوحات الإلهية" (ت 1214هـ).
- ❖ شرح البردة للباجوري (ت 1276هـ).

وبهذا يمكن القول إن الاتجاه الإشاري في شرح الشعر عرف انتشارا في المغرب والمشرق والأندلس، حاول الصوفية من خلاله إبراز ذلك البعد العميق في النصوص، واجتهدوا في كشف النقاب، ليس فقط عن الدلالة الظاهرة أو ما اختفى وراء الصور الفنية والبيانية، وإنما ذهبوا أبعد من ذلك، حيث غاصوا في الإشارات الباطنية واللطائف الوجدانية العميقة، والتي لا تسلم نفسها للكل، بل تحتاج إلى أصحاب الذوق الرفيع والمتسلحين بالمؤهلات الموصلة إلى ذلك، ولذلك نرى الصوفية استعانوا بالإشارة على العبارة وتوسلوا بالرمز في التعبير والبيان.

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب المُحَقّق بين دوافع التأليف ومنهجية المؤلِّف وأهمية المؤَلَّف

المطلب الأول: تحقيق عنوان الكتاب ونسبته لمؤلّفه.

المطلب الثاني: دواعي اختيار الشارح للنص المشروح.

المطلب الثالث: منهج المؤلِّف في شرح القصيدة الشقراطسية.

المطلب الرابع: القيمة العلمية والأدبية للمؤلَّف (أهمية الكتاب).

المطلب الخامس: مصادر الشرح.

المطلب الأول: تحقيق عنوان الكتاب ونسبته لمؤلّفه.

ورد عنوان الكتاب في كتب التراجم والمؤلفات منسوبا لمؤلفه محمد العربي بن يوسف الفاسي[1]، ولا يوجد من بينها من نسبه لسواه. فنسبة الكتاب ثابتة له ومحققة.

أما فيما تعلق بالعنوان، فجل كتب التراجم والمؤلفات تذكر الكتاب بعنوان: "شرح الشقراطسية"، ومحمد العربي الفاسي في مقدمة شرحه[2]، لم يذكر العنوان صراحة كما هو المعتاد عند جل المؤلفين في مقدمة مؤلَّفهم بقولهم مثلا: "وسميت الكتاب بكذا"، وإنما يُمكن أن نستنبط من مقدمته عنوانا لِمُؤلَّفه هو: "شرح القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية"[3].

المطلب الثاني: دواعي اختيار الشارح للنص المشروح.

تفهم من مقدمة الشارح مبرراتلإ لسبب هذا الاختيار: بين ما هو دافع موضوعي، ودافع ذاتي؛ حيث قال في مقدمته: "إن القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية من أبدع القصائد نظماً، وأوفرها في البلاغة حظّا وقسما، وأكثرها جمعا للمعجزات النبوية واضحاً، وأفوزها بالإشتهار والقبول قدحاَ وسهماً، ...اقتضاء بعض أفاضل الزمان وأماثل القضاة الأعيان، إعانة حفاظها، بشرح غريب ألفاظها فلبيت وامْتَثَلْتُ. ولولا إعظام أمره، وإلزام أجره، ما فعلت لتوفر الصوارف، فوق ما يصفه الواصف، ولا أقلّ من اضطراب الزمان واغتراب المكان، وتعسّر الأسباب، وتعذر الإخوان..."[4].

---

[1]– مرآة المحاسن، (159). "صفوة من انتشر"، (71). "خلاصة الأثر"، (273/4). "نشر المثاني"، (10/2). "التقاط الدرر"، (114). "مناقب الحضيكي"، (226/2). "عناية أولي المجد"، (29). "الدرر البهية"، (279/2). "سلوة النفاس"، (313/2). "شجرة النور الزكية"، (302). "معجم المطبوعات"، (1680). "تاريخ تطوان"، (278/2). "الأعلام"، (265/6).

[2]– المقدمة التي ذكر فيها محمد العربي الفاسي العنوان بطريقة ضمنية: "وبعد فإن القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية... بشرح غريب ألفاظها...، مقدمة المتن المحقق، ص: 1.

[3]– مقدمة المتن المحقق، ص: 1.

[4]– ص: 2، مقدمة المؤلف.

فالسبب في هذا الاختيار هو إعجابه بهذه القصيد من حيث ما حَوَتْه من معجزات نبوية، وما لمكانة الرسول صلى الله عليه وسلم عنده وعند عامة المسلمين، من جهة، ومن جهة أخرى قضايا البلاغة التي ضمّتها بين ثناياها.

فالشارح يريد تذوق هذا النص، وتلمس جماليته وبديعيته، بأقصى قدر يمكن أن يتم حصوله لَهُ ولمن طلبه منه من أفاضل الزمان وأماثل القضاة الأعيان.

وهو الأمر الذي لا يدَّعيه وإن كان في الواقع متحققاً به، بل يتواضع قائلا: "...ولولا إعظام أمره، وإلزام أجره، ما فَعَلْتُ لتوفر الصوارف، فوق ما يصفه الواصف، ولا أقل من اضطراب الزمان واغتراب المكان، وتعسّر الأسباب، وتعذر الإخوان... ولا أستقرض إلاّ من له في الباب المتكلم فيه بضاعة، وعلى الله سبحانه الاستيناد...".

تطورت أسباب الاختيار عند الشارح على ما يبدو إلى ضرورات علمية، أبت إلى أن تقف على محتويات النص، ومضامينه الأخرى، كمستجدات فنية تطلبتها روح عصره. فقد نشطت في هذه الفترة الشروح الشعرية، وبدأت تظهر بشكل لافت، ويتأثر بها كلُّ متذوق للشعر، والحكمة، والمعرفة.

- **<u>دواعي أخرى</u>:**

أ- والدافع الفني: إنّ الذائقة الفنية عند المتلقي في عصر محمد العربي يوسف الفاسي (ت 1052هـ)، وما شهدته الفترة من اضطرابات سياسية -وهو ما أقر به الشارح نفسه في مقدمته كما سلف- قد ضاقت ذرعا بالنظم الشعري السائد، والذي خلا من حرارة الشاعرية، وأصبح نظما لا وحي فيه، ولا أحاسيس إنسانية، وهي التي كانت وراء اختيار هذه القصيدة: في ذكر الممادح النبوية، التي تجمع ميزتين اثنتين، ميزة فنية، وميزة دينية، فطُلب من الشارح أن يضع شرحه عليها لتلبية الذوق الفني، والديني على الأخص، لاسيما وأنّ العصر قد طغى عليه الجفاء الروحي بعد وفاة المنصور الذهبي (ت 1012هـ)، وتنازع أبنائه على الحكم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنّ

ارتباط البلاغة والنقد بالدين كان ظاهرا يُراد من روائه إبراز إعجاز القرآن والحجة بالمنطق، والدليل، فصارت بذلك معرفة البلاغة أمراً دينيا كلامياً: "وإن إغفالها يؤدي إلى عدم وقوع العلم بإعجاز القرآن على وجه استدلالي تعليلي"[1].

ولعلّ ما ذكرت هو الذي كان وراء توسيع مادّة الشرح لتشمل علم البيان، وعلم المعاني، وعلم البديع.

ب- **الدافع التعليمي:** إذ سبب طلب التأليف لهذا الشرح أولا كان لعلّة تعليمية، وما يجعل هذا الأمر راجحا هو الطريقة التي سار عليها محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) في شرحه، إذ وقف على كل المصطلحات، فيقدّمُها ويُتْبعها بالتعريف والشرح والتبسيط وتقديم الشواهد والأمثلة، وهذا هو الأنسب لغرض التعليم.

إن الشارح عمل على إقحام علوم شتى في شرحه من فقهية وعقلية وروحية وتجريبية.

كل هذه الدواعي المختلفة كانت كذلك الدافع لمحاولتي تحقيق وإخراج هذا الشرح للوجود.

المطلب الثالث: منهج المؤلِّف في شرح القصيدة الشقراطسية.

بعد قراءة متأنية، فاحصة لمتن المخطوط، تبين أن المنهج الذي سار عليه المؤلِّف في شرح القصيدة يمكن تلخيصه في النقاط الآتية:

شرح الغريب، في شرح الألفاظ المفردة وما يتعلق بها من التصريف.

ثم **تقديم** المعنى المقصود من تراكيب الكلمات المشروحة في جمل كل بيت شعري.

---

[1]- ص: 38، شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى القرن الثامن الهجري، جودت فخر الدين، دار الآداب، ط. 1، 1984م، بيروت.

ثم **المعاني**، المستعملة في ذلك التركيب دون غيره إفرادا وتركيبا.

ثم **البيان**، في ذكر وجوه التركيب من وضوح دلالته على المعنى المراد، وبيان الحقيقة منه والمجاز أحيانا.

ثم **البديع**، في ذكر وجوه ما في سبك التركيب من المحاسن اللفظية والمعنوية -أحيانا-.

ثم **الإعراب**، فيذكر منه حل الوجوه القوية الظاهرة دون غيرها، وهي ترجمة معينة على فهم معاني الأبيات.

يتفق مذهب محمد العربي الفاسي، من خلال المستويات السالفة الذكر، مع ما ذهب إليه ضياء الدين بن الأثير حين وازن بين النحوي والبلاغي في معرض حديثه عن علم البيان، يقول:

"...فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أصولها اللفظية والمعنوية، وهو والنحوي يشتركان في أن النحو ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي، وتلك دلالة عامة وصاحب علم البيان ينظر من فضيلة تلك، وهي دلالة خاصة، والمراد بها أن يكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب، ألا ترى أن النحوي يفهم معنى الكلام المنظوم والمنثور، ويعلم مواقع إعرابه، ومع ذلك فإنه لا يفهم ما فيه من الفصاحة والبلاغة. وهنا غَلَطَ مفسرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيه من الكلمات اللغوية، وتبيين مواضع الإعراب دون شرح ما تتضمنه من أسرار الفصاحة والبلاغة"[1].

الملاحظة المنهجية الأخرى هي عدم تقسيم مادّة الكتاب وفق أبواب وفصول، بل عمد الشارح إلى تقسيم شرح أبيات القصيدة إلى مجموعات، تضم كل واحدة عددًا

[1]- ص: 26، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير، ج: 1، تح: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، 1995م، بيروت.

من الأبيات المرتبطة من ناحية المعنى، متباينة في أعداد أبياتها، فأقلها أبياتًا ضمت بيتا واحدا، بينما ضمت أقصاها تسعة وعشرون بيتًا. ويندرج تحت العنوان العام للقصيدة التحليلُ في المستويات التي ارتضاها الشارح سبيلاً لشرحه.

ومن الناحية العروضية نجد الشارح مثلا في نهاية شرحه للبيت الأول من القصيدة, تطرق إلى مسألتين عروضيتين هامتين : التصريع والتقفية.إذ يقول : "وفي البيت التّقفية، والفرق بينها وبين التّصريع، أنه جعل العروضَ كالضَّرب، مع تَحْلِيَّتِها بحرف الرويِّ، حيثُ لا تستحقُّ ذلك العروضُ، لولا موافقةُ الضَّرْبِ ليَحْصُلَ التَّصريعُ. والتقفية هي التحلية بحرف الروي المماثل لروي البيت، حيث تستحق تلك العروض كما هنا، إذِ العروض والضرب سواء، وإنما زيد التَّحليةُ فقط. فلو جيء به على هيئة المُصَّرَعِ وحُلِّيَ بحرفٍ آخرَ كان إيهامُ التَّصريع. قالوا: "التصريعُ كالخالِ في الوجه يُسْتحقُّ في أوَّلِ القصائدِ ويُسْتَحَقُّ في مبادئ المعاني المُخالفةِ لما قبلها من غيرِ كثرةٍ، فإذا أُكْثِرَ اسْتُجِنَّ ككثرةِ الخِيلاَنِ في الوجهِ". وسيأتي في هذه القصيدة في مواضعَ ولك النَّظر فيها"[1].

فالجميل واللافت للنظر أن الشارح –عبْر هذه الجمل– منذ الوهلة الأولى يستفز المتلقي أو القارئ بإثارة فضوله وإحالته في الآن نفسه بأن يغوص ويبحث وينقب عروضيا في ثنايا هذا الشرح.

إن اعتماد الشارح هذه المستويات في شرحه للقصيدة، يوضح للقارئ أن عمله يقوم على تصور منهجي محكم، إذ حاول أن يحيط بكل جوانب النص، وزواياه: اللغوية (المعجمية والصرفية) والتركيبية (النحو) والدلالية (الشرح) والبلاغية (المعاني والبيان والبديع) والعروضية، مع إثارة مختلف المسائل المتعلقة بمعاني النص وظروفه (تاريخية ودينية).

[1]– ينظر المتن المحقق، ص: ...

إن هذا النسيج في الشرح، والمتعدد الآليات، يوظف كل إمكانات القراءة الكفيلة بإبراز جماليات القصيدة في الرؤيا والتشكيل، لذلك يستعصي تأطيرُ شرحِه، وإن غلب عليه الجانب اللغوي.

المطلب الرابع: القيمة العلمية والأدبية للمؤلَّف (أهمية الكتاب).

يذهب محمد العمري في مقدمة تحقيقه لكتاب (المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل) للإفراني، إلى تقسيم هذه الشروح حسب إشكالية النص والغرض المتوخى من الشرح إلى ثلاثة أنواع هي:

1- شرح نصوص دينية تتعلق في الغالب بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وتثير قضايا صوفية.

2- شروح تستهدف غاية لغوية تعليمية.

3- شروح تتجه إلى القيمة الأدبية للنص، وتَعُدُّ الشرح اللغوي والإعراب والتخريجات البلاغية وسيلة لاجتلاء درر المعاني[1].

يجمع كتاب محمد العربي بن يوسف الفاسي بين الاتجاهات الثلاث: الأدبي واللغوي والديني، فقد انصرفت غايته إلى القيمة الأدبية اللغوية للقصيدة المشروحة، مع عدم تهميش ما يناسبها من المعاني الدينية التي يكشفها مدح الرسول صلى الله عليه وسلم الناشئ عن مشاعر حبه وصدق مودته.

أما دور الاتجاه الديني، فكان في اختيار النص المشروح، وهو نتيجة ما حظيت به قصيدة الشقراطسية من إقبال وتفضيل عند عامة الناس، لكونها في مدح الرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولما آلفته الأذن من سماع لذيذ إنشادها. فالذوق العام رشح قصيدة الشقراطسية لتتبوأ هذه المكانة الدينية، وهذا الجانب تحديدا يجعلنا نضيف إلى

[1]- ص: 20، المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل، الإفراني، مقدمة تح: لمحمد العمري، مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1997م، المغرب.

الاتجاه الديني توجها اجتماعيا يتلبس به ولا يفارقه. بينما الاتجاه الرئيس المهيمن على غرض الشرح وغايته المتوخاة هو الاتجاه الأدبي واللغوي.

المطلب الخامس: مصادر الشرح.

من خلال تتبعي شرح محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) للقصيدة الشقراطسية، ألاحظ تنوعاً في هذه المصادر سواء، التي أعلنها في ثنايا الشرح، أو التي ضمنها شرحه، دون أن يشير إلى ذلك، انطلاقا من شهرتها، أو ميله للاختصار، خشية الإطناب، وهي لغوية وأدبية وتاريخية ونحوية وبلاغية وفقهية (فقه–أصول الفقه–مقاصد الشريعة–علم الكلام–التفسير)، سأثبت معظمها:

مصادر اللغة والأدب:

المؤلَّـف	المؤلِّـف
– كتاب العين	الفراهيدي (ت 170هـ)
– الكامل في اللغة والأدب	المبرد (ت 285هـ)
– المقتضب	
– كتاب الأفعال	ابن القوطية (ت 367هـ)
– مختصر العين	الزبيدي (ت 379هـ)
– الصحاح	الجوهري (ت 393هـ)
– فقه اللغة	أبو منصور الثعالبي (ت 429هـ)
– المحكم والمحيط الأعظم	ابن سيدة (ت 458هـ)
– المفردات في غريب القرآن	الراغب الأصفهاني (ت 502هـ)
– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر	ابن الأثير (ت 637هـ)
– مختار الصحاح	محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت 666هـ)
– لسان العرب	ابن منظور (ت 711هـ)
– مختصر المعاني – شرح مختصر التصريف العزّي	سعد الدين التفتازاني (ت 792هـ)
– كتاب التعريفات	الشريف الجرجاني (ت 816هـ)
– القاموس المحيط	الفيروزآبادي (ت 817هـ)

مصادر النحو والبلاغة:

المؤلَّف	المؤلِّف
– الكتاب	سيبويه (ت 180هـ)
– الجمل	الزجاجي (ت 340هـ)
– العمدة	ابن رشيق (ت 456هـ)
– سر الفصاحة	ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)
– أساس البلاغة	أبو القاسم الزمخشري (ت 538هـ)
– مفتاح العلوم	السكاكي (ت 626هـ)
– منهاج البلغاء وسراج الأدباء	حازم القرطاجني (ت 684هـ)
– الإيضاح في علوم البلاغة. – التلخيص في علوم البلاغة	الخطيب القزويني (ت 739هـ)
– أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك – المغني اللبيب عن كتاب الأعاريب	ابن هشام (ت 761هـ)
– نقد الشعر	قدامة بن جعفر (ت 948هـ)

الدواوين الشعريـة :

المؤلَّف و المؤلِّف	وفاتـه
– ديوان عبيد بن الأبرص	(ت 25ق. هـ)
– ديوان الأعشى	(ت 7هـ)
– ديوان الخنساء	(ت 24هـ)
– ديوان كعب بن زهير	(ت 26هـ)
– ديوان الفرزدق	(ت 114هـ)
– ديوان القطامي	(ت 130هـ)
– ديوان أبي تمام	(ت 231هـ)
– ديوان ابن الرومي	(ت 283هـ)
– ديوان طرفة بن العبد	(ت 564هـ)
– ديوان البوصيري	(ت 696هـ)

مصـادر التاريـخ:

المؤلَّـف	المؤلِّـف
– السيرة النبوية	ابن هشام البصري (ت 218هـ)
– أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار	أبو الوليد الأَزْرَقي المكي (ت نحو 250هـ)
– أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه	أبو عبد الله محمد الفاكهي (ت 272هـ)
– تاريخ الرسل والملوك	الطبري (ت 310هـ)
– الشفا بتعريف حقوق المصطفى	القاضي عياض (ت 544هـ)
– تاريخ دمشق	ابن عساكر (ت 571هـ)
– الكامل في التاريخ	ابن الأثير (ت 630هـ)
– البداية والنهاية	ابن كثير الدمشقي (ت 774هـ)
– السيرة الحلبية	علي الحلبي (ت 1044هـ)

المصادر الفقهية

المؤَلَّف	المؤَلِّف
المصنف	عبد الرزاق بن همام الصنعاني (ت 211هـ)
الطبقات الكبرى	ابن سعد (ت 230هـ)
مسند ابن الجعد	علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي (ت 230هـ)
مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنيل (ت 241هـ)
سنن الدارمي (المسند الجامع)	عبد الله بن عبد الرحمان الدّارمي (ت 255هـ)
صحيح البخاري	محمد بن إسماعيل البخاري (ت 256هـ)
صحيح مسلم	مسلم بن الحجاج (ت 261هـ)
سنن ابن ماجه	ابن ماجة القزويني (ت 273هـ)
سنن أبي داود	أبو داود سليمان الأزدي السجستاني (ت 275هـ)
تأويل مشكل القرآن	ابن قُتَيْبَة (ت 276هـ)
جامع الترمذي (سنن الترمذي)	أبو عيسى الترمذي (ت 279هـ)
هواتف الجنان	ابن أبي الدنيا (ت 281هـ)
السنن الكبرى	أحمد بن علي الخراساني النسائي (ت 303هـ)
عمل اليوم والليلة	
مسند أبي يعلى	أبو يعلى أحمد بن هلال التميمي الموصلي (ت 307هـ)

كمال الدين وتمام النعمة	أبو جعفر الصدوق (ت 381هـ)
المستدرك على الصحيحين	الحاكم النيسابوري (ت 405هـ)
دلائل النبوة	أبو نعيم الأصبهاني (ت 430هـ)
السنن الكبرى	أبو بكر البَيْهَقِي (ت 458هـ)
كتاب الأسماء والصفات	
دلائل النبوة	
الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة	الخطيب البغدادي (ت 463 هـ)
الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد	أبو المعالي الجويني، إمام الحرمين (ت 478هـ)
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزّالي الطوسي (ت 505هـ)
معيار العلم في فن المنطق	
معالم التنزيل في تفسير القرآن	الحسين بن مسعود البغوي (ت 516هـ)
شرح السنة	
تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل	الزمخشري (ت 538هـ)
المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز	ابن عطية (ت 542هـ)
التفسير الكبير	فخر الدين الرازي (ت 606هـ)
معالم أصول الدين	
شرح معالم أصول الدين	شرف الدين التلمساني (ت 644هـ)
المُفهِم لما أُشكل من تلخيص كتاب مسلم.	الحافظ أبو العباس القرطبي (ت 656هـ)

الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)	شمس الدين القرطبي (ت 671هـ)
قواعد العقائد	نصير الدين الطوسي (ت 672هـ)
شرح النووي على مسلم	يحيى بن شرف النووي (ت 676هـ)
الأذكار	
روضة الطالبين وعمدة المفتين	
خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام	
النبوات	ابن تيمية (ت 728هـ)
دَرْءُ تَعَارُضِ العقل والنقل	
التسهيل لعلوم التنزيل	ابن جُزَي الكَلْبي (ت 741هـ)
آكام المرجان في أحكام الجان	بدر الدين الشِّبلي الحنفي (ت 769هـ)
تفسير ابن كثير	ابن كثير الدمشقي القرشي (ت 774هـ)
شرح المقاصد في علم الكلام	سعد الدين التفتازاني (ت 792هـ)
شرح العقائد النسفية	
تفسير ابن عرفة	ابن عرفة الورغمي التونسي (ت 803هـ)
مجمع الزوائد ومنبع الفوائد	نور الدين الهيثمي (ت 807هـ)
فتح الباري بشرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني (ت 852هـ)
تهذيب التهذيب	
عمدة أهل التوفيق والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى	محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ)
الإتقان في علوم القرآن	جلال الدين السَّيُوطي (ت 911هـ)
النُقَايَةُ في أربعةَ عشَر عِلْمًا	
تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن	البكِّي الكومي التونسي (ت 916هـ)

الحاجب	
الفتاوى الحديثية	ابن حجر الهيثمي (ت 974هـ)
شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية	أبو عبد الله محمد بن محمد الزرقاني المالكي (ت 1122هـ)
لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية المضية في عقد أهل الفرقة المرضية	محمد السفاريني الحنبلي (ت 1188هـ)
الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية	أحمد بن أحمد بن عجيبة الحسني (ت 1224هـ)
روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (تفسير الألوسي)	شهاب الدين الألوسي (ت 1270هـ)

المبحث الثالـث: مضامين الشرح.

المطلب الأول: الشرح اللغوي.

أ- شرح الألفاظ.

ب- الصيغ الصرفية.

المطلب الثاني: الشرح النحوي.

المطلب الثالث: الشرح البلاغي.

المطلب الرابع: المضامين التاريخية.

المطلب الخامس: شرح المعنى العام للأبيات.

إذا كان فهمُ الشعر وشرحُه يتطلب الإلمامَ بعناصره ومكوناتِه المعرفيةِ، وكان إدراكُ الشراحِ لها متفاوتاً، تبعاً لاختلاف ثقافة الشارح وميوله، ومذهبه في الشرح، فقد كان لزاماً أن تختلف الشروح، لاختلاف ميول الشراح وطبيعة الآلياتِ الإجرائيةِ التي يستخدمونها، وكذلك طبيعة المتلقي. لكن الاختلاف لم يكن في القديم جوهرياً، لأن عملية الشرح الأدبي –كما هو معروف– ظلت خاضعة لمدة طويلة لمجموعة من الضوابط والمعايير، التي سار عليها الشراح، في تعاملهم مع النصوص –كما هو الحال بالنسبة لمحمد العربي الفاسي شارح القصيدة الشقراطسية– والتي لا يتضح المعنى دون الإلمام بها،ويمكن تلخيصُها في القضايا الآتية والتي نجد لها مثيلاً عند الشارح محمد العربي الفاسي في شرحه هذا.

المطلب الأول: الشرح اللغوي.

اهتم محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) بالجانب اللغوي اهتماماً بارعاً، وطرقه من جانبين:

أ– شرح الألفاظ.

ب– الصيغ الصرفية.

أ– شرح الألفاظ:

عندما يتأمل الدارس شروح الشعر قديماً تستوقفه ظاهرةُ عناية الشراح بالألفاظ، واتخاذها مدخلاً لتحليل البيت، ورصدِ قيمِه التعبيرية والمعنوية، لكونها تشكل عنصراً ثابتاً في بنية الكلام، ولعل اهتمامهم بالألفاظ نابعٌ من أنها هي أساسُ تركيب الكلام على حد تعبير ابن جني (ت 392هـ): "إن الكلام إنما هو في لغة العرب عبارة عن الألفاظ القائمة برؤوسها المستغنية عن غيرها"[1].

[1]– ج 32/1 الخصائص، ابن جني (ت 392هـ)، تح: محمد علي النجار، المكتبة العلمية (نشرة دار الكتب المصرية)، د. ط ، د. ت، القاهرة.

بهذا المنظور تشكل الألفاظُ عنصراً ثابتاً في بنية الكلام، فهي أساسُ تركيبِ الجملة، وهي التي تمنح للسياق شكلَه، بتفاعلِها مع ما قبلها، وما بعدها، فإن اقتُطعت من سياقها، وكانت عاريةً من كل تقييد نزعت نحو الإبهامِ والغموضِ، وتعددت دلالتُها، وأصبحت في حاجة إلى تحديد الدلالة المقصودة، ونفي ما عداها.

لم يخرج شارح القصيدة الشقراطسية – محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) عن هذه القاعدة، فقد توقّف عند الألفاظ الغريبة، وانطلق منها لكشف الدلالة، وسلك في ذلك مستوياتٍ متعددةً –كما ذكرت سلفاً– فحدّد معنى اللفظةِ المعجميَّ، وموقعَها الإعرابيَّ، وبنيتَها الاشتقاقيةَ والصوتيةَ، وعلاقتَها بالتركيب، وما يتصل بها من أوجه نحوية وصرفية، وبلاغية ونقدية، واعتمد في ضبط اللفظة على عدد من الطرق، من أهمها: إزالة عجمة اللفظة، أو بطريق التنصيص على ذلك. وهذه الأخيرة هي الأمثل عند عامَّة الشراح. يقول سعيد بن الأحرش في هذا الصدد: "وقد اعتمد الشراح في ضبطهم للألفاظ وشكلها على عدد من الطرق والكيفيات، منها شكل الألفاظ بالحركات، وهذه الطريقة قلَّما تسلم اللفظة فيها من التحريف والتصحيف، حين تتناولها أقلام النساخ، ولذلك وجدنا أغلب الشراح يعتمدون طريقة أخرى وهي طريقة التنصيص بالكلام على كيفية النطق، وهذه الطريقة شائعة في أكثر الشروح"[1].

ومن أمثلة الطريقة الثانية قول محمد العربي الفاسي –مثلاً– في شرح لفظة: "مَيَلِ" في البيت 6 من القصيدة الشقراطسية:

(6) وَصَـرْحُ كِسْـرَى تَـدَاعَى مِـنْ قَوَاعِـدِهِ وَانقَــضَّ مُنْكَسِــرَ الْأَرْجَــاءِ ذَا مَيَــلِ

يقول الشارح: "مَيَلِ: ابن القوطية: "مَيِلَ مَيَلاً –أي بكسر الياء في الفعل وفتحها في المصدر– أَعْوَجُ خِلْقَةً"".

أو في شرحه للفظة : "في حُجْبِ"، من قول الشقراطيسي.

---

[1]– بردة البوصيري بالمغرب والأندلس، سعيد بن الأحرش، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط. 1، 1998م، المملكة المغربية، ص: 41.

(20) **فَقُلْــتَ لاَ تَحْــزَنْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُنَــا وَكُنْـتَ فِـي حُجْـبِ سِـتْرٍ مِنْـهُ مُنْسَـدِلِ**

قول الشارح: "في حُجْبِ: خبر كان، وهو بضم الحاء، جمع حجابٍ، وقد يكون بفتحها مصدراً، والحَجْبُ والحِجابُ: "المَنْعُ عن الوُصولِ"...

وكان كثيرا ما يلجأ الشارح إلى ضبط الكلمة بكلمة مشهورة الوزن، والاستعانة بها لتحديد مدلول اللفظة المراد شرحها، ومن أمثلة ذلك ما ذهب إليه الشارح مثلاً في شرحه للفظة: "لم تَقِدِ" في شرحه للبيت السابع: "لم تَقِدِ: مضارع وَقَدَ"، كـ: "وَعَدَ" "يَعِدُ". أو في شرحه للفظة: "بالشُّعَلِ" في البيت الثامن: "بالشُّعَلِ: جمع شُعْلَةٍ، كـ: "غُرْفَةٍ، و"غُرَفٍ"".

ومن ذلك كذلك شرحه للفظة:" حالٍ" من قول الشقراطيسي .

(14) **مَا صَبْرُ مَنْ صَارَ مِنْ عَيْنٍ عَلى أَثَرٍ وَحَالُ مَنْ حَالَ مِنْ حَالٍ إِلَى عُطُلِ**

يقول الشارح: "حالٍ: اسم فاعل من حلِيَ كـ: "رَضِيَ". الزُّبَيْدِي: "حَلِيَتِ المَرْأَةُ إذا لبِسَتْ الحَلْيَ وتَحَلَّتْ فهي حَالِيَةٌ".

على ضوء هذه الشواهد يتضح لنا أن الشارح يعتمد على كلمة مشهورة الوزن، ويستعين بها على ضبط اللفظة المراد شرحها، ويبدو أن هذه الطريقة أسلم في ضبط مدلول الكلمة من طريقة الشكل بالحركات أو طريقة التنصيص عليها بالكلام.

وفي بعض الأحيان يتتبع الشارح التطور الدلالي للفظة، وما اعتراها من تغيير أثناء الاستعمال، والإشارة إلى كونها فصيحة أو مولدة أو عامية على نحو ما نجده عند محمد العربي الفاسي في شرح لفظة : "حَمَامُ" في بيت الشقراطيسي:

(21) **حُمَّـتْ لَـدَيْكَ حَمَـامُ الْـوَحْشِ جَاثِمَـةً كَيْــدًا لِكُــلِّ غَــوِيِّ الْقَلْــبِ مُخْتَبِــلِ**

يقول: "حَمَامُ: بفتح الحاء، وهي عند العرب ذواتُ الأطواقِ، نحو: الفواخِتِ، والقِماري، وساقُ حُرٍّ، والقطَا، والورَّاشينِ، وشِبْهُهَا. وعند العامَّةِ: الدَّواجِنُ فقط. والواحدةُ: حمامَةٌ، يقع على الذكر والأنثى؛ لأن الهاء إنما دخَلَتْه على أنّه واحد من جِنْسٍ، لا للتّأنيثِ".

وأحيانا يلجأ الشارح إلى العرف لتحديد معنى اللفظة، ومن أمثلة ذلك شرح محمد العربي الفاسي: "الأوثانُ" في هذا البيت:

(8) خَــرَّتْ لِمَبْعَثِــهِ الْأَوْثَــانُ وَانْبَعَثَــتْ ثَوَاقِـبُ الشُّـهْبِ تَرْمِـي الْجِـنَّ بِالشُّـعَلِ

يقول الشارح: "الأوثانُ: جمع وثَنٍ. قيل: "الوثَنُ ما كان غيرُه مصوَّرٌ، والصَّنَمُ ما كان مُصَوَّراً. وقيل: "الوثَنُ ما كان من غير حَجَرٍ كالنُّحاسِ، والصَّنَمُ ما كان من حَجَرٍ وغَيْرِه". وقيل: "هما بمعنى واحدٍ". والمراد هنا التماثيل التي كانت تُعْبَدُ من دون الله...".

وأحياناً أُخر يلجأ الشارح إلى إبداء رأيه في المسائل اللغوية، كما في لفظة: "تَخَالُ" في قول الشقراطيسي:

(22) وَالْعَنْكَبُـوتُ أَجَـادَتْ حَـوْكَ حُلَّتِهَـا فَمَـا تَخَـالُ خِـلاَلَ النَّسْـجِ مِـنْ خَلَـلِ

يقول الشارح: "فَمَا تَخَالُ: أي فما تَظُنُّ. الزُّبَيدي: "خِلْتُ أَخَالُ خَيَلاناً: ظَنَنْتُ". انتهى. والأفصحُ كسرُها "إِخَالْ"، وبعض العرب بفتحها، وهم بنو أَسْدٍ خاصَّةً.

ومن ذلك كذلك شرحه للفظة: "يَظَلُّ" في البيت:

(77) يَظَلُّ يَحْجَلُ سَاجِي الطَّرْفِ حَافِظَـهُ لِمِسْكَةِ الحِجْـلِ لاَ مِـنْ مِسْكَةِ الْخَجَـلِ

يقول الشارح: "يَظَلُّ: بفتح الظاء، مضارع ظل من أخوات كان، ومعناها الدلالة على اتصاف المخبر عنه بالخبر في ما بين الضحى والمساء من النهار، وهو الوقت الذي يُطلب فيه الظل من حرِّ الشمس، وهو غالب النهار، وتستعمل لمطلق الزمان

أيضاً توسُّعاً، ويمكن أنها هنا من هذا الاستعمال؛ أي صار، ويمكن أنَّها من الأوّلِ، لأن النَّهارَ وقت التحرُّكِ والمشيِ.

ب– **الصيغ الصرفية:**

اهتم الشارح محمد العربي الفاسي بالجانب الصرفي للكلمة المشروحة، وما يلحقها من تغيرات كالإدغام والإبدال والإعلال، حتى يأتي على جميع جوانبها؛ حيث يبحث عن أصلها، وشكلها، ويضبطها من حيث تصريفها، ويرجِّح الأحسن عنده، كما في لفظة: "حيٌّ" في قول الشقراطيسي:

(15) **حَـيٌّ فَمَـاتَ سُـكُونًا ثُـمَّ مَـاتَ لَـدُنْ حَــيَّ حَنِينًــا فَأَضْــحَى غَايَــةَ الْمَثَــلِ**

يقول الشارح: "حَيٌّ: بتشديد الياء، وأصله حَيِيَ كَ"عَلِمَ"، ثُمَّ أُدْغِمَ، وهو إدغامٌ جائِزٌ فيما كان المِثلانِ فيه ياءً لازِماً تحريكُهُمَا –نحو هذا".

ومن ذلك كذلك شرحه للفظة: "لِمَسْكَةِ" في قول الشقراطيسي.

(77) **يَظَلُّ يَحْجَلُ سَاجِي الطَّرْفِ خَافِظَـهُ لِمِسْكَةِ الحِجْـلِ لاَ مِـنْ مِسْكَةِ الْخَجَـلِ**

يقول الشارح: "لِمَسْكَةِ: بفتح الميم، المرَّةُ مِن مَسَكَهُ بمعنى حبسه"، لكن يتوقّف ذلك على استعمال "مسك" ثلاثياً، ولعل الناظم خفضَه. أمّا ابن القوطية، فلم يذكر، وإنَّما ذكر الرباعي فقط، فقال: "أمسكتُ الشيء: حبسْتُه". وقياس المرّة من الرباعي: إمساكة. فإن لم يكن الثلاثي مخفوضاً، فالصواب أن يكون لفظ البيت: "مُسْكَة"، بضم الميم، بمعنى البُخل.

وأحيانا يذكر الشارح وجوه الكلمة من غير أن يرجح أحدها كما في شرحه للفظة: "مُنْعَدِلٌ"، في قول الشقراطيسي:

(113) **قَـدْ عَـادَ مُنْحَـرِفٌ مِـنْهُمْ لِمُعْتَـرِفِ وَانْقَــادَ مُنْعَــدِلٌ مِــنْهُمْ لِمُعْتَــدِلِ**

يقول محمد العربي الفاسي: "مُنْعَدِلٌ: أي مائِلٌ عن طريق الحق، اسم فاعل من العدل، مطاوع "عدل". ابن القوطية: عدلتُك عن الشيء والطريق: صرفتُك". قال سعد الدين في "شرح تصريف الزنجاني": "انفعل مطاوعة، فعل، نحو: قطعته، فانقطع، ولهذا لا يكون لازماً، ولا يُبنى إلاَّ مِمَّا فيه علاج وتأثير. لا يقال: انكرم وانعدم، ونحوهما، لأنهم خصوه بالمطاوعة"، التزموا أن يكون أمرُه بما يظهر أثره، وهو علاج تقوية للمعنى الذي ذُكر من أن المطاوعة حصول الأثر".

وأحيانا أُخر يبحث الشارح عن اشتقاق الكلمة بعد ضبط اللفظ ودلالته، ويعزِّز ذلك بالشاهد المناسب، إمّا من القرآن، أو الحديث، أو الشعر، كما في شرحه للفظة: "قد قاتلوا"، في قول الناظم:

(60) قَـدْ قَـاتَلُوا دونَـكَ الأَقْيَـالَ عَـنْ جَلَـدٍ وَجالَـــدوا بِجِـــلادِ البِـــيضِ والجَـــدَلِ

يقول محمد العربي الفاسي: "قد قاتلوا: أي طلبوا قتل الأعداء، كما طلب الأعداء قتلهم، فإن فاعل وفعل دال على المشاركة في الفعل اللغوي، لكن هو هنا اشتراكٌ في أسباب الفعل اللغوي الذي هو الموضوع له الفعل الاصطلاحي الثلاثي من المادة، فإن القتلَ هو الإماتةُ؛ أي جلب المودّةِ الذي هو مقارن الفراق الروح للجسديِّ فقط للحياة، بالفعل الذي هو كسب العبد، وأجرى الله العادة، فإنّه يحدث سبحانه الموت عَقِبَه. ابن القوطية: "قَتَلْتُه قَتْلاً: أَمَتُّه بأي نوع. "والمقاتلة إنّما هي اشتراك في السبب البعيد الذي هو حمل كل واحد منها على صاحبه الذي؛ أي ذلك الحمل سبب لضربِه الذي يكون منه موته، ولذلك يقال: تقاتَلا. وقد لا يحصل قتلٌ البتّة. وقد يقتل واحدٌ فقط، فكانت الصيغة دالة على الطلب زيادة على ما هي مؤسسة عليه من المشاركة، فتكون المشاركة في الطلب لا فعل ما هي المادة موضوعة له. فالمقابلة بين الرجلين طلب كل واحد منهما قتل صاحبه، حصل القتل أم لا، وقد ينزل طلبه منزلة فعله، حتى كأنّه وقع. وقد أفصحَ بذلك صلى الله عليه وسلم. ففي الصحيح: "إذا التقى المؤمنان بسيفهما، فالقاتل والمقتول في النار، قيل: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال:

إنّه كان حريصاً على قتل صاحبه". فتكون المشاركة حقيقية، أو إطلاق القتل على طلبه، وتعاطي سببه مجاز...".

المطلب الثاني: الشرح النحوي.

كان أوائل الشراح يتكِئون على النحو لشرح بعض التراكيب، غير أن ذلك لا يعدو كونه إشارات مقتضبةً ينثرونها هنا وهناك، ولما تطوّر التفكير النقدي –كما ذكرت سلفاً في المبحث الخاص بنشأة وتطور الشروح– وتأصلت أسسه، أدرك النقاد والبلاغيون أهمية النحو في كشف الدلالة الغامضة للشعر، لأن ما ينشأ من علاقات بين الكلم لا يتوقّف عليها صحة المعنى أو فساده، إنما يَرجع إلى وظائف النحو وأحكامه، ويعتبر عبد القاهر الجرجاني أول من أسس هذا التفكير وأصَّله: "فلا تَرَيَنَّ كلاماً قد وصف بصحة النظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلاَّ أنت تجد مرجع تلك الفصاحة وذلك الفساد وتلك المزية، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[1].

أدرك النقاد والشراح أهمية النحو في بيان ما أُشكل من معاني الشعر، وما خفي من مقاصده، لأن هناك ألفاظاً لم تُستبهم على الأذهان بسبب علاقاتها الدلالية، وإنَّما استُبهِمت من أجل الوظائف النحوية التي يضطلع بها الكلام. ولما كانت الوظائف النحوية من آليات فك الغموض الذي يلف المعنى، نجد محمد العربي الفاسي استعان بها لإيضاح النص المشروح، وشرح معاني الشقراطسية المُسْتبهمة، فكان يذكر نوع الكلمة، ويحدّد أقسامها وعناصرها المختلفة، ويشير إلى ما يعرف بالفصائل النحوية كالتذكير والتأنيث، والتعريف والتنكير، ويذكر الوجوه الإعرابية المختلفة لمواقع الكلمة، وكل ما يلقي الدلالة من جهة النحو، وأحيانا نجده يذكر الوجوه ويُرجِّح الأحسن عنده.

[1]– ص: 7 دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، تح: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، ط. 3، 1992م، القاهرة.

إما أن يذكر الوجوه ويُبدي رأيه، كما في البيت السادس عشر من قول الشقراطيسي:

(16) وَالشَّاةُ لَمَّا مَسَحْتَ الكَفَّ مِنْكَ عَلَى جَهْـدِ الْهُـزَالِ بِأَوْصَـالٍ لَهَـا قُحُـلِ

يقول الشارح: "بأوصالٍ: أعضَاءٌ باعتبار اتّصالها. والمراد هنا الضِّرْعُ، والباء ظرفية، وجعلها بعضهم للمعية. وهذا بعيد، وقد تكون للتعدية. وتتعلق بأوصال".

كذلك في شرحه للفظة: "خَافِضَهُ"، في قول الشقراطيسي.

(77) يَظَلُّ يَحْجَلُ سَاجِي الطَّرْفِ خَافِضَهُ لِمِسْكَةِ الحِجْـلِ لاَ مِـنْ مِسْكَةِ الْخَجَـلِ

قال: "خافِضَهُ: اسم فاعل من خفض طرفه، رمى ببصره الأرض. ابن القوطية: "خفض الشيء خفضاً، ضد: رفعه". وهو هنا منصوب على الحالية أيضاً. وتعدّد الحال جائِزٌ.

– وإمّا أن يذكر الوجوه دون إبداءِ رأيه، كما في البيت السابع من قول الناظم:

(7) وَنَـارُ فَـارِسَ لَـمْ تَقِـدِ وَمَـا خَمَـدَتْ مُـذْ أَلْـفِ عَـامٍ وَنَهْـرُ الْقَـوْمِ لَـمْ يَسَـلِ

يقول الشارح: "مُذْ: مبني على السكون، ومُنذُ: مبني على الضمّ، وهما يكونان حَرْفَيْ جَرٍّ ولا يَجُرَّانِ إلا الزمان. ومعناهما ابتداء الغاية إن كان الزمان ماضياً، نحو: "عَفَتْ آثارُه مُنْذُ أَزْمان"، والظرفية: إن كان حاضراً، نحو: "مُذْ يَوْماً" أو بمعنى "مِنْ" و"إلى" إن كان معدوداً؛ نحو: "مُذ يَوْمَيْن". ويكونان اسميْن؛ إذا دَخَلا على اسم مرفوع، نحو: "ما رأيتُه مُذْ يَوْمانِ" أو "مُذْ يَوْمُ الجمعةِ"، وهما مبتدآن، وما بعدهما خبرٌ، وقيل: بالعكس، وقيل: ظرفان، وما بعدهما فاعِلٌ بكان تامّة محذوفة. أو دخلا على الجملة؛ فعلية أو اسميَّةً".

ومن ذلك كذلك شرحه للفظتي: "حُمَّتْ" و "لِكُلِّ" في قول الناظم:

(21) حُمَّـتْ لَـدَيْكَ حَمَـامُ الْـوَحْشِ جَاثِمَـةً كَيْـدًا لِكُـلِّ غَـوِيِّ الْقَلْـبِ مُخْتَبِـلِ

يقول الشارح: "حُمَّتْ: لا رواية عندي فيه، وهو مُحتَملٌ لأن يكون فعلاً ماضياً مشدّدَ الميم مبنيا للمفعول. ابن القوطية: "حُمَّ الأمْرُ حَمّاً: قُضِيَ". فيكون المراد قُضِيَ كونُ الحمامِ على الحالةِ المذكورة. وأن يكون ماضياً مبنياً للمفعول معتلّ الآخِرِ. ابن القوطية: "حَمَيْتُ –كضربْتُ– القَومَ حِمَايَةً: نَصَرْتُهُمْ، والمكانَ: مَنعتُه". الزبيدي: "حَمَيْتُ الشيءَ حمايةً وحِمىً ومَحْمِيَّةً: دَفَعْتُ عَنْهُ".

ويقول: "لِكُلِّ: لَفْظٌ موضوع لاستغراقِ أفرادِ المضاف إليه المُنَكَّرِ، نحو: ☋⑦⑩⬀☸☪✧★🖫☞🖃✌♉♈❒ 🕓☒⬁✡✧☸☪⬀☞ ♏♒🖃⬀③] ⬀♉✋🇬🇧☯♦⬀⬂❺ ♏♒🖃⬀③] .[1⬋⬂⑧[✋⬁◘⬀♌①☮𝓮✍☝ ⬀♉✋🇬🇧☯♦⬀⬂❺ ♏♒🖃⬀③] .[2⬋⬂⑧[✋⬁◘⬀♌①☮𝓮✍☝ ⬀♉✋🇬🇧☯♦⬀⬂❺ ♏♒🖃⬀③] والمُعَرَّفُ المجموع كلُّ العبيدِ جاؤوا، [✌❍◆ ③⬀♒🖃 ♏ ② ⬀♌✋ ✠✡🢐♾ ✌❍◆ ③⬀♒🖃 ♏ ② ⬀♌✋ ✠✡🢐♾ ☝⑧✋♑♌◘✂🖫♌①⬈⬀🖂𝓮✍❍✌ 🢐⬁❻⬁♦☸🐟🐟✌⋋□ ☝⑧✋♑♌◘✂🖫♌①⬈⬀🖂𝓮✍❍✌ 🢐❖✂🖫♌①⬁❺♎♦𝓮✍❍✌ ♾🢀⬀⑦☞✌♌▪ ☠🐟◎🐟⌨𝍐✌ ■♌⬀⬁✡☜⬀♌❑✌]☹ [3]. والاستغراقُ وأجزاءُ المضاف إليه المفردُ المُعَرَّفُ، نحو: "كلُّ زيد"، أو "الرَّجُلُ حسن"؛ أي كلّ أَجْزَائِه".

المطلب الثالث: الشرح البلاغي.

مسألة البلاغة هامة عند محمد العربي الفاسي، نظراً لتوسعه فيها، ممّا يضفي عليها الطابع النقدي الأدبي، فقد مزج فيها بين ضرورة، وطبيعة العلم، وتجليات الفن، وبين تقرير القواعد، وجلب الشاهد، وقد أتى على ذكر الكثير من المصطلحات البلاغية في الشرح، وأقام موازين نقدية استنبطها من تعليلات طريفة، وموفقة، ممّا جعلها تزخر بمعارف فنية، ودراسة كافية بمدركات الأدب المختلفة عند الشارح.

---

[1]– آل عمران/185.

[2]– الروم/31.

[3]– مريم/93

فقد كوّن شرح النص ثروة بلاغية متلاحمة على شكل ملاحقات لتتبع مضامينه الخاصة، ولهذا يورد الأوجه المحتملة لإيضاح الصورة حسب علم البلاغة، فقد جمع بين النظري الصرف، وبين منهج التطبيق المباشر للنص، وبهذا التحري أسهم محمد العربي الفاسي في تسليط الضوء على النص الأدبي المشروح، وكان لا يكتفي فقط بذكر اللون البلاغي، وإنما يستطرد في الحديث عنه، مُتطرّقاً لتعريفه، مع ذكر بعض شواهده، فهو حين تحدث مثلاً عن الاستعارة الترشيحية، بعد استنباطها من لفظة: "أَوْ أَدْنَى"، وفي أثناء شرحه لبيت الشقراطيسي القائل:

(26) عَنْ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدنَى هَبَطْتَ وَلَمْ تَسْتَكْمِلِ اللَّيْلَ بَيْنَ الْمَرِّ والقَفَلِ

يقول: "أَوْ أَدنَى: ...والحال إنّما هو القرب الحسي، وقد أوَّله أهل القول الثاني بالقرب المعنوي، الذي هو غاية الاختصاص، وترفع القدر والحضوة والمكانة، بحيث إنها رتبة لم يدركها غيره، وجاء ذلك عن طريق الاستعارة الترشيحية، وهي أن تقرن الاستعارة بما يلائم المستعار منه، فاستعير الدُّنو للتجلي بصفات الألطاف والإكرام والترفيع، إن كانت الضمائر لجانب الحق للتجلي بصفة الألطاف والإكرام والترفع والتأنيس. وإن كانت للنبي صلى الله عليه وسلم، فيكون استعير للاِصطفاءِ والاستخلاص، ثم بنى عليه على قرب المكان من كونه ذا مسافة قريبة، فقال: فكان قاب قوسين أو أدنى، وعلى هذا حمل الغزّالي حديث: "ينزل ربنا إلى سماء الدنيا". وهو باب واسع وشواهده في علم البيان كثيرة كقوله:

ويَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ الجَهولُ بِأَنَّ لَهُ حاجَةً في السَّمَاءِ..."

فإن الصعود المكاني استعارة للعلو في المرتبة.

وأحيانا يُرجّح الشارح معنىً معيّناً بغرض بلاغي، كما في شرحه للفظة: "البِيرُ" في قول الناظم:

(45) أَمَرَّتِ البيرُ بَلْ غَارَتْ لِمَجَّتِه فيها وَأَعْمَى بَصيرَ العَيْنِ بالثَّفَلِ

يقول: "البيرُ: أصلها الهمزُ، ويُبَدَّلُ. الزُبَيْدِي: "البِئْرُ معروفة، والجمع آبار وبئارٌ". وكأنَّ المراد هنا فـ: "أَمَرَّتِ": أتَتْ بماءٍ مُرٍّ، كأنجبتِ المرأةُ: أتتْ بولدٍ نَجيبٍ، لأن البِيرَ حقيقةُ اسْمٍ للموضِعِ المحفورِ للماء، سواءٌ كان فيه ماءٌ أم لا. فإذا كان فيها ماءٌ سُمِّيَتْ بئْراً أيضاً، وركيَّةً، فهي جنس. والرَّكيَّةُ نوع منه. وقد يراد هنا بالبير نَفْسُ الماءِ الكائنِ فيها مجازاً، تسميةً للْحالِّ باسْمِ المَحَلِّ.

المطلب الرابع : المضامين التاريخية.

حفل الشرح بحديث وافر عن السيرة النبوية، فقد ذكر الشارح جميع الأحوال، والأحداث التي رافقت ذلك من قبلِ أن يبعث إلى أن ولد وبعث صلى الله عليه وسلم.

أظهر محمد العربي الفاسي فضائل النبي صلى الله عليه وسلم، وشمائلَه، وصفاتِه الخُلقيةَ والخِلقيةَ، ومعجزاتِه، وما أحدثه هذا البعث من تغيير شامل في الفكر، والتاريخ، والكون عند العرب، والعجم، والإنس، والجان.

وفي تناوله لها اعتمد على النصوص الموثقة لهذه الأحداث، وكل ما صح عنه من جهاد، وهجرة، وغزوات من كتب التاريخ، والسيرة، والسنة. مع إبداء رأيه في المسائل التاريخية. لننظر إلى الشارح وهو يبدي رأيه في شرحه للفظة: "الغارِ"، في قول الناظم:

(18) وَآيَـةُ الْغَـارِ إِذْ وُقِيـتَ فِـي حُجُـبٍ عَنْ كُلِّ رِجْسٍ لِرِجْسِ الكُفْرِ مُنْتَحِلِ

يقول: "الغارِ: الكهفُ في الجبل، والجمع غيرانُ. الزُّبَيْدي: "الغَارُ والمَغارَةُ: السَّرَبُ". قال: "والسَّرَبُ: حَفِيرٌ تحتَ الأَرْضِ". والمراد هنا غارٌ بأعلى جَبَلِ ثَوْرٍ، وهو جَبَلٌ بأسفل مكَّة. قال تقيّ الدين الفاسي: "هذا هو المعروف". وذكر الأزرقي: "أنّه غارُ حراء". وذكر الفاكهي: ما يوافق ذلك. وهو غريب.

ومن ذلك كذلك تأييد الشارح للرأي السّديد بعد شرحه لبيت الناظم في قوله:

(19) وَقَالَ صَاحِبُكَ الصِّدِّيقُ كَيْفَ بِنَا فَنَحْنُ مِنْهُمْ بِمَرْآى النَّاظِرِ العَجِلِ

قال: "**وَقَالَ:** تَلَفَّظَ بلَفْظٍ دَالٍّ على هذا المعنى المذكور فيما بعدُ.

صَاحِبُكَ: اسم فاعل صَحِبَهُ صُحْبَةً، وهو لغةُ: المُلاَزِمِ. في **القاموس:** "صَحِبَهُ، كَسَمِعَهُ، صَحَابَةً، وَيُكْسَرُ، وَصُحْبَةً: عَاشَرَهُ". وشرعًا: المُؤْمِنُ المُجْتَمِعُ بالنبي صلى الله عليه وسلم مُؤْمِنًا به. وكلاهما صادقٌ هنا.

الصِّدِّيقُ: بَدَلٌ منه، وهو بكسر الصَّادِ وتشديدِ الدَّالِ. ومعناه الدَّائِمُ الصِّدْقِ في قولِه وفعلِه وحالِه. والمراد به هنا: خليفةُ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم **أَبُو بَكْرٍ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ القُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ** رضي الله عنه.

كَيْفَ: اسم استفهام، ويُسْأَلُ به عن الحالِ؛ أي مَآلِ الأمرِ أو الحالِ الصَّالِحَةِ.

بِنَا: في النَّجَاةِ منهم، على الحالِ التي نَحْنُ بها، فربمّا ظَهَرَ أنَّها لا تجيءُ، **لوحة 18**، منهم.

فَنَحْنُ مِنْهُمْ بمَرْآى: أي مَحَلٌّ تَصِلُ إليه رُؤْيَتُهُم.

النَّاظِرِ: اسم فاعل، نَظَر كـ"نَصَرَ". **ابْنُ القُوطِيَّةِ:** "نَظَرْتُ فِي الْكِتَابِ وَالأَمْرِ وبِالْعَيْنِ وَإِلَى الشَّيْءِ نَظَرًا: أَبْصَرْتُ".

الْعَجِلِ: نعتٌ للنّاظِرِ. **الزُّبَيْدِي:** "العَجَلُ والْعَجَلَةُ فِي الأَمْرِ سَوَاءٌ، وَرَجُلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجْلاَنُ، مِنْ قَوْمٍ عُجَالَى. أي بحيث لا يحتاج إلى تَأَمُّلٍ وتَأَنٍّ في النظر، بل يراهم بأدنى التفاتٍ. فَهْمٌ تَميمُ النُّكْتَةِ".

المطلب الخامس: شرح المعنى العام للأبيات.

يشكل شرح المعنى العام للبيت أو الأبيات غاية أساسية في شرح الشعر، فهو المحور الرئيس الذي تدور في فلكه جميع مواد الشرح، مثل شرح الألفاظ والتراكيب

والمعنى النحوي، إذ تتقاطع جميعاً في تحديد الدلالة، وتتآزر لعقد الألفة بين النص والمتلقي.

فإذا كان الشعر عملاً فنياً مادته التشكيلية "اللغة"، فإنَّ اللغة تقوم على فاعلية الألفاظ والتراكيب والمعنى النحوي والصرفي، وتعمل على كشف المعنى، وإزاحة أي غموض يَلتبِسُ به. ومن تمّ يصبح حشد العناصر السابقة لَيس غاية في حد ذاتها، وإنّما وسائل يتلطّف بها إلى الدلالة، التي هي غاية ما يسعى المتعامل مع النص إلى إدراكها، سواء أكان ناقداً محلّلاً أو شارحاً مفسّراً، ولذلك كانت عناية العرب بالألفاظ تدل على عنايتهم بالمعاني، على نحو ما بَيَّنَه ابن جني: "فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسّنوها، وحَمَوْا حواشيَها وهذَّبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا تَرَيَنَّ أن العناية إنّما هي بالألفاظ بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني"[1].

وإذا كان كشف الدلالة، إذن، هو الغاية المقصودة من الشرح، فكيف نظر الشارح محمد العربي الفاسي إلى الدلالة المعنوية في قصيدة الشقراطسية؟

إن نظرة متفحصة لشرح الفاسي على الشقراطسية تجعلني أقرُّ أن الشارح أولى للمعنى عناية خاصة، وبحث عمّا تختزنه الألفاظ من دلالات عميقة، وما يؤول إليه المعنى من احتمالات ممكنة، وكان منهجه في تتبع المعنى وملاحقته، يدل على أنه ينظر إلى النص على أنه يشكل وحدة متكاملة، وحدة عضوية، وأن البيت له صلة معنوية بما قبله وما بعده، وإن كان الشرح قائماً على وحدة البيت، ولذلك كان الشارح تارة يشرح القصيدة بيتاً بيتاً، وتارة بيتين أو أكثر.

ومن أمثلة شرح البيت الواحد، قول الناظم:

(3) تَـوْرَاةُ مُوسَـى أَتَـتْ عَنْـهُ فَصَـدَّقَهَا إِنْجِيـلُ عِيسَـى بِحَـقٍّ غَيْـرِ مُفْتَعِـلِ

[1]– الخصائص لابن جني (ت 392هـ)، م. س، 217/1.

يقول الشارح: "والمعنى أنّ التوراةَ أتَى فيها الإخبار بالنبي صلى الله عليه وسلّم، وذلك الإخبار حقٌّ من عند الله تعالى غير مُفْتعَلٍ من عند الخَلْقِ، وصدَّقَ ذلك الإخبارُ الإنْجيل أيضاً. ويُدعِّم الفاسي قوله بالشاهد القرآني، فيقول: "قال تعالى:

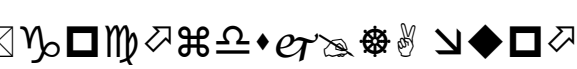

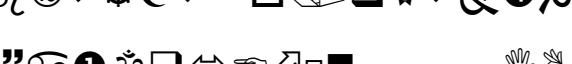

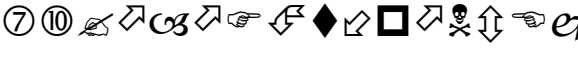

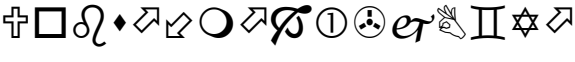

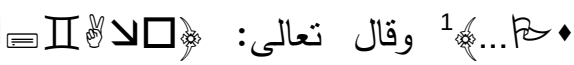

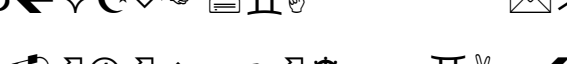

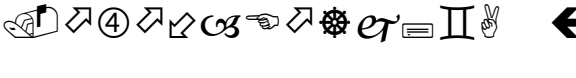

[1]- الأعراف/156.

أمّا من أمثلة شرح البيتين مع إيراد الشاهد من الحديث النبوي، قول الشقراطيسي في البيتين العاشر والحادي عشر:

(10) **وَفِـي دُعَائِـكَ بِالأَشْـجَارِ حِـينَ تَمْشِـي بِـأَمْرِكَ فِـي أَغْصَـانِهَا الـذُّلُلِ**

(11) **وقُلْتَ عُودِي فعادَتْ في مَنَابِتِهَا تِلْـكَ الْعُـرُوقُ بِـإِذْنِ اللهِ لَـمْ تَمِـلِ**

يقول الشارح: "وكل ذلك بإذن الله تعالى مُعجزةٌ عظيمةٌ. وهذا هو المبتدأ المُخْبَرُ عنه بقوله: "وَفِي دُعَائِكَ"، وحَذْفُهُ للعِلم به. وأشار بهذا إلى ما ورد في أحاديثَ كثيرةٍ من مَشْي الأشجارِ. منها: ما ذكره الهيثمي، فقال: "إنّه صلى الله عليه وسلم عَرَضَ على أعرابيٍّ الإسلامَ، فقالَ: هل من شاهد على ما تقولُ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هذه السَّمُرَةُ فَدَعاهَا، فأَقْبَلَتْ تَخُدُّ الأَرْضَ حتى قامت بين يَدَيْهِ، فاستشْهَدَهَا ثَلاثاً. فشهدتْ أنَّه كما قال، ثم رجعت إلى مَنْبَتِهَا"[2]".

وأمّا من أمثلة شرح أبيات عدّة مُجْتمعَة، لننظر قول الشقراطيسي من البيت الخامس عشر إلى البيت الرابع والعشرين:

(15) **حَـيٌّ فَمَـاتَ سُـكُونًا ثُـمَّ مَـاتَ لَـدُنْ حَـيَّ حَنِينًـا فَأَضْـحَى غَايَـةَ الْمَثَـلِ**

(16) **وَالشَّاةُ لَمَّا مَسَحْتَ الكَفَّ مِنْكَ عَلَى جَهْـدِ الْهُـزَالِ بِأَوْصَـالٍ لَهَـا قُحُـلِ**

(17) **سَـحَّتْ بِـدِرَّةِ شَـكْرَى الضَّـرْعِ حَافِلَـةٍ فَـرَوَّتِ الرَّكْـبَ بَعْـدَ النَّهْـلِ بِالْعِلَـلِ**

(18) **وَآيَـةُ الْغَـارِ إِذْ وُقِيـتَ فِـي حُجُـبٍ عَنْ كُلِّ رِجْسٍ لِرِجْسِ الكُفْرِ مُنْتَحِلِ**

(19) **وَقَـالَ صَـاحِبُكَ الصِّـدِّيقُ كَيْـفَ بِنَـا فَـنَحْنُ مِـنْهُمْ بِمَـرْآى النَّـاظِرِ العَجِـلِ**

(20) **فَقُلْـــتَ لاَ تَحْـــزَنْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُنَـــا وَكُنْـتَ فِـي حُجْبِ سِتْرٍ مِنْـهُ مُنْسَـدِلِ**

---

[1]– الصف/5.

[2]– مجمع الزوائد للهيثمي: 292/8.

(21) حُمَّتْ لَدَيْكَ حَمَامُ الْوَحْشِ جَاثِمَةً كَيْدًا لِكُلِّ غَوِيِّ الْقَلْبِ مُخْتَبِلِ
(22) وَالْعَنْكَبُوتُ أَجَادَتْ حَوْكَ حُلَّتِهَا فَمَا تُخَالُ خِلاَلَ النَّسْجِ مِنْ خَلَلِ
(23) قَالُوا وَجَاءَتْ إِلَيْهِ سَرْحَةٌ سَتَرَتْ وَجْهَ النَّبِيِّ بِأَغْصَانٍ لَهَا هُدُلِ
(24) وَفِي سُرَاقَةَ آيَاتٌ مُبَيَّنَةٌ إِذْ سَاخَتِ الْحِجْرُ فِي وَحْلٍ بِلاَ وَحَلِ

يقول الشارح: "يشير بالأبيات التسعة إلى ما وقع في هجرته صلى الله عليه وسلم من المعجزات. وسياق الخبر عن ذلك: "أنّه لَمَّا أَذِنَ الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة الشريفة، جاء إلى بيتِ **أبي بكرٍ** رضي الله عنه وقتَ الظهيرةِ، فقال: إنَّه قد أُذِنَ لي في الخروج. قال: الصُّحْبَة يا رسول الله؟ قال: نعم، قال: فَخُذْ إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ. قال: بالثَّمَنِ –أي لتَتَمَحَّضَ هجرتُه لله ولا يكونُ لأَحَدٍ فيها مِنَّةٌ– فخرجا ليلاً إلى غار جبل ثَوْرٍ، فاستخفيَا فيه، وكان ذلك يومَ الاثنينِ هلالَ ربيعِ الأوَّلِ أو الخميسِ الذي يَليهِ. ووصل المدينةَ يوم الاثنينِ ثانِيَ عَشَرَ الشَّهْرِ، وجمع بينهما بأنَّ خروجَه من مكَّةَ يوم الخميس ومن الغارِ ليلةَ الْإِثنينِ. وخَلَّفَ **عليًا رضي الله عنه** لِيُؤَدِّيَ ما عنده من الودائِع، ولمّا فَقَدَتْه قريشٌ طلبوه بمكَّةَ؛ أعْلاها وأسْفَلَها، فلم يَجدوهُ، وبعثوا القافَّةَ أَثَرَهُ في كلِّ وجهٍ، فوجدوا –الذي ذهب قِبَلَ ثَوْرٍ– أَثَرَهُ هناك. فلم يَزَلْ يَتْبَعُه حتّى انقطع لمَّا انْتهى إلى ثَوْرٍ. وشَقَّ عليهم خروجَهُ وجَزَعُوا منه وجعلوا لِمَنْ رَدَّهُ مائةَ ناقةٍ. ولمّا دخل الغار، قيل": "أَنْبَتَ الله تعالى على باب الغار شجرةَ أُمِّ غَيْلانَ، فحَجَبَتْ عن الغارِ عَيْنَ النّاسِ، وأرسلَ الله حمامَتَيْن وحشيتَيْن، فَوَقَعَتا على فَمِ الغار". ورُوِيَ: "أنهما باضَتا في أَسْفَل النَّقْب". ويُقال: "إنَّ حمامَ الحَرَمِ من نَسْلِهما". "وأمر الله تعالى العنكبوتَ فنسجتْ على وجهِ الغارِ، فلمّا وصل القافَّةُ إلى الغار، جعل بعضُهُم ينظرُ فيه، فلم ير إلاّ حمامَتَيْن وحشيتَيْن ونَسْجَ العنكبُوتِ. فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: مَا لَكَ؟ قال: رأيت حمامتَيْن وحشيتَيْن، فعرفْتُ أنّه ليس فيه أحدٌ. وقال آخرون: ادْخُلوا الغارَ. فقال **أميةُ بْن خَلَفٍ**: إنَّ في الغار العنكبوتَ أقدمُ من ميلاد **محمدٍ صلى الله عليه وسلم**".

وصَحَّ: "أنَّ **أبا بكرٍ** قال: يا رسولَ الله، لو أنّ أحدَهم نظرَ إلى قدمَيْه لرآنا! فقال: "**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**". وفي رواية: "أنَّ **أبا بكر** لما رأى القافَّةَ اشْتَدَّ حُزْنُه، وقال: إنما أنا رجلٌ واحدٌ، وإن قُتِلْتَ هَلَكَتِ الأُمَّةُ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا**" بالمعونة والنصر، ﴿✠✡☪➹☯♋☜☪🕮🕭➹☪☜➹♌➷ ✌❁☯♈✉ ➷♌➹🕭❁✌ ■➹✡♋⑩➹☪⇳☜➹☪⇔☜➹♋☜➹⑩▫➹⑩④➹⌘[1]﴾". قال بعض المفسرين: الضمير عائد على النبي صلى الله عليه وسلم وَيُقَوِّيهِ أَنَّ الضمائرَ الآتيةَ له. وقال آخرون: على **أبي بكر رضي الله** عنه؛ لأنه الذي انْزَعَجَ. والنبي صلى الله عليه وسلم لم تزل معه السكينةُ وهي أَمَنَةٌ تسكنُ عندها القلوبُ. ﴿❑⌘✌🕮☜➹♌⑨❀❑➹♎♋☜➹☜[2]﴾ أي رسولَه. ﴿✌➹✡♊❹⬧➹❑➹♦❁⑦☞ ➹"☠ ◷❒❑➹♋⇔☜➹♌❹❶➹❑➹♦❁⑦☞ ➹"☠[3]﴾؛ أي الْمَلاَئِكَةُ يَصْرِفُونَ أَبْصَارَ الكُفَّارِ عَنْهُ، وَيَنْصُرُونَهُ فِي بَدْرٍ وغَيْرِهِ. قال **الهَيْثَمِي**: "وَبَيْنَ قَوْلِ **نَبِيِّنَا** وقَوْلِ **مُوسَى** صلى الله عليهم ﴿♎◆⌨♊✌☠③❀◎❀❀➹♌➷ ⌘⌘☜➹✡⌑➹❑▫☞➹✡♊♦⌘ ❀➹♋➔❀❀[4]﴾ ما بين مقامَيْهِما، إذ كمالُ الإمداد لِلاِتِّبَاعِ ليس إلاّ لنَبِيِّنا صلى الله عليه وسلَّم، فأَمَدَّ **أبا بكرٍ** بشهودِه المعيَّةَ أيضًا، وقَصَرَها **موسى عليه السلامُ** على نفسِه". وأيضًا شتان ما بين معيَّةِ الألوهيّة ومعيَّةِ الرُّبوبيَّة.

والمشهور: "أَنَّهُ –صلى الله عليه وسلم– مَكَثَ فِي الْغَارِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، وكان **عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ** مع صِغَرِ سِنِّهِ يَأْتِيهِمَا لَيْلاً بِخَبَرِ قُرَيْشٍ ثُمَّ يُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ كَبَائِتٍ بِمَكَّةَ، وَكَانَ **عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ** مَوْلَى **أَبِي بَكْرٍ** يَأْتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِمَا يُغَذِّيهِمَا مِنْ لَبَنٍ. وَاسْتَأْجَرَ **عَبْدَ اللهِ بْنَ الأُرَيْقِطِ اللَّيْثِيِّ** لِيَدُلَّهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ. وَلَمْ يُعْرَفْ

---

[1]– التوبة/40.

[2]– التوبة/40.

[3]– التوبة/40.

[4]– الشعراء/62.

لَهُ إِسْلاَمٌ، فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلاَثٍ، فَأَتَاهُمَا وَسَارَ مَعَهُ **عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ**، فأخذ بهما طريقَ البحرِ، قال **أبو بكرٍ**: فَأَسْرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَسِرْنَا يَوْمَنَا حَتَّى قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ، وَانْقَطَعَ الطَّرِيقُ، وَلَمْ يَمُرَّ أَحَدٌ، رُفِعَتْ لَنَا صَخْرَةٌ لَهَا ظِلٌّ لَمْ تَأْتِ عَلَيْهِ الشَّمْسُ، فَسَوَّيْتُ لِلنَّبِيِّ –صلى الله عليه وسلم– مَكَانًا فِي ظِلِّهَا، وَكَانَ مَعِي فَرْوٌ بِفُرْشَتِهِ، وَقُلْتُ لِلنَّبِيِّ–صلى الله عليه وسلم– فَنَامَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ –صلى الله عليه وسلم– فَقَالَ **لِأَبِي بَكْرٍ**: مَا آن الرَّحِيلُ؟ قَالَ: فَقُلْتُ: بَلَى، قَالَ: فَارْتَحَلْنَا، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِأَرْضٍ صَلْبَةٍ جَاءَ **سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ**، فَبَكَى **أَبُو بَكْرٍ**، وقال: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ أُتِينَا، قَالَ: كلاَّ، وَدَعَا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بِدَعَوَاتٍ، فَارْتَطَمَ فَرَسُهُ، فقال: قَدْ أَعْلَمُ أَنْ قَدْ دَعَوْتُمَا عَلَيَّ، فَادْعُوَا لِي، ولَكُمَا عَلَيَّ أَنْ أَرُدَّ النَّاسَ عَنْكُمَا، وَلاَ أَضُرُّكُمَا. قال: فَدَعَا لَهُ، فَرَجَعَ وَوَفَّى، وَجَعَلَ يَرُدُّ النَّاسَ". "ومَرُّوا على خَيْمَتَيْ **أُمِّ مَعْبَدٍ الْخُزَاعِيَّةِ** بَرْزَةً جَلْدَةً، تَجْلِسُ بِفِنَاءِ الْقُبَّةِ تَسْقي وتُطعِمُ، فَسَأَلُوهَا لَحْمًا وَتَمْرًا يَشْتَرُونَهُ مِنْهَا، فَلَمْ يُصِيبُوا عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، وَكَانَ الْقَوْمُ مُرْمِلِينَ مُسْنِتِينَ، فَنَظَرَ –صلى الله عليه وسلم– إِلى شَاةٍ فِي كَسْرِ الخَيْمَةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا **أُمَّ مَعْبَدٍ**؟ قالت: شَاةٌ خَلَّفَهَا الجَهْدُ عَنِ الغَنَمِ، قَالَ: هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟ قَالَتْ: هِي أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، قَالَ: أَتَأْذَنِينَ أَنْ أَحْلُبَهَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا، فَدَعَا بِهَا رَسُولُ اللهِ – صلى الله عليه وسلم– فَمَسَحَ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا وسَمَّى اللهَ، وَدَعَا لَهَا فِي شَاتِهَا، فَتَفَاجَّتْ عَلَيْهِ، وَدَرَّتْ، وَدَعَا بِإِناءٍ يُرْبِضُ الرَّهْطَ، فَحَلب ثَجًّا، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوَتْ، ثُمَّ سَقَى أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا، ثُمَّ شَرِبَ آخِرُهم، ثم حَلَبَ إِنَاءً حَتَّى مَلَأَهُ ثُمَّ غادَرَهُ عِنْدَهَا، وَارْتَحَلُوا عَنْهَا. وَأَصْبَحَ صَوْتٌ بِمَكَّةَ عَالٍ يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ، ولا يَدْرُونَ مَنْ صَاحِبُهُ، وَيُقَالُ إِنَّهُ مِنَ الْجِنِّ، وَهُوَ يَقُولُ: [الطويل]

جَــزَى اللهُ ربَّ النــاسِ خيــرَ جزائِــه ... رَفِيقَــيْنِ قَــالاَ خيْمَتَــيْ أُمِّ مَعْبَــدِ

هُمَــا نَــزَلاَ بِالــبِرِّ وارتحــلاَ بِــه ... فقَـد فـازَ مـن أمْسَـى رَفِيـقَ مُحَمَّـدِ

فَيَــا لِقُصَــيٍّ مَــا زَوَى اللَّــهُ عَــنْكُمُ ... بِه مِنْ فِعالٍ لا يُجَارَى وَسُؤْدَدِ

لِــيَهْنَ بَنِــي كَعْــبٍ مَكَــانَ فَتَاتِهِــمْ ... وَمَقْعَــدُها لِلْمُــؤْمِنِينَ بِمَرْصَــدِ

سَــلُو أُخْــتَكُمْ عَــنْ شَــاتِها وإنَائِهــا فــإنّكُمْ إنْ تَسْــأَلُوا الشَّــاةَ تَشْهَــدِ
دَعَاهَــا بشَــاةٍ حَــالِبٍ فَتَحَلَّبَــتْ لَــهُ بِصَــرِيحٍ ضَــرَّةُ الشَّــاةِ مُزْبَــدِ
فغَادَرَهَــا هُنــا لَدَيْهَــا لِحَالِــبٍ تَرَوَّهَــا فــي مَصــدَرٍ ثُــمَّ مَــوْرَدِ"

الضَّرَّةُ: لحم الضَّرْعِ، والصَّرِيحُ: الخالِصُ، ومُزْبَدٌ: نازِلٌ من الضَّرْعِ.

وكان أهل مكَّةَ لم يعرفوا أينَ توجَّه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فلمَّا سَمِعوا ذلك عَرَفُوا حيثُ تَوَجَّهَ. "ولمَّا سَمِعَ المسلمون بالمدينة بمَقْدَمِهِ صاروا يخرجُونَ كلَّ يومٍ إلى الحَرَّةِ، ينتظرونه إلى قُرْبِ الظُّهْرِ فَانْتَظَرُوهُ يَوْمًا وَعَادُوا إلى بُيُوتِهِمْ، وإذا بيهوديٍّ على موضع عالٍ فصاح: هذا جِدُّكُم؛ أي حَظُّكُمْ يَا بَنِي قَيْلَةَ –أي الأَوْسُ والخَزْرَجُ– فخرجوا إليه سِراعًا بسِلاحهم، فنزل بِقُبَاءَ يوم الْإِثنين، قيل: "أولُ رَبِيعٍ"، وقيل: "ثَانِي عَشْرَةَ"، وقيل: "غَيْرُ ذَلِكَ"، "وأقام بِقُبَاءَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ليلةً". كما في صحيح مسلم. ثم رَكِبَ – صلى الله عليه وسلم– فَكَانَ كُلَّمَا مَرَّ بدَارٍ من دُورِ الْأَنْصَارِ سَأَلُوهُ النُّزُولَ عِنْدَهُمْ. فَيَقُولُ: خَلُّوا سَبِيلَهَا –أي ناقتَه– فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ، وأَرْخَى زِمامَها، فاسْتَمَرَّتْ إِلَى أن بَرَكَتْ مَوْضِعَ بَابِ مَسْجِدِهِ –صلى الله عليه وسلم– ثم ثَارَتْ وهو صلى الله عليه وسلم عليها حَتَّى بَرَكَتْ بِبَابِ **أَبِي أَيُّوبَ**، رَئِيسِ **بَنِي النَّجَّارِ**، مِنَ الخَزْرَجِ، أخوالِ **عبدِ المُطَّلِبِ**، ثم ثَارَتْ وَبَرَكَتْ فِي مَبْرَكِهَا الأَوَّلِ، ثُمَّ صَوَّتَتَ. فَنَزَلَ صَلَّى الله عليه وسلَّم عَنْهَا، وَقَالَ: هَذَا الْمَنْزِلُ إِنْ شَاءَ اللهُ".

إن محمد العربي الفاسي كما يبدو كان مهتمّاً بالبحث عن وشائج قريبة وصلات معنوية بين هذه الأبيات، لتحديد المغزى العام للأبيات مستحضرا الشواهد المناسبة من القرآن والحديث والشعر.

إنَّ ما أوردتُه هو بعضٌ يسير من كلٍّ، كان الغرض منه، من جهة إبراز جمالية عناصر الشرح ومستوياته عند محمد العربي الفاسي، وما استخلصه من درر المعاني وغُرَر الفوائِد ولطيفِ الإشارات، ومن جهة أخرى، إبراز مدى نجاح الشارح في تغطيته مساحة هيكل الشرح لقصيدة الشقراطسية. إنّ اعتماد محمد العربي الفاسي هذه الآليات الفنية والجمالية –السالفة الذكر– وتوظيفها في النص المشروح كفيل بأن أقول:

استطاع الشارح أن يجعل الشرح مادة متنوعة المشارب والألوان، ويربطها بوثاق متين لم يفقد فيه مقاصده المعلنة في مقدمته، ووظف لها من الأساليب المنتقاة التي تذلل الصعاب، وتقرب من ظلال القصيد. فهي مادة تشكّلت من تنوع ثقافي مغربي/أندلسي، ومشرقي، ومعناها بعيد عن الزيادة في القول، والابتذال، ليناسب المقام المهيب لحضرة النبي الكريم، ومكانته السامية في القلوب ما يؤدي غرض الجلال، والمحبة، والشعور بالجمال.

في ختام هذا التقديم وبعد أن انتهيت من التحقيق فقد حاولت أن أقدم لهذا البحث بعرضٍ وصفي هام، للأحداث، والتطورات السياسية، والتاريخية والفكرية والثقافية، التي أسهمت في تلوين عصر الشارح محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ)، وذلك حتى أضع القارئ في سيرورة المشهد التاريخي للنص، وأبيّن مظاهر التأثير التاريخي للمعارف، وتغير الأحداث المختلفة، لأن سمة هذا العصر تميزت بالفتن والحروب، وأن شخصية محمد العربي الفاسي خاصة، والزاوية الفاسية عامّة كانا لهما حضور دائم وقوي في تلك المرحلة. وحاولت قدر المستطاع أن أظهر شخصيته. وقد ترجمت له ترجمة وافية تليق برفعته وشأنه، وأخذت بكل إشارة من المخطوط لها دلالة على صورة تقريبية، لتلك الحياة المضطربة، التي عاشها محمد العربي الفاسي، وأسهمت في نشاطه العلمي، وثقافته. كما استفدت من بعض الأعمال العلمية، والأدبية، التي سلطت الضوء على هذه الفترة. ثم ركزت على القصيدة وناظمها عبد الله الشقراطيسي (ت 466هـ)، حتى أضع القصيدة وصاحبها في المكانة التي تليق بهما. ولإظهار قيمتهما ترجمت لناظمها ترجمة مركزة مع دراسة القصيدة دراسة فنية بديعية، باعتبارها تدخل في فن البديعيات.

كما حاولت أن أرسم صورة عامة على هذا الشرح العلمي، من حيث بناؤه الكمي، والكيفي، وأن أصوّر قضاياه المتعددة، التي تضمنها هذا الشرح، سواء جاءت في مستوى المضامين المختلفة، أو على مستوى الشواهد.

سمح تحقيق وتقديم مخطوط محمد العربي الفاسي (ت 1052هـ) "شرح القصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية" للتوصل إلى نتائج، تتمثل إجمالاً في التعرف على العناصر المكونة للجهاز النقدي للمؤلف، وللإحاطة بالتصور المنهجي الذي يقوم على أساسه الشرح، وبالمسائل البلاغية والوسائل الجمالية التي يتوقف عليها تذوق النص الشعري عنده.

تبين لي من خلال هذا المنجز أن عمل محمد العربي الفاسي يقوم على خطة محكمة، إذ حاول أن يحيط بالجوانب اللغوية (المعجمية والصرفية)، والجوانب البلاغية، إضافة إلى إثارة كل ما يتعلق بمعاني النص، وظروفه من مسائل مختلفة، في منحى بلاغي لساني تناصي.

بمثل هذا العمل، يعد الشارح محمد العربي الفاسي علَماً من أعلام النقد الأدبي التراثي في الغرب الإسلامي، وواحداً من أعلام مدرسة الدراية والممارسة (في مقابل مدرسة الرواية والتبعية). كما أن هذا الشرح يمثل معلماً في دراسة حركة النقد الأدبي في الغرب الإسلامي عموماً، والمغرب على وجه خاص، وهو إذ يتناسق مع ما كان سائداً عند العلماء المشارقة والأندلسيين في تآليفهم، التي تجمع من المادة اللغوية والبلاغية والفوائد الأدبية والتاريخية قدراً وافراً، إلاَّ أنّه يثبت تميّزه عنها من خلال قيمته المنهجية التأطيرية للنص، وقيمته التحليلية له، اللتين تكشفتا في أثناء هذا العمل.

الباب الثاني:
التحقيق.

- العمل في التحقيق.

المطلب الأول: وصف النسخة المعتمدة للمخطوط.

المطلب الثاني: كتابات إملائية وعلامات خاصة مستعملة بالمخطوط.

المطلب الثالث: خطوات التحقيق.

* **كشاف الرموز.**
* **المتن المحقَّق.**
* **الفهارس العامة.**
  - فهرس الآيات القرآنية.
  - فهرس الأحاديث النبوية.
  - فهرس الأعلام.
  - فهرس الأشعار.
  - فهرس أبيات القصيدة برواية الشارح.
  - فهرس المصادر التي اعتمدها الشارح في شرحه.
  - فهرس الموضوعات.

المطلب الأول: وصف النسخة المعتمدة للمخطوط.

بداية أشير إلى وجود اضطراب في ترتيب اللوحات في وسط المخطوط، فقمت بترتيبها وبتتبع التعقيبات، للتأكد من تسلسل أوراق هذه النسخة المعتمدة، ورقمت اللوحات مخالفا الترقيم الوضعي الموجود في المخطوط.

نسخة بخط حفيد المؤلف –عمر بن يوسف بن المؤلف محمد العربي الفاسي– توجد ضمن مجموع، رقمها: 684 ع بخزانة علال الفاسي، والمجموع مكون من 11 مؤلَّف وهو كالآتي:

1- شرح الشقراطسية: لمحمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ). (من ص: 2 إلى ص: 130). هو موضوع أطروحتي.
2- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب: للشيخ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (ت 911هـ) (من ص: 131 إلى ص: 159).
3- مختصر في السيرة النبوية: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوي (ت 395هـ) (من ص: 161 إلى ص: 166).
4- قصيدة دالية نبوية من 30 بيتا: رضوان بن عبد الله الجنوي (ت 991هـ) (ص: 167).
5- رسالة إلى السلطان محمد بن يوسف للشيخ السنوسي (ت 895هـ) (ص: 168).
6- أوراق بها فوائد منقولة عن خط الشيخ عبد القادر الفاسي (ت 1091هـ) (علوم عامة) (من ص: 169 إلى ص: 184).
7- مقدمة إرشاد الساري لصحيح الإمام البخاري: للشيخ أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني(ت 923هـ) (حديث) (من ص: 186 إلى ص: 253).

8- شرح حديث "إنما الأعمال بالنيات": للشيخ زين الدين عبد الرحمان ابن رجب الحنبلي (ت 795هـ) (من ص: 253 إلى ص: 255).

9- تنوير الحوالك على موطأ الإمام مالك: للشيخ جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (ت 911هـ) (من ص: 256 إلى ص: 409).

10- حاشية على الشفا: للقاضي عياض لم يذكر صاحبها.(حديث) (من ص:410 إلى ص: 517).

11- البركة البكرية في الخطب الوعظية وهي ثلاث وخمسون: للشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر الصغير الدلائي. (ت 1089هـ) (أدب ومواعظ) (من ص: 517 إلى ص: 577).

1- بدايتها:

بسم الله الرحمان الرحيم صلى الله على سيدنا محمد, آله, صحبه, سلم تسليما.

قال الشيخ الإمام الهمام القدوة المشارك العلامة المبارك خاتمة علماء المغرب مُحَمَّدُ الْعَرْبي ابن القطب العارف بالله أبي المحاسنِ يوسفُ ابنَ العارفِ باللهِ محمّد ابن يوسفُ بنُ أبي بَكرِ بنَ الجدِّ نسبًا الفاسي لَقَبًا رَحِمهُمُ اللهُ ورضيَ عنهمْ ونفعَ بهم. آمين

2- مجموع لوحاتها:

136 لوحة ترقيمها الوضعي فيه خلل، وعمد الناسخ إلى إثبات الرقاص في جميع اللوحات.

3- مسطرتها:

25 سطرا في كل لوحة.

مقياسها: 28,5 × 20,5سم

كتبت بخط مغربي مجوهر جميل واضح في معظمه، استعمل الناسخ فيه الحبر الأسود وميز أبيات القصيدة، واسم مؤلفها ونسبه، وكلماتها المشروحة بلون أحمر واضح، من جهة، ومن جهة أخرى، عمد الناسخ إلى كتابة اسم مؤلف الشرح ونسبه، في ترجمة ديباجة المخطوط، بخط كبير مزخرف أحمر. كتبت هذه المخطوطة –كما هو مثبت في نهايتها– بخط الفقيه عمر بن يوسف بن المؤلف محمد العربي الفاسي الذي استخرجها من مبيضتها وفيها كثير من البياض. دون ذكر تاريخ نسخها. وبها طرر قليلة.

5- نهايتها:

"ووافق الفراغ منه مغرب يوم الخميس خامس ربيع الثاني عام خمسة وعشرين وألف موافقًا لثامن عشر أبريل، ببوزيري، أحد قرى مصمودة عمل زاجن، مهداها الله بمنِّه. قال ذلك وكتب مؤلفه العبد الفقير إلى الله تعالى محمد العربي بن يوسف بن محمد الفاسي، لطف الله به وخار له بمنّه، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

انتهى شرح الشقراطسية بحمد الله وحسن عونه من خط الفقيه العلامة عمر بن يوسف بن مؤلفها محمد العربي؛ فقد استخرجها من مبيضتها وفيها كثير البياض رضي الله عنهم ونفع بهم آمين.

اللهم اغفر لكاتبه ومؤلِّفه ولجميع المومنين والمومنات، الأحياء منهم والأموات وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين".

المطلب الثاني: كتابات إملائية وعلامات خاصة بالمخطوط.

يتخلل المخطوط تحريفات وتصحيفات وقع فيها الناسخ وهذه بعض الأمثلة:

الكلمة في المخطوط	التصويب
الذين	الدين

أخذ	أخذ
للحلق	للخلق
حرملين	مُرْملين
لنصح	لنضج
الضهور	الظهور
الميكة بالعوارض	الملكة بالعوارض

كتابة الألف المقصورة ممدودة والعكس مثل:

استحيا	استحيى
دعى	دعا
أظما	أظمى
أحبا	أحبى
ثنا	ثنى
دنى	دنا
تداعا	تداعى

أحيانا إهمال الهمزة المتأخرة:

الحمرا	الحمراء
الحكما	الحكماء
الابتلا	الابتلاء

رسم الهمزة:

نسئله	نسأله
رءى	رأى
تزءر	تزأر
إنشاءى	إنشائي
ياءيٌّ	يائيٌّ

ماءا	ماء
أبأر	أبْؤُر

زيادة الألف بعد الأفعال المنتهية بواو مثل:

يسموا	يسمو
أرجوا	أرجو

رسم التاء آخر الكلمة:

المبالات	المبالاة
رحمت	رحمة
الملاقات	الملاقاة

حذف الألف في:

تعلى	تعالى
خلق	خالق

❖ استعمل الناسخ علامة الإلحاق، للإشارة إلى مكان الساقط أثناء النسخ، وحدد الجهة التي يثبت بها في هامش الكتاب، الذي يدون فيه السقط بخط أفقي صغير، يتجه يمينا أو يسارا، ويرسم أمام الكلمة "صح" صغيرة.

❖ خرج في الهامش ليُحيل القارئ إلى مصدر معين، ووضع فوق العبارة حرف "ط" للإشارة إلى أنها طرة وليست من الأصل، مثل: ذكر ذلك السيوطي في أوّل ورقة السادسة من الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، ووضع فوقها حرف "ط".

وقوله: يلحق تجديد الحجاز وغيره من الأقاليم المذكورة إن شاء الله من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري هو بكتبنا بفاس. ووضع فوقها حرف "ط".

❖ أشار في الهامش إلى عناوين فرعية وهي زيادة من الناسخ، ونبه على ذلك بلفظ "قف على" مثل:

– قف على ما وجد مفيدا قد كان المؤلف رحمه الله ترك هنا يعني في هذا المحل بياضا ووضع فيه وُرَيْقات مذكور فيها غزوة بدر غير خطه، فكتبتها كما وجدتها على ما فيها من إسقاط وغيره. انتهى.

– قف على المؤلف رحمه الله على كتابه مباهج الأفكار ومناهج الاعتبار في السير والتاريخ والأخبار رحمه الله.

– قف على المطر ينزل لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنَا عَلَيْها الماءَ اهْتَزَّتْ﴾.

– قف على كلام: أبو المحاسن سيدي يوسف الفاسي في القضاء والقدر.

– قف على الخوف والأمراض وما أشبه ذلك فهو سبب في الشيب.

المطلب الثالث: خطوات التحقيق.

لعل شرح محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) على القصيدة الشقراطسية من أهم الشروح، كما ذكرت سلفًا في مقدمة البحث، والذي كتب عليه، أن يبقى سالمًا من عاديات الزمن، وكتب عليه أن يبقى ليرى النور من جديد، ويصل إلى يدي بفضل أستاذي فضيلة الدكتور إدريس الفاسي الفهري[1] الذي أدلّني عليه وشجعني على تحقيقه، بعد أن ظلّ زمنًا دفين رفوف الخزائن، والمكتبات. آملا من الله أن أوفق بإخراجه بصورة سليمة، ليستفيد منه من يريد الفائدة العلمية.

في بحثي هذا قمت بجملة من القواعد المعمول بها، في ميدان التحقيق، كما استفدت من توجيهات أستاذي المشرف فضيلة الدكتور خالد سقاط[2] –فجزاه الله عنّي

[1]– وأستاذ التعليم العالي بكلية الشريعة جامعة سيدي محمد بن عبد الله–فاس، وخطيب جامع القرويين بفاس.

[2]– أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب ظهر المهراز جامعة سيدي محمد بن عبد الله–فاس.

خيرا- وحاولت الالتزام بالتوجيهات الخاصة، في إخراج هذا العمل على الوجه الذي أهدف إليه، وأجمل هذا العمل فيما يأتي:

1- كتابة المتن:

كتبت المتن المحقق في أعلى الصفحة، وتحته الهامش، وجعلت كل صفحة بهوامشها مستقلة بأرقامها، وجعلت ما يخدم النص من ترجمة، وتوثيق، وتعليق، ولم أتدخل في المتن، إلا بقدر ما يسمح به التحقيق العلمي، وبعض التصحيحات الضرورية، كالآيات القرآنية، أو بعض الحالات الإملائية.

كما وضعت بعض الترقيمات الخاصة للإشارة إلى بداية كل لوحة، مثل: لوحة 1 – لوحة 2، ووضعتها بين فاصلتين للتنبيه أنها خارج المتن: ، لوحة...،.

كما وضعت هذه الإشارة [ ] لكل ما أجده من أخطاء، وتحريفات، أو بياض لكل ما سقط من الكتابة، وكنت أشير إلى الوجه الذي أعتقد أنه الأصوب، أو الأنسب في الهامش، وكل ما أعتقد أنه تحريفا، أو تصحيفا، أو خطأ أثبت صوابه في موضعه الأصلي، وأشير إليه في الهامش، وأبين صورته التي جاء عليها، بعبارة: في الأصل: "كذا".

والجدير بالذكر أنه كان لزامًا أن أقابل المخطوط بالمصادر المحققة (القرآن–الأحاديث–النقول–الأشعار)، أو ملء البياضات من المصادر –إن أمكن ذلك– باعتبار أن المخطوط فيه كثير من البياض.

2- الشرح والتقويم:

اعتمدت في هذه العملية على المعاجم، وكتب اللغة المعتمدة من طرف الشارح وأخذت منها ما أحتاجه من شرح وتقويم، سواء في الهوامش، أو في الكشف عن بعض التحريفات، والأخطاء، واختلاف الروايات.

3- التخريج والتوثيق:

خرجت جميع الآيات القرآنية، كما أثبتها المؤلف برواية ورش، ونقلتها من موقعها الإلكتروني برسمها المصحفي، كما خرجت جميع الأحاديث النبوية، بالرجوع إلى كتب الحديث من صحاح، ومسانيد، ومجامع، وجميع الأخبار المرتبطة بالسنة، والسيرة النبوية من كتب الشمائل، والتفسير، ووثقت الأشعار بالاعتماد على الدواوين أو شروحها، وأمهات كتب الأدب.

وكان منهجي كالآتي:

- **تخريج الآيات القرآنية:** سواء ما ذكر منها نصا كاملا، أو ما أشير إليه، أو ضمن معناه أو لفظه، أو جزء منها في ثنايا الكلام. وقد اعتمدت على المصحف الكريم برواية ورش، فذكرت اسم السورة أولا، ثم رقم الآية، وبينتها بخط أندلسي بارز ووضعتها بين قوسين مزهرين.

- **تخريج الأحاديث النبوية الشريفة والآثار:** قمت بالإحالة على مصادرها من مظان الأحاديث المعتمدة والمشهورة، بينت درجتها في الصحة والضعف، اعتمدت على المظان من كتب الحديث الصحيحة، إلا أنني صادفت أحاديث في الشرح لم أعثر عليها في كتب الصحاح والسنن، لذلك اكتفيت بعزوها إلى مظان أخرى.

- **التعريف بالأعلام الواردة في المتن:** حيث ذكرت اسم العلم وكنيته، وتاريخ وفاته، وأبرز مؤلفاته، مع الإشارة إلى المصادر والمراجع التي ترجمت له. ورتبتها حسب تاريخ الوفاة. ولم أترجم للمشاهير.

- **توثيق النقول المستشهد بها داخل المتن:** حيث اجتهدت قدر المستطاع أن أردها إلى مظانها وذكر مؤلفيها.

- **توثيق الأبيات الشعرية:** ذكرت أصحابها وبحرها العروضي، وعنوان القصيدة ومطلعها. وترد عادة دون نسبة لصاحبها، لكنني وُفِّقْتُ غالباً في توثيقها، فأشرت إلى مصادرها، ورقم الصفحات الواردة فيها في الهامش، مع تحديد الاختلافات التي وقفت عندها.

4- الترقيم:

رقمت صفحات قسم التحقيق بترقيم مستقل عن ترقيم صفحات التقديم.

5- الإحالة:

أثناء التوثيق سواء في قسم التقديم أو التحقيق قدمت الجزء والصفحة، وبعده اسم الكتاب واسم المؤلِّف، ثم اسم المحقق إن وجد، بعد ذلك دار النشر، ثم الطبعة وسنتها، لأختم بمكان دار النشر.

6- الفهارس:

وضعت فهارس علمية عامة ذيلت بها البحث، تروم الوصول إلى المراد من النص بأيسر الطرق وأسهلها، وتيسير التداول العلمي للمعطيات، ووضعتها وفق الترتيب الآتي:

- **فهرس الآيات القرآنية:** اعتمدت الآيات القرآنية بحسب تسلسل سورها في المصحف الكريم، مع الإحالة على اسم السورة، ورقم الآية، ورقم السورة التي وردت فيها الآية، ورقم الصفحة.

- **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة:** رتبتها ترتيبا أبجديا، ذكرت بداياتها، وأشرت إلى رقم الصفحات الواردة فيها.

- **فهرس الأعلام:** أثبت أسماء الأعلام الواردة في المتن، ورتبتها وفق الترتيب الأبجدي، وقدمت اللقب عن الاسم، وأشرت لرقم الصفحات الواردة فيها.

- **فهرس أبيات الشقراطسية برواية الشارح:** وضعت فيها أبيات القصيدة كما وردت في المتن بنفس الترتيب ليسهل الوصول إليها.

- **فهرس الشواهد الشعرية:** رتبتها حسب قافية البيت داخل دائرتها العروضية، ترتيبا أبجديا، وعزوتُها إلى قائلها إن علم، والبحر الذي نظمت على وزنه، ورقم الصفحة التي وردت فيها.

- **فهرس الكتب الواردة في المتن:** وضعتها وفق ترتيب أبجدي.

- **فهرس المصادر والمراجع المعتمدة في التقديم والتحقيق:** رتبتها ترتيبا أبجديا.

وأتمنى أن أيسر للقارئ هذا العمل، والله يهدي السبيل.

7- نماذج من المخطوط.

كشـاف الرمــوز

[ ] : ما بين القوسين المزهرين آيات من القرآن الحكيم برواية ورش.

[[ ]] : بيت من القصيدة لم يذكره كاملا في المتن.

[ ] : ما بين معقوفتين سقط من الأصل أو إضافة من المصادر، أو تصويب للتحريفات والتصحيفات.

" " : تحديد الأقوال والنقول المقتبسة وعناوين المؤلفات.

ح . ر : حديث رقم.

تح : تحقيق.

م. ن : المصدر نفسه.

مر. ن : المرجع نفسه.

م. س : مصدر سابق.

د. ط : دون طبعة.

د. ت : دون تاريخ.

ج : الجزء.

ص : صفحة.

ر. ت : رقم الترجمة.

(هـ، ش) : الخبر في الهامش

طـ : طُبع

الفهرس العام لموضوعات التقديم

الإهداء

كلمة شكر

شكر خاص

تمهيد 1

مقدمة 3

الباب الأول: التقديم 14

الفصل الأول 14

المبحث الأول: عصر الشارح محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) –شارح القصيدة الشقراطسية– 15

المطلب الأول: الحالة السياسية 17

المطلب الثاني: الحالة الثقافية والعلمية 33

المبحث الثاني: ترجمة شارح القصيدة الشقراطسية: أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي (ت 1052هـ) 44

المطلب الأول: اسمه ونسبه 45

المطلب الثاني: نشأته وولادته 45

المطلب الثالث: شيوخه 46

المطلب الرابع: تصدره للإقراء وتلاميذه 48

المطلب الخامس: مكانته العلمية و شهادات وأقوال العلماء فيه 49

المطلب السادس: محنته ووفاته 51

المطلب السابع: مصنفاته 53

المبحث الثالث: الزاوية الفاسية 55

المطلب الأول: أصل الأسرة الفاسية ونشأتها 56

المطلب الثاني: مناقب الأسرة الفاسية وأدوارها 62

المطلب الثالث: الزاوية الفاسية وأدوارها وفروعها 68

الفصل الثاني.....81

المبحث الأول: التعريف بعبد الله بن يحيى بن علي الشقراطيسي (ت 466هـ).....82

المطلب الأول: اسمه ونسبه.....83

المطلب الثاني: ولادته وتعلمه، ورحلاته العلمية.....83

المطلب الثالث: وفاته.....86

المطلب الرابع: شعره (الغزل–الفخر–الرثاء–المديح).....86

المطلب الخامس: آثاره.....95

المبحث الثاني: التعريف بالقصيدة الشقراطسية في الممادح النبوية.....97

المطلب الأول: نص القصيدة الشقراطسية (تحقيق الأستاذ عبد الله كنون).....98

المطلب الثاني: المديح النبوي وتطوره في المشرق والغرب الإسلامي.....109

المطلب الثالث: حول تاريخ القصيدة الشقراطسية.....120

المطلب الرابع: القصيدة الشقراطسية وأثرها في قصائد المديح بعدها.....122

أ – الشقراطسية وأثرها في البردة والهمزية.....123

ب – تعشيرها – توشيحها – تخميسها – تشطيرها – شروحها.....131

المبحث الثالث: البناء الفني للبديعية الشقراطسية.....139

المطلب الأول: هيكل القصيدة.....140

المطلب الثاني: موسيقى القصيدة (الإيقاع الخارجي).....144

المطلب الثالث: الإيقاع الداخلي المميز للامية الشقراطيسي.148

المطلب الرابع: ألوان الفنون البديعية في الشقراطسية.....151

الفصل الثالث.....163

المبحث الأول: الشروح الشعرية: النشأة والتطور.....164

المطلب الأول: نشأة الشروح الشعرية 165
المطلب الثاني: تطور عناصر الشروح الشعرية 171
أ– وسيلة الشروح الشعرية وغاياتها 171
ب– اتجاهات الشروح الشعرية 173
– اتجاه لغوي 173
– اتجاه نحوي 174
– اتجاه بلاغي 175
– اتجاه نقدي 176
– اتجاه تاريخي/اجتماعي 177
– اتجاه إشاري في شرح الشعر 177
المبحث الثاني: التعريف بالكتاب المُحَقّق بين دوافع التأليف ومنهجية المؤلِّف وأهمية المؤَلَّف 180
المطلب الأول: تحقيق عنوان الكتاب ونسبته لمؤلّفه 181
المطلب الثاني: دواعي اختيار الشارح للنص المشروح 181
المطلب الثالث: منهج المؤلِّف في شرح القصيدة الشقراطسية 183
المطلب الرابع: القيمة العلمية والأدبية للمؤلَّف (أهمية الكتاب) 186
المطلب الخامس: مصادر الشرح 187
المبحث الثالث: مضامين الشرح 196
المطلب الأول: الشرح اللغوي 197
أ– شرح الألفاظ 197
ب– الصيغ الصرفية 201
المطلب الثاني: الشرح النحوي 203
المطلب الثالث: الشرح البلاغي 205
المطلب الرابع: المضامين التاريخية 207
المطلب الخامس: شرح المعنى العام للأبيات 208

الباب الثاني: التحقيق 217
. العمل في التحقيق 217
المطلب الأول: وصف النسخة المعتمدة للمخطوط 218
المطلب الثاني: كتابات إملائية وعلامات خاصة
مستعملة بالمخطوط 220
المطلب الثالث: خطوات التحقيق 223
*** كشاف الرموز** 229

فهرس الجزء الثاني الخاص بالتحقيق

* **المتن المحقق** 1/ج2

* **الفهارس العامة** 318

- ❖ فهرس الآيات القرآنية 319
- ❖ فهرس الأحاديث النبوية 326
- ❖ فهرس الشواهد الشعرية 330
- ❖ فهرس الأعلام 333
- ❖ فهرس المصادر الواردة في المتن 348
- ❖ فهرس أبيات القصيدة الواردة في المتن 355
- ❖ لائحة المصادر والمراجع 361
- ❖ فهرس محتويات الأطروحة 394

الإهداء

إلى أمّي الغالية، الواقفة على باب رضى المولى الرحمان الرحيم، ورسوله المعظم الفخيم.

أهدي إليها زهرة إجلال وامتنان، وأقحوانة محبة وإحسان، فلولا دعواتها لما اكتمل هذا العمل، وإن أهديتها الغالي والنفيس لم أوف بحقها العظيم، غير أني أرجو الله العلي القدير أن يشملها بالرضى والعافية في الدنيا والآخرة.

جعلني اللهُ برضاها مشمولاً

وفي قرة عينيها مغموراً

وعلى برها دائماً

ولآثارها واصلاً

وبالإحسان إليها قائماً.

إلى أختي بشرى ويسرى وزوجيهما الدكتور محمد عباسي قضاوي والسيد إدريس عجاني. وأبنائهما، حمزة ولينة، وياسمين ورانيا، حفظهم الله وزادهم قربا وبصيرة، وجعلهم في زمرة أحبته القانتين الساجدين.

إلى جميع الأهل والأحباب، والأصدقاء والأصحاب.

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أسهم في إنجاز هذا العمل.

إلى أستاذي الكريم فضيلة الدكتور خالد سقاط الذي كان له الفضل في تتبع خطوات البحث موجهاً مرشداً ومقوّماً.

إلى أستاذي الفاضل فضيلة الدكتور إدريس الفاسي الفهري على ما قدمه لي من مساعدة وأحيانا وهو في الديار المقدسة.

وإلى أستاذي الجليل خديم الأدب المغربي، بالعمل الجاد والمواقف المسددة فضيلة الدكتور عبد الوهاب الفيلالي فمهما بحث في قاموس الكلمات ونثرت من عبارات الشكر فلن ولم أجد كلمات توفيكم حقكم وقدركم على ما قدمتموه لي من مساعدات علمية.

والشكر موصول والأكيد إلى أستاذتي الفاضلة الدكتورة سعيدة العلمي، التي لم تبخل قطّ بمدي بالمصادر والمراجع الضرورية التي أفادتني في بحثي، وفي مقدّمتها أطروحتها التي نالت بها شهادة دكتوراه الدولة.

وإلى أساتذتي الأجلاء الفضلاء الدكاترة عبد الله بنصر العلوي، ومولاي أحمد العراقي، وسيدي أحمد زكي كنون على ما أسدوه لي من مساعدات علمية واجتماعية.

وأصل بالشكر الجزيل وعميق التقدير إلى السيدة نزهة بن سعدون رئيسة قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بالرباط، والسيد حسن شويكة رئيس قسم المخطوطات بالخزانة الملكية بالرباط، على ما قدما لي من مساعدة وتسهيلات.

وكل الشكر والتقدير والاحترام لكل الأساتذة الذين درّسوني في سلك الماستر "الإبداع الصوفي في الأدب المغربي".

إلى أمي التي كانت سنداً وعضداً.

وإلى إخوتي.

شكر خاص

أستاذي فضيلة الدكتور خالد سقاط مهما قلت في حقكم من كلمات وعبارات الشكر، والله لن أوفيَ بحقكم، على ما أسديتموه لي من دعم، وتقويم، وتأطير، ومساعدة، ونصح.

عرفت فيكم القدرة العلمية الفائقة، والتحقيق والتدقيق، والاهتمام الصادق بي، فبمساعدتكم أصبح هذا العمل لاحباً، والمطلوب قريباً.

أتقدم إليكم مرة أخرى بعميق الشكر وخالص الامتنان وأدعو الله أن يشفي زوجكم الحاجة الشريفة إلهام الراشدي جعدان ويحفظها بما حفظ به الذكر الحكيم.

كما أدعو الله أن يقر عينكم بذريتكم: زينب ويسرى وعمر.